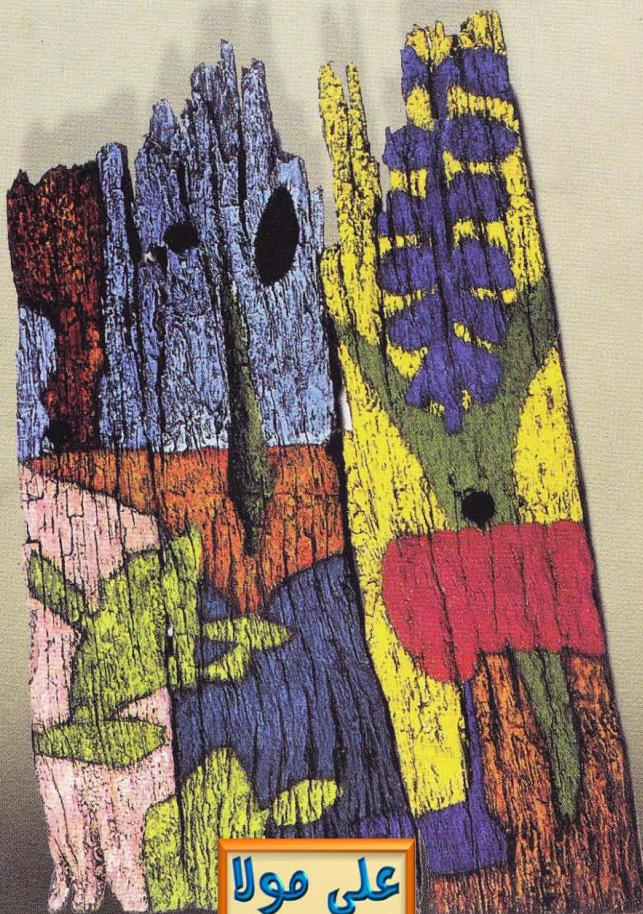


تشنوا الشبي أشياء تداعى

ترجمة: سمير عزت نصار



منة كتاب وكتاب هدية دورة الشباب .. مشروع "دورة المعرفة للجميع"

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

٢٠١٢ ترجمة

تشنوا الشبي

أشياء تداعى

ترجمة: سمير عزت نصار





الأهلية للنشر والتوزيع

الملكة الأردنية الهاشمية ، عمان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمان / الأردن
e - mail : alahlia@nets.jo

أديهاء تداعى
ترجمة: سمير عزت نصار

الطبعة العربية الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : زهير أبو شايب / الأردن

© سمير نصار

الصف الضوئي :

التنضيد والإخراج : دار النسر للنشر والتوزيع

*All rights reserved. No part of this book may be reproduced
in any form or by any means without the prior permission of
the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه ، بأي شكل من الأشكال ، إلا باذن خطّي مسبق من الناشر .

ولسد تشنيناو أتشيببي في ١٦/نوفمبر/١٩٣٠ في أوجيدي ، على بعد بضعة أميال إلى شمال شرق أونيشا . كان أبوه وكيل كنيسة . وهذا يعني أنه كان يتعلم في مدرسة الإرسالية التبشيرية أيام الأسبوع كما كان مسؤولاً عن كنيسة القرية في نفس الوقت . وقد داوم أطفال أتشيببي في مدرسة الإرسالية هذه ، ومنها منح تشنينا حق الدخول إلى كلية الحكومة في أومواهيا في ١٩٤٤ .

في ١٩٤٨ ، دخل تشنينا كلية الجامعة في إيدان ، حيث درس الإنجليزية والتاريخ والدين ، وحصل على درجة B.A في ١٩٥٣ . بعد التخرج ، انضم إلى خدمة الإذاعة النيجيرية كمتحج أحاديث (١٩٥٧) ليصبح رئيس قسم الأحاديث (١٩٥٧) ومراقب المنطقة الشرقية (١٩٥٩) . وفي ١٩٦١ ، عين مديرًا للخدمات الخارجية كمسؤول عن صوت نيجيريا وانتقل إلى لاجوس .

وتشينوا أتشيببي رجل كثير الترحال . ففي ١٩٦٠ ، تلقى منحة روكلير التي مكنته من السفر كثيراً في شرق ووسط أفريقيا ، وفي ١٩٦٣ ، مُنح جائزة يونسكو ثانية للسفر ودراسة التراثات الأدبية في الولايات المتحدة والبرازيل وبريطانيا . كما أنه قام بالعديد من الرحلات على حسابه الخاص داخل وخارج نيجيريا .

تزوج تشنينا بكريستين - ولهمما الآن ثلاثة أطفال . وهو يعبد أسرته . وينادي بتعزيز الروابط والمسؤوليات المتعلقة بالعائلة الموسعة التي لديها في نيجيريا . وله أحد أكبر منه يقول عنها: «روت لي قصصاً كثيرة حينما كنتُ صغيراً حتى يمكنني القول إنها هي التي عرّفتني على متعة وفن رواية القصص» .

بين ١٩٥٨ ، ١٩٦٤ ، كتب أتشيببي أربع روايات . نُشرت رواية: *أشياء تتداعى* في ١٩٥٨ . وفي ١٩٦٠ نُشرت رواية: *لم يعد مطمناً* ، التي خطط لها بالأصل وكتبها كجزء من *أشياء تتداعى* . ونشرت رواية: *سهم الله* في ١٩٦٤ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها: *تشيكي والنهر* (التي يدعوها «رواية للفتيان») وقدّمها إلى مطبعة جامعة أوكسفورد للنشر .

ترجمت الروايات الأوليّان - *أشياء تتداعى* ، *لم يعد مطمناً* - إلى الألمانية والإيطالية والإسبانية والسلوفينية والروسية والعبرية والفرنسية والتشيكية وال مجرية .

إن ما يلفت الانتباه في الأدب النيجيري الآن هو أن أغلب الروائيين أشخاص يعملون طيلة النهار في مكاتب . وهذه السمة تلفت النظر بطرقين واضحتين: أولاً ، يستطيع هؤلاء الروائيين ولديهم الطاقة (العقلية والجسمانية) للكتابة إضافة إلى العمل العادي: ثانياً ، العمل في مكتب في لاجوس أو إيدان أو إنوجو ، أو العيش في عزلة عن المجتمع ، لم يعزل أتشيببي ولا ألوكوني ولا إكوني ولا نزيكوكو عن مضمون أدب مجتمعاتهم سريعة التغيير .

الجزء الأول

فصل ١

أحرز أوكونكoo شهرةً واسعة في جميع أنحاء القرى التسع وحتى فيما وراءها . وقد قامت شهرته على إنجازات شخصية راسخة . فحين كان شاباً في الثامنة عشرة ، حاز لقريته على شرف عظيم بتغلبه على الهرّ أمالينز . كان أمالينز المصارع العظيم الذي لم يقهره أحد ، من أومووفيا إلى مباستوطيله سبع سنوات . كان يدعى الهرّ لأن ظهره ما كان يلمس الأرض أبداً . وهو الرجل الذي طرحته أوكونكoo أرضاً في قتال وافق الرجل العجوز على أنه أشرس قتال منذ أن تصارع مؤسس بلدتهم مع روح البراري مدة سبعة أيام وسبع ليال .

قرعت الطبول وعزفت المزامير وحبس المشاهدون أنفاسهم . كان أمالينز فناناً ماكراً ، لكن أوكونكoo كان زلماً كسمكة في الماء . برز كل عصب وكل عضل في سواعدهما ، وفي ظهريهما وأفخاذهما ، وكاد أن يسمع انشدادها إلى حد نقطة الانكسار . في النهاية ، طرح أوكونكoo الهرّ أرضاً .

حدث ذلك قبل سنتين عديدة ، عشرين عاماً أو أكثر ، وأثناء هذا

الوقت ، انتشرت شهرة أوكونكoo كحريق غابة أثناء هبوب رياح الحرور / هارماتان . كان طويلاً وضخماً ، أضفى عليه حاجباه الكثبان وأنفه العريض مظهراً صارماً جداً . وهو يتنفس تنفساً ثقيلاً ، وقد قيل أن زوجاته وأطفاله كانوا يسمعون صوت تنفسه أثناء نومه وهم في أكواخهم البعيدة عن كوخه . حين يمشي ، لا يكاد عقباه أن يمس سطح الأرض ، فيبدو أنه يمشي على نوابض ، كأنه يوشك أن ينقض على شخص ما . وفعلاً ، كثيراً جداً ما قفز منقضاً على الآخرين . وهو يشكو من تلعثم طفيف في النطق ، وحين يغضب ولا يستطيع أن ينطق كلماته بسرعة كافية ، يستعمل قبضتيه . وهو لا يصبر على الرجال الفاشلين . ولم يصبر على أبيه .

مات أونوكا ، فهذا هو اسم أبيه ، منذ عشر سنوات . كان أثناء حياته كسولاً ومبذراً وعجزأ تماماً عن التفكير في الغد . فإذا توفر مال بين يديه ، ونادراً ما يحدث هذا ، كان يسترeri به فوراً قرعات نبيذ نخيل ، ويدعو جيرانه فيلهون . وقد قال دائماً إنه كلما رأى فم رجل ميت ، رأى حماقة ألا يأكل الإنسان ما لديه أثناء حياته . كان أونوكا مديوناً بالطبع ، فقد استدان من كل جار له مبلغاً من المال تراوح بين بضع ودعات حتى مبالغ كبيرة حقاً .

كان طويلاً لكنه نحيل جداً ومحني الظهر قليلاً . واكتسى بملامح هزيلة وحزينة إلا عندما يشرب أو يعزف على نايه . كان ماهراً جداً في العزف على الناي ، فكانت أسعد لحظات حياته هي الأيام الواقعة بعد قمرتين أو ثلاثة أقمار من الحصاد حينما يُحضر الموسيقيون آلاتهم ،

فيتحلقون حول موقد النار . فيعزف أونوكا معهم ، ووجهه يشعّ غبطةً وطمأنينة . وقد تطلب قرية أحياناً من فرقة أونوكا الموسيقية ورقصها الإيجوجو أن يأتوا إليها ويمكثوا فيها ويلعموهم الحانهم . فيذهبون إلى مثل هؤلاء المضيفين لفترة تطول إلى ثلاثة أو أربعة أسواق ، ويعزفون الموسيقى ويحتفلون . وقد أحب أونوكا الارتحال الجيد والرقة الجيدة ، وأحب الموسم الذي تتعبس فيه الأمطار وتشرق فيه الشمس كل صباح بجمال باهر . ولا يكون الطقس حاراً جداً أيضاً ، لأن رياح الحرور الباردة الجافة تهب هابطة من الشمال . وقد تكون ريح الحرور في بعض السنين قاسية جداً ويتعلق سديم كثيف في الجو . فيجلس العجائز والأطفال حول نيران الحطب المشتعلة ، ويدفئون أجسادهم . وقد أحب أونوكا كل هذا ، وأحب الحدّات الأولى العائدة مع الموسم الجاف ، والأطفال الذين يغنوون أغاني الترحيب بها . فيتذكر طفولته ، وكيف كان غالباً ما يهيم على وجهه باحثاً عن حداً تبحر على مهل في صفحة السماء الزرقاء . وحالما يعثر على واحدة ، يعني لها بكل كيانه ، مرحباً بعودتها من رحلتها الطويلة الطويلة ، ويسألهما إنْ كانت جلبت إلى موطنها أية قطع قماش .

كان ذلك منذ سنين خلت ، عندما كان شاباً . أما أونوكا الرجل الناضج ، فكان فاشلاً . كان فقيراً ولا يكاد يوفر لزوجته وأطفاله ما يأكلونه . فسخر الناس منه لأنّه كان صعلوكاً ، وأقسموا ألا يقرضوه مزيداً من المال أبداً لأنّه لا يسدّ دينه . لكن أونوكا كان ينتمي إلى

ذلك النوع من الرجال الذين ينجحون دائمًا في اقتراض المزيد ،
وتكميل الديون .

ذات مرة ، أتى جار له يدعى أوكوني لزيارته . كان أونوكا متكتئاً
على سرير من الطين في كوخه ويعزف على الناي . وثبت واقفاً على
الفور وصافح أوكوني ، الذي فرش جلد ماعز كان يحمله تحت
إبطه ، وجلس . ذهب أونوكا إلى غرفة داخلية وعاد بسرعة حاملاً
صحناً خشبياً صغيراً يحتوي على جوزة كولا ، وقليل من فلفل
التمساح وقطعة طباشير بيضاء .

صرّح حين جلس : «لدي كولا» ، وناول القرص لضيفه .
أجاب أوكوني وهو يعيد القرص : «شكراً . منْ يحضر كولا يحضر
الحياة . لكنني أعتقد أن عليك أن تكسرها أنت» .
ـ «كلا ، إنها لك على ما أظن» .

تجادلا على هذا النحو بضع لحظات قبل أن يقبل أونوكا شرف
كسر الكولا . في هذه الأثناء ، تناول أوكوني قطعة طباشير ، ورسم
بضعة خطوط على الأرض ، ثم لون أصبع قدمه الكبير . وبينما كان
أونوكا يكسر الكولا ، صلّى داعياً لأجدادهما أن يمدوهما بطول الحياة
والعافية ، ويعموهما من أعدائهما . حينما أكلا ، تحدثا حول أمور
كثيرة : حول الأمطار الغزيرة التي تغرق بطاطا أيام ، وحول
احتفالات الأجداد القادمة وعن الحرب وشيكة الواقعة مع قرية
مبانيو . لا يحسّ أونوكا بالسعادة أبداً حين يصل الكلام إلى الحرب .

فهو في الحقيقة جبان لا يطيق رؤية الدم . لذلك غير الموضوع ، وتحدث عن الموسيقى ، فأشرق وجهه . فهو يسمع بأذن عقله إيقاعات الإيكوي والأدوود والأوجيني المتشابكة والمثيرة للدم وبسمع صوت نايه يتلوى داخلًا في هذه الإيقاعات وخارجاً منها ، مزيناً إياها بنغمة ملوونة وحزينة . فكان التأثير الإجمالي لها مرحًا ورشيقاً ، لكن الإنسان لو التقى صوت الناي في علوه وخفوته وجزأه إلى نتف صغيرة ، لرأى فيه الأسى والحزن .

كان أو كويي موسقياً أيضاً . فهو يعزف على الأوجيني . لكنه لم يكن فاشلاً مثل أونوكا . إنه يملك مخزناً كبيراً مليئاً باليام وثلاث زوجات . وسيحصل الآن على لقب إيديميلي ، ثالث أعلى الألقاب في البلاد . والاحتفال بهذا اللقب غال جداً ، لذلك راح يجمع كل موارده . وكان هذا في الحقيقة هو سبب زيارته لأونوكا . فسلك حلقه وبدأ : «شكراً على الكولا . لعلك سمعت باللقب الذي أنيوي الحصول عليه قريباً» .

بعد أن تحدث أو كويي حتى الآن بلغة بسيطة ، راح يوشي جمله الست التالية بلغة الأمثال . فلن الحديث يتبوأ لدى الإييو مكانة رفيعة جداً ، والأمثال هي زيت النخيل الذي تؤكل الكلمات معه . كان أكويي محدثاً ذلق اللسان فتحدث طويلاً ، لا قاءً حول الموضوع ثم داخلًا فيه في النهاية . بایجاز ، كان يطلب من أونوكا أن يعيد إليه مائتي ودعة اقترضها منه قبل أكثر من عامين . وما أن أدرك أونوكا ما يقصده صديقه ، حتى انفجر ضاحكاً . قهقهه عالياً وطويلاً ورنّ صوته

صافياً كالأوجيني ، وترقفت الدموع في عينيه . ذُهل زائره ، وجلس صامتاً . في النهاية ، تمكّن أونوكا من الرد وسط تفجّرات متّجدة من المرح .

قال : «أنظر إلى ذلك الجدار» ، وأشار إلى جدار كوخه القصيّ المفروك بالطين الأحمر حتى أصبح لاماً . «أنظر إلى خطوط الطباشير تلك» ، رأى أوكونيي مجموعات خطوط عمودية قصيرة مرسومة بالطباشير . كانت هناك خمس مجموعات ، شملت أصغرها عشرة خطوط . ولأنّ أونوكا يتحلى بحسّ دراميّ ، أفسح المجال لفترة صمت قصيرة ، تناول أثناءها قبضة سعوط وعطس بصوت عال ، ثم استأنف : «كل مجموعة هناك تمثل ديننا الشخص ، وكل خط عبارة عن مائة ودّعة . كما ترى ، أنا مدين لذلك الشخص بآلف ودّعة . لكنه لم يأت ليوقظني صباحاً من أجلها . سأدفع لك ، لكن ليس اليوم . فحكماً علينا يقولون إن الشمس تستطع على الواقفين قبل أن تستطع على الراكعين تحتهم . سأدفع ديوني الكبيرة أولاً» . تناول قبضة سعوط أخرى ، كما لو أنه يدفع بذلك ديونه الكبيرة أولاً . فلّف أوكونيي جلد ماعزه وغادر .

حين مات أونوكا ، لم يكن قد نال أي لقب على الإطلاق ، وكان غارقاً في الدين حتى أذنيه . فلا عجب إذن في أن يشعر ابنه أوكونوكو بالخجل منه؟ إلا أن الحكم على أي إنسان عند هؤلاء القوم كان لحسن الحظ مبنياً على قيمته الشخصية وليس على قيمة أبيه . وكان واضحاً أن أوكونوكو خلق للقيام بأعمال عظيمة . كان لا يزال شاباً ،

لكنه اكتسب صيتاً ذائعاً بصفته أعظم مصارع في القرى التسع . وكان مزارعاً غنياً ويملك مخزنين ملئين باليام ، وقد تزوج لتوه زوجته الثالثة . وتوج كل هذا بحصوله على لقبين كما أظهر شجاعة لا تصدق في حربين بين القبائل . هكذا ، وعلى الرغم من أنه كان ما يزال شاباً ، كان واحداً من أعظم رجالات عصره . كان السنّ موضع احترام وسط قومه ، لكن الإنجاز كان موضع تمجيل . وكما قال الشيوخ ، إذا غسل الطفل يديه ، فهو يستطيع الأكل مع الملوك . ومن الواضح أن أوكونكوا غسل يديه ، وبالتالي أكل مع الملوك والشيوخ . لهذا السبب ، وقع عليه الاختيار للاعتناء بالصبي المحكوم عليه بالموت والذي قدمته القبيلة المجاورة قرياناً لقرية أمووفيا تفاديًّا للحرب وسفك الدماء . وكان اسم الصبي سيريء الطالع أيكيميفونا .

٢ فصل

أطفأً أو كونكوا قنديل زيت النخيل وتمدد فوق سرير الخيزران حين سمع صوت أوجيني ، منادي القرية ، يخترق جو الليل الساكن . جوم ، جوم ، جوم ، دوى المعدن الأجوف . ثم أعلن المنادي رسالته ، وبعد انتهاءه عاد وطرق على آلة مرة أخرى . كانت هذه هي الرسالة : يُطلب من كل رجل في أوحوز في التجمع غداً صباحاً في ساحة السوق . تسأله أوكونكوا عما جرى . فقد تيقن أن خطأً كان قد وقع . إذ استشفع في صوت المنادي نبرة مأساة وأنفحة ، ظل يسمعها وهي تخفت تدريجياً مع ابعاده .

كان الليل هادئاً جداً . وهو هادئ دائمًا إلا في الليل المقامرة . العتمة تتطوى على رعب غامض لهؤلاء القوم . حتى لأشبع رجل منهم . فقد حُذر الأطفال من الصغير في الليل خوفاً من الأرواح الشريرة . كما تصبح الحيوانات الخطيرة أشد شراً ووحشية في الظلام . فالأفعى لا تدعى باسمها في الليل ، لأنها تستسمع هذا . إنها تدعى خيطاً . في هذه الليلة بالذات ، والمسافات تتبع تدريجياً صوت المنادي ، عاد الصمت يسود العالم ، صمت مرتج زاده ترديد كوني متعاقب ومتتابع لأصوات ملايين ملايين حشرات الغابة .

في ليلة مقمرة ، تختلف الحال . فأصوات الأطفال المرحة تسمع وهم يلعبون في الحقول المكشوفة . وقد يلهمو الشباب أزواجاً في أماكن مستورة أكثر ، ويذكر الرجال والنسوة العجائز شبابهم . وكما يقول الإبيو : «عندما يسطع القمر يجوع الكسيع إلى المشي» .

لكن هذه الليلة كانت مظلمة وصامتة . وطلب منادي القرية ومعه آلته الموسيقية أو جيني في جميع قرى أومووفيا التسع ، داعياً كل الرجال للحضور إلى ساحة السوق في صباح الغد . حاول أوكونكوا ، وهو مستلق على سرير الخيزران ، أن يخمن طبيعة الحدث الطارئ . حرب مع عشيرة مجاورة؟ بدا أن ذلك هو السبب الأكثر احتمالاً ، ولم يكن هو يخشى الحرب . فقد كان رجل أفعال ، رجل حرب . وخلافاً لأبيه ، كان يستطيع أن يتحمل منظر الدم . وفي آخر حرب خاضتها أومووفيا ، كان أول من أحضر إلى قريته رأساً بشرياً . وكان ذلك رأسه الخامس ، مع أنه لم يشيخ بعد . وفي المناسبات الجليلة ، كجنازة رجل مشهور من أهل قرية ، يشرب نيد النخيل من رأسه البشري الأول .

في الصباح ، امتلأت ساحة السوق . لابد أن هناك حوالي عشرة آلاف رجل ، وكلهم يتكلمون بأصوات خافتة . أخيراً ، نهض أو جيني أيزيوجو ووقف وسطهم وجأر أربع مرات : «أومووفيا كويينو» ، وتوجه كل مرة نحو جهة مختلفة وبدا أنه يدفع الهواء بقبضة مكورة . فأجاب في كل مرة عشرة آلاف رجل «يا ! ! !» ثم خيم صمت مطبق . كان أو جيني إيزيوجو خطيباً مفوهاً ويختار دائمًا للتحدث في مثل هذه المناسبات . مرر يده فوق رأسه أبيض الشعر ومسد لحيته البيضاء . ثم أصلح من وضع قطعة قماشه التي تمر تحت إبطه الأيمن وتنعدم فوق كتفه الأيسر .

جأر مرةً خامسةً: «أمووفيا كويينو»، فصالح الجمهور مجيئاً. ثم فجأةً، كرجل أصابه مس، أطلق يده اليسرى مشيراً في اتجاه مبانيه، وقال من خلال أسنان لامعة مطبقة بـإحكام: «أبناء الوحوش الكاسرة أولئك تجرؤوا على قتل بنت من أمووفيا». نكس رأسه وصرف بأسنانه، وسمح لهمهمة غضب مكبوتٍ في أن تكتسح الحشد. حينما بدأ من جديد، كان الغضب قد أمحى من وجهه وحوّمت محله ابتسامة معينة، مرعبة وشريرة أكثر من الغضب. بصوت صاف خال من الانفعال، أخبر أمووفيا كيف أن ابنته ذهبت إلى السوق في مبانيه وقتلـت. قال إيزيوجو بأن تلك المرأة هي زوجة أوجبويـفي أودو، وأشار إلى رجل يجلس إلى جانـبه منكسـ الرأس. فصالحـ الحشد بـغضـبـ وـتعـطـشـ للـدمـ.

تكلـمـ كـثـيرـونـ آخـرـونـ، وـتـقـرـرـ فـيـ النـهـاـيـةـ سـلـوكـ سـبـيلـ الـعـمـلـ المـأـلـوـفـ. أـرـسـلـ فـورـاـ إـنـذـارـاـ نـهـائـاـ إـلـىـ مـبـانـيـوـ يـطـالـبـهـاـ بـالـاـخـتـيـارـ بـيـنـ الـحـرـبـ مـنـ جـهـةـ، أوـ تـقـدـيمـ صـبـيـ وـعـذـراءـ كـتـعـوـيـضـ مـنـ جـهـةـ أـخـرـيـ.

أـمـوـوـفـيـاـ مـرـهـوـبـةـ الـجـانـبـ مـنـ جـمـيـعـ جـيـرـانـهــاـ. إـنـهـ قـوـيـةـ فـيـ الـحـرـبـ وـالـسـحـرـ، وـكـهـتـهـاـ وـرـجـالـ الـطـبـ فـيـهاـ مـرـهـوـبـوـ الـجـانـبـ فـيـ جـمـيـعـ الـبـلـادـ الـمـحـيـطـ بـهـمــ. فـأـفـتـكـ دـوـاءـ سـحـرـيـ حـرـبـيـ لـدـيـهـاـ قـدـيمـ قـدـمـ الـقـبـيـلـةـ نـفـسـهــ. وـلـمـ يـعـرـفـ أـحـدـ مـدـىـ قـدـمـهــ. لـكـنـ هـنـاكـ اـتـفـاقـاـ عـامـاـ فـيـ الرـأـيـ حـوـلـ نـقـطـةـ وـاحـدـةــ. الـعـنـصـرـ الـفـعـالــ فـيـ ذـلـكـ الدـوـاءـ السـحـرـيــ كـانـ اـمـرـأـةـ عـجـوزـاـ لـهـاـ سـاقـ وـاحـدـةــ. فـيـ الـحـقـيـقـةــ، كـانـ الدـوـاءـ السـحـرـيــ نـفـسـهـ يـدـعـيـ أـجـادـيــ نـوـايـيــ، أوـ اـمـرـأـةـ عـجـوزــ. وـلـهـ مـقـامـ فـيـ وـسـطـ أـمـوـوـفـيـاــ، فـيـ بـقـعـةـ خـالـيـةــ. وـلـوـ بـلـغـ الـغـباءـ بـشـخـصـ وـجـرـؤـ عـلـىـ الـمـرـورـ إـلـىـ جـانـبـ الـمـقـامـ بـعـدـ الـغـسـقــ، لـرـأـيـ بـالـتـأـكـيدـ اـمـرـأـةـ عـجـوزـ تـحـجـلـ حـوـلـهــ.

لذلك خافت جميع العشائر المجاورة ، التي تعرف هذه الأمور طبعاً ، أومووفيا ولم تجرؤ على شنّ الحرب ضدها قبل أن تحاول أولاً التوصل إلى تسوية سلمية معها . من الإنصاف لقرية أومووفيا أن نسجل أنها لم تخرج مطلقاً للحرب إلا إذا كانت قضيتها واضحة وعادلة واعتبرها وحيها - وهي التلال والكهوف ، كذلك . وقد ظهرت فعلاً مناسبات منع فيها الوحي أومووفيا من شن حرب . ولو خالفت العشيرة أمر الوحي لهزمت بالتأكيد ، لأن أجادي - نوابي المرهوب الجانب لا يمكن أن يخوض ما تدعوه قبيلة إيبو قتال لوم .

لكن الحرب التي هددت القبيلة بشنها الآن كانت حرباً عادلة . حتى العشيرة المعادية أدركت ذلك . هكذا ، وحينما وصل أوكونكوه المقيم في أومووفيا إلى مبابينو بصفته مبعوث الحرب المتكبر والمغطرس ، عومنل بشرف واحترام شديدين ، وعاد بعد يومين مع غلام عمره خمسة عشر عاماً وعدراء شابة . كان اسم الغلام إيكيميفونا ، الذي لاتزال قصته المحزنة تروى في أومووفيا حتى يومنا هذا .

اجتمع الشيوخ ، أو نديتشي ، ليستمعوا إلى تقرير عن مهمه أوكونكوه . في النهاية ، قرروا ، كما كان يتوقع الكل أن يحدث ، أن تذهب الفتاة إلى أوجبوفي أودو كي تحل محل زوجته القتيل . أما الغلام ، فكان من نصيب العشيرة ككل ، ولم يكن ضرورياً الاستعجال في البت بمصيره . لذا طلب من أوكونكوه الاعتناء به في غضون ذلك ، نيابة عن العشيرة . هكذا عاش إيكيميفونا في بيت أوكونكوه مدة ثلاثة سنوات .

كان أوكونكوه يدير بيته بقبضة من حديد . فعاشت زوجاته ، خصوصاً زوجته الصغرى ، في خوف دائم من مزاجه الناري ، وكذلك عاش أطفاله

الصغر . قد لا يكون أوكونكwoo في أعماق فؤاده رجلاً قاسياً . لكن الخوف كان يسيطر على حياته بأكملها ، الخوف من الفشل والضعف . وكان هذا الخوف أعمق وأكثر حميمية من خوفه من آلهة شريرة ذات نزوات ، ومن خوفه من السحر ، ومن الغابة وقوى الطبيعة الحقودة حمراء الأسنان والبرائين . كان خوف أوكونكwoo أعظم من كل هذه . لم يكن خوفاً خارجياً ، بل كان خوفاً يستقر عميقاً في نفسه . الخوف من نفسه لثلا يدو مشابهاً لأبيه . حتى حين كان فتى صغيراً ، كان مستوى من فشل أبيه وضعفه ، ولا يزال حتى الآن يذكر كم قاسى حين أخبره أحد رفاق لهوه بأن أباه أجيالاً . على ذلك النحو عرف أوكونكwoo ، لأول مرة ، أن أجيالاً لم يكن مجرد اسم آخر للمرأة ، بل يمكن أن تعني أيضاً رجلاً لم يتقلد لقباً في حياته . هكذا سيطرت على أوكونكwoo عاطفة واحدة - كراهية كل ما أحبه أبوه أونوكا . وأحد هذه الرقة ، والآخر البطالة .

أثناء موسم الزراعة ، يعمل أوكونكwoo في حقوله يومياً من صباح الديك إلى أن يبيت الدجاج في أقنانه . كان قوياً جداً ونادراً ما أحس بالتعب . لكن زوجاته والأطفال الصغار لم يكونوا أقوياء مثله ، لذلك قاسوا من ذلك . لكنهم لم يحرؤوا على الشكوى علانيةً . كان عمر ابن أوكونكwoo الأول ، نوويي ، آنذاك اثنى عشر عاماً ، لكنه كان يشير في نفس أبيه قلقاً عميقاً بسبب كسله المبكر . أو على الأقل ، هكذا بدا في نظر أبيه ، فحاول أن يصلح من شأنه بحثه وضربه على نحو متواصل . فحوال ذلك نوويي إلى شاب حزين الوجه .

تجلى ازدهار أحوال أوكونكwoo في بيته . فقد كان يملك مجموعة من الأكواخ مقامة على مساحة كبيرة مسورة بسياج سميك من الطين الأحمر .

يقع كوخه الخاص ، أوأويي ، مباشرة خلف البوابة الوحيدة في السور الأحمر . كان لكل زوجة من زوجاته الثلاث كوخها الخاص بها ، وشكلت هذه الأكواخ الثلاثة هلاًأ خلف الأوبي . كان مخزن الغلال مبنياً في الطرف الأقصى من الأسوار الحمراء ، حيث تظهر في داخله أكداس الـ يام في صفوف طويلة مبنية مدي نجاحه . في طرف المجمع المقابل ، أقيمت سقية للماشية ، كما بنت كل زوجة ملحقاً صغيراً إلى جانب كوخها التربية الدجاج . قرب مخزن الغلال ، قامت دار صغيرة ، «دار الدواء» أو المقام ، حيث يحتفظ أوكونكwoo بالرموز الخشبية لآلهته الشخصية وأرواح أجداده . كان يعبدها بتقديم أضاحي من جوز الكولا والطعام ونبذ التخيل ، ويرفع إليها صلواته نيابة عن نفسه وزوجاته وأطفاله الثمانية .

هكذا جاء إيكيميفونا إلى منزل أوكونكwoo حين قُتلت ابنة أومووفيا في مبابينو . وعندما أحضره أوكونكwoo إلى البيت في ذلك اليوم ، استدعي زوجته الكبرى وسلّمه إليها .

قال لها: «إنه مُلك العشيرة . لذلك ، اعتنى به» .

سألت: «هل سيقيم طويلاً معنا؟»

أرعد أوكونكwoo: «إفعلي ما يُقال لك يا امرأة» ، وتأنّا: «متى أصبحت واحدة من نديتشي أومووفيا؟»

هكذا قادت أم نووبي الصبي إيكيميفونا إلى كوخها دون أن تطرح أسئلة أخرى .

أما بالنسبة إلى الصبي نفسه ، فكان خائفاً جداً . لم يفهم ما حدث له أو ما فعله . فمن أين له أن يعرف أن أبياه شارك في قتل إحدى بنات أومووفيا؟

كل ما عرفه هو أن بضعة رجال وصلوا إلى دارهم ، وتحديثوا إلى أبيه بنبرات خافتة ، وفي النهاية أخرجوه من البيت وسلموه إلى رجل غريب . بكت أمه بمرارة ، لكنه كان مندهشاً جداً إلى حد أنه لم يبك . هكذا قاده الغريب ، مع فتاة ، قاطعين مسافة بعيدة جداً عن موطنهما عبر دروب الغابة الموحشة . ولم يعرف من هي الفتاة ، ولم يرها بعد ذلك أبداً .

٣ فصل

لم تكن بداية حياة أوكونكoo كبداية الحياة التي كانت عادةً لكثيرين غيره من الشباب . فهو لم يرث عن أبيه مخزناً للغلال . إذ لم يكن هناك في الحقيقة مخزن ليرثه . وقد رویت القصة في أومووفيا عن ذهاب أبيه ، أونوكا ، ذات مرة ل Yoshihiro و حي التلال والكهوف لكي يكتشف لماذا كان حصاده بائساً دائماً .

كان الوحي يدعى أجبالا ، والناس يقصدونه من أقصى البلاد وأدنىها لاستشارته . كانوا يأتون حين يلزم سوء الحظ خطواتهم بعناد أو عندما ينشب نزاع مع جيرانهم . فيأتون ليعرفوا ما يخبئه لهم المستقبل أو لاستشارة أرواح آبائهم الراحلين .

كان الطريق إلى المقام حفرة مستديرة في جانب تل ، أكبر بقليل فقط من فتحة مستديرة لمدخل قن دجاج . فيزحف المتبعدون وأولئك الذين أتوا يسعون إلى المعرفة من الإله على بطونهم من خلال الفتحة ليجدوا أنفسهم في فضاء مظلم لانهائي في حضرة أجبالا . ولم يحدث مطلقاً أن شاهد أحد أجبالا ما عدا كاهنته . لكن ، لم يخرج أحد ممن زحفوا إلى داخل مقامه المرعب دون أن يسيطر عليه الخوف من جبروته . فكاهنته

تقف إلى جانب النار المقدسة التي أشعلتها في قلب الكهف وتعلن عن إرادة الإله . لاشتعل النار ملتهبة . وقطع الجذوع المتوجه تعمل على إضاءة قوام الكاهنة المعتم إضاءة غامضة .

يأتي رجل أحياناً لاستشارة روح أبيه الميت أو أحد أقربائه الميتين . وقد قيل إن هذه الروح ، حين تظهر ، يراها على نحو غامض ، لكنه لا يسمع صوتها أبداً . وادعى بعض الأشخاص أنهم سمعوا الأرواح تطير وتحفق بأجنحتها على سقف الكهف .

قبل سنوات طويلة ، حين كان أوكونوكو لا يزال صبياً ، ذهب أبوه ، أونوكا ، لاستشارة أجبالا . كانت الكاهنة في تلك الأيام امرأة تدعى تشيكا . كانت مفعمة بقوة إلهها ، ومرهوبة الجانب جداً . فوقف أونوكا أمامها وبدأ يروي قصته .

قال بحزن : « كل سنة ، وقبل أن أزرع أي بذور في التربة ، أضحي بديك لآني ، مالك كل الأرض . هذا هو قانون آبائنا . وأذبح أيضاً ديكأ في مقام إيفيجيوكو ، إله اليمام . وأقطع الشجيرة وأشعل النار فيها عندما تجف . وأبذر اليمام عندما تسقط الأمطار الأولى ، وأسندها إلى أعواد عندما تظهر أطرافها اللولبية المعرشة الصغيرة . وأعشب » .

صاحت الكاهنة : « أهداً » ، وكان صوتها رهيباً عندما تردد صداؤه في الفراغ المظلم . « أنت لم تأت بحق الآلهة أو بحق آبائك . وحين يسود السلام بين المرء وألهته وأجداده ، يكون حصاده جيداً أو سيئاً بناءً على قوة ذراعه . أنت يا أونوكا مشهور بين كل العشيرة بضعف سيفك ومعزقتك .

فحين ينطلق جيرانك حاملين فؤوسهم لقطع أشجار الغابات العذراء ، تبذر أنت اليام في المزارع المستنفدة التي لا تطلب جهداً لإعدادها . إنهم يعبرون سبعة أنهار ليعدوا مزارعهم ، بينما تظل أنت في البيت وتقديم القرابين إلى تربة نافرة . عد إلى منزلك واشغل كرجل » .

كان أونوكا رجلاً سبيلاً الطالع . كان تشيه أو إلهه الشخصي رديشاً ، ولازمه حظه الشرير إلى القبر ، أو بالأحرى إلى موته ، إذ لم يكن له قبر . فقد مات من تورم تمقته إلهة الأرض . وعندما يصاب رجل بتورم في المعدة والأطراف ، لا يُسمح له في الموت في البيت . بل يُحمل إلى غابة الشر ويترك هناك كي يموت . وتروى قصة عن رجل عنيد جداً عاد متزحجاً إلى بيته فاضطر القوم إلى أن يحملوه مرة أخرى إلى الغابة ويربطوه إلى شجرة . فقد كان المرض بغيضاً للأرض ، لذا لم يكن بالإمكان دفن الضحية في أحشائها . فمات وتعفن فوق الأرض ، ولم يُدفن الدفن الأول أو الثاني . هكذا كان مصير أونوكا . وعندما حملوه بعيداً ، أخذ ناهي معه .

مع وجود أبٌ كأونوكا لأوكونكoo ، لم تتح له بداية حياة عملية أتيحت لكثيرين غيره من الشباب . فهو لم يرث مخزن غلال أو لقباً ، أو حتى زوجة صغيرة . لكن ، وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة ، إلا أنه بدأ يرسني ، حتى أثناء حياة أبيه ، الأسس لمستقبل مزدهر . كان هذا بطبيعة موجعاً . لكنه ألقى بنفسه فيه كالممسوس . كان بالفعل ممسوساً بالخوف من سيرة أبيه المزرية وموته المخزي .

عاش في قرية أوكونكoo رجل موسر له ثلاثة مخازن ضخمة ، وتوسّع

زوجات وثلاثون ولداً . وكان اسمه نواكبي ويقلد لقباً يأتي قبل أرفع لقب يمكن أن يحرزه أي رجل في العشيرة . وقد عمل أوكونكوا لحساب هذا الرجل كي يحصل على بذوره الأولى من الأيام .

حمل زقا مملاعاً بنبيذ النخيل وديكاً ، وذهب إلى نواكبي . فدعا هذا جارين مسنين من جيرانه ، وابنيه الكبارين اللذين كانوا موجودين في أوبيه . قدم جوزة كولا وفلفل تمساح ، وأديرا على الحاضرين كي يعاينهما الجميع ثم أرجعهما إليه . كسر أوكونكوا الجوزة قائلاً : «لتكتب لنا الحياة جميعاً . إننا نصل إلى من أجل الحياة والأطفال وحصاد جيد والسعادة . ستحصل على ما هو خير لك وسأحصل أنا على ما هو خير لي . فلتجم الحدأة وليجثم النسر أيضاً . وإذا قال أحدهما للآخر : لا ، ليكسر جناحه» .

بعد أن أكلوا جوزة الكولا جلب أوكونكوا نبيذ نخيل من زاوية الكوخ حيث وضعه ووقف في وسط الجماعة . وخاطب نواكبي ، داعياً إياه : «أبانا» .

قال : «ننا آبي . أحضرت لك هذه الكولا الصغيرة . وكما يقول قومنا ، مَنْ يوَقِّر العظيم يمهَّد السبيل نحو عظمته هو . وقد أتيت لأقدم لك احترامي واسألك معرفة أيضاً . لكن ، لشرب النبيذ أولاً» .

شكر الجميع أوكونكوا وأخرج الجاران قرنيهما من كيسه جلد الماعز اللذين يحملانهما . تناول نواكبي قرنه المعلق في عوارض السقف الخشبية . وخطا ابنه الأصغر ، الذي كان أحدث الموجودين سنًا ، إلى وسط الكوخ ، ورفع الزقّ على ركبته اليسرى وبدأ يصب الخمر . ذهبت

الكأس الأولى إلى أوكونكoo الذي يجب أن يذوق نبيذه قبل أي شخص آخر . ثم شربت الجماعة ، بدءاً بأكبرهم سناً . عندما شرب الجميع قرنين أو ثلاثة ، استدعى نواكيببي زوجاته . ولم تكن بعضهن في الدار ، فأتت أربع منهن فقط .

سألهن : «هل أناسي موجودة؟» أجبن بأنها قادمة . كانت أناسي الزوجة الأولى ولا يجوز أن تشرب الآخريات قبلها ، لذلك وقفن متظرات .

كانت أناسي امرأة متوسطة العمر ، طويلة وقوية البنية . وتلوح السلطة في مظهرها وتشي كل بوصة فيها بأنها الحاكمة بين النساء في عائلة كبيرة ومزدهرة . وقد لبست خلخال ألقاب زوجها ، الذي يحق للزوجة الأولى فقط أن تلبسه .

اتجهت نحو زوجها وتقربت القرن منه . ثم جئت على إحدى ركبتيها ، وشربت رشفة وأعادت القرن . نهضت ، ودعنته باسمه وعادت إلى كوخها . شربت الزوجات الآخريات بالطريقة نفسها ، حسب ترتيبهن الصحيح ، ثم مضين .

ثم تابع الرجال الشرب والحديث . فتحدث أوجبويyi أيديجو عن الخمار أوبياكو الذي تخلّى فجأة عن تجارتة .

قال وهو يمسح رغوة النبيذ عن شاربه بقفاليده اليسرى : «لابد أن وراء هذا أمراً . لابد أن هناك سبباً لذلك . فالضفدعه لا تقفز في وضح النهار بلا سبب» .

قال أكوكاليا : «يقول البعض إن الوحي حذر من أنه سيقع من فوق نخلة ويقتل نفسه» .

قال نواكبيبي : «كان أوبياكو دائماً غريباً للأطوار . وقد سمعت أنه ذهب لاستشارة الوحي قبل سنوات عديدة حينما لم تمض على وفاة أبيه مدة طويلة . قال الوحي له : «أبوك المتوفي يطلب منك أن تضحي بعنزة له» . هل تعلمون ماذا أجاب الوحي؟ قال : «اسألاوا أبي المتوفي إنْ كانت لديه دجاجة حينما كان على قيد الحياة» . ضحك الجميع من أعماق قلوبهم ما عدا أوكونكورو ، الذي ضحك قليلاً لأن المرأة العجوز ، كما يقول المثل ، تشعر دائماً بالقلق لدى ذكر العظام الجافة في الأمثال . فقد تذكر أوكونكورو أباه .

أخيراً ، رفع الشاب الذي كان يصبّ النبيذ في قرن امتلاً إلى نصفه من الشمالة البيضاء غليظة القوام ، وقال : «ما نأكله انتهى» . فأجاب الآخرون : «رأينا هذا» . فسأل : «منْ سيشرب الشمالة؟» قال إيديجو : «منْ لديه شاغل يشغله» ، ورمق ابن نواكبيبي الأكبر إيجوبلو وفي عينيه تألق خبيث .

اتفق الجميع على أن يشرب إيجوبلو الشمالة . فقبل القرن المملوء إلى نصفه من أخيه وشربه . فكما قال إيديجو ، كان لدى إيجوبلو ما يشغله فعلاً ، فقد تزوج زوجته الأولى قبل شهر أو شهرين . ومن المفترض أن ثمالة نبيذ النخيل غليظة القوام مفيدة للرجال الذين يدخلون على زوجاتهم .

بعد أن شرب النبيذ كله ، بسط أوكونكورو صعوباته أمام نواكبيي .

قال : «أتيت إليك طالباً العون . قد تكون خمنت ما هو . لقد نظفت مزرعة ، لكن ، ليس لدى يام لأبذرها . وأنا أعرف ماذا يعني أن يطلب رجل من آخر أن يأتمنه على يامه ، خصوصاً في هذه الأيام التي يخشى فيها الشباب العمل الشاق . أنا لا أخشى العمل . لقد قالت السحلية ، التي قفزت من شجرة الإيروكو العالية إلى الأرض ، إنها ستمدح نفسها إن لم يمدحها أحد . لقد بدأت أعتمد على نفسي في سن كان معظم أتربابي فيه ما يزالون يرضعون من أثداء أمهاتهم . وإذا منحتني بعض يذور يام فلن أخذلك » .

سلك نواكبيي حلقة . «يسريني أن أرى شاباً مثلك في هذه الأيام التي أصبح فيها شبابنا مائعين . لقد قصدني كثير من الشبان طالبين اليام لكنني رفضت لأنني عرفت بأنهم سيلقون البذور في باطن الأرض ويتركون الأعشاب تختنقها . حين أقول لهم لا ، يظنون أنني قاسي القلب . لكن الأمر ليس كذلك . فالطائرين يكفي يقول إنه منذ أن تعلم الناس الرماية دون أن يخطئوا ، تعلم هو الطيران دون أن يحط على الأرض . لقد تعلمتُ أن أبخل بيامي . لكن باستطاعتي أن أثق بك . وأعرف هذا وأنا أنظر إليك . وكما قال آباءنا ، يمكنك أن تميّز ذرة ناضجة من مظهرها . سأعطيك ضعف أربعينات بذرة يام . إذهب وهيئ مزرعتك » .

شكراً أوكونكورو مراراً وتكراراً وذهب إلى بيته وهو سعيد . لقد عرف أن نواكبيي لن يرفض طلبه ، لكنه لم يتوقع أن يكون كريماً إلى هذا الحد . إذ لم يأمل في الحصول على أكثر من أربعينات بذرة . إن عليه الآن أن يكون

مزرعة أكبر . وأمل في الحصول على أربعين مائة بذرة يام أخرى من أحد أصدقاء أبيه في إيسيلوزو .

كان العمل بالمحاصصة طريقة بطيئة جداً في بناء مخزن غلال خاص بأي إنسان . وبعد كل الكدح ، يحصل الإنسان على ثلث المحصول فقط . لكن لا توجد طريقة أخرى بالنسبة إلى شاب لا يملك أبوه ياماً . ومما زاد الطين بلة في حالة أوكونكورو أنه تعين عليه أن يعيل أمه وأختين من محصوله الضئيل . فإعالة أمه تعني أيضاً إعالة أبيه . إذ لم يكن من المعقول أن تطبخ أمه وتأكل بينما زوجها يتضور جوعاً . هكذا كان على أوكونكورو ، وهو يكافح يائساً في سن مبكرة لبناء مخزن غلال عن طريق المحاصصة ، أن يعيل أيضاً بيت أبيه . كان هذا شبيهاً بحسب حبوب في كيس مليء بالثقوب . وقد كدحت أمه وأختاه بجد كبير ، لكنهن كن يزرعن غلال نساء ، مثل الكوكو-يام والفول والقريسة . أما اليام ، ملك المحاصيل ، فكان غلة الرجال .

كانت السنة التي حصل فيها أوكونكورو على ثمانين مائة بذرة يام من نواكبيي أسوأ سنة وعتها ذاكرة الأحياء . فلم يحدث أي شيء في أوانه ، بل بكر أو تأخر أكثر من اللازم . بدا كأن العالم جنّ جنونه . فالأمطار الأولى تأخرت عن موعدها ، وحين هطلت دامت فترة قصيرة جداً فقط . وعادت الشمس اللاحبة أشدّ قسوة مما عُرف عنها في أي وقت آخر ، وأحرقت كل الخضرة التي نبتت مع الأمطار . واستعجلت الأرض كالفحم الساخن وشوت جميع اليام الذي كان قد زُرع . وككل المزارعين الجيدين ، بدأ

أوكونكwoo ينذر مع الأمطار الأولى . وكان قد بذر أربع مائة بذرة حينما جفت الأمطار وعادت الحرارة . فراح يراقب السماء طوال النهار بحثاً عن علامات سحب ماطرة ويقضى الليل ساهراً . في الصباح ، كان يعود إلى حقله ويرى المحاليل تذوي . حاول وقايتها من حرارة الأرض المحرقة بإحاطتها بحلقات من أوراق نبات السيسال السميكة . لكن حلقات السيسال جفت في نهاية النهار وأصبحت رمادية بتأثير الحرارة . فبدلها كل يوم ، وصلى كي يهطل المطر في الليل . لكن الجفاف استمر طيلة ثمانية أسابيع سوق وقتل اليام .

لم يكن بعض المزارعين قد زرعوا أيامهم بعد . وكان أولئك هم الكسالى المهملون الذين يؤجلون دائماً إعداد حقولهم قدر الامكان . فأصبحوا في هذه السنة هم الحكماء . وقد تعاطفوا مع جيرانهم بهزّ رؤوسهم كثيراً ، لكنهم كانوا في أعماقهم مسرورين لما اعتبروه بُعد نظر منهم .

زرع أوكونكwoo ما تبقى لديه من بذور اليام حين عاد المطر أخيراً . خامرته عزاء وحيد . فالبذور التي زرعها قبل الجفاف كانت بذوره الخاصة ، حصاد العام الماضي . فظلت لديه الشمامائة بذرة التي حصل عليها من نواكبيي والأربع مائة بذرة من صديق أبيه . هكذا سينبدأ بداية جديدة .

لكن السنة جنّ جنونها . فقد هطل المطر كمالاً لم يهطل من قبل أبداً . وانصبّ مدراراً من السماء لعدة أيام وليالٍ متتاليات مشكلاً سيلًا عنيفة ،

وُجِرِفت أَكْوام الْيَامِ . وَاقْتُلَعَتِ الْأَشْجَارُ مِنْ جُذُورِهَا وَظَهَرَتِ شَقَوْقَعَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ . ثُمَّ هَدَأَ عَنْفُ الْمَطَرِ . لَكِنَّهُ اسْتَمَرَ مِنْ يَوْمٍ إِلَى آخَرٍ دُونَ انْقِطَاعٍ . لَمْ تَظْهُرْ دُورَةُ الشَّمْسِ الَّتِي تَأْتِي عَادَةً فِي مِنْتَصِفِ الْمَوْسِمِ الْمَاطِرِ . وَأَبْتَتِ الْيَامُ أُورَاقًا وَارْفَةَ حَضْرَاءَ ، لَكِنَّ كُلَّ الْمَزَارِعِينَ عَرَفُوا أَنَّ الدَّرَنَاتِ لَنْ تَنْمُو دُونَ أَشْعَدِ الشَّمْسِ .

فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، كَانَ الْحَصَادُ حَزِينًا مِثْلُ جَنَازَةٍ ، وَيَكْنِي كَثِيرٌ مِنَ الْمَزَارِعِينَ وَهُمْ يَسْتَخْرِجُونَ الْيَامَ الْمُتَعَفِّنَ التَّعَسِ . وَرِيَطُ سَزَارِعْ قَمَاشَهُ حَوْلَ غَصْنِ شَجَرَةٍ وَشَنَقَ نَفْسَهُ .

ظَلَّ أُوكُونِكُو وَيَتَذَكَّرُ تِلْكَ السَّنَةِ الْمُأْسَاوِيَةِ طَيْلَةً حَيَّاتِهِ وَرِعْشَةً بَارِدَةً تَسْرِي فِي بَدْنِهِ . وَقَدْ عَرَتْهُ الدَّهْشَةُ دَائِمًا حِينَ كَانَ يَفْكُرُ كَيْفَ أَنَّهُ لَمْ يَغْرِقْ تَحْتَ ثَقْلِ الْيَأسِ . هُوَ يَعْرُفُ أَنَّهُ مُقَاتِلُ شَرِسٍ ، لَكِنَّ تِلْكَ السَّنَةِ كَانَتْ كَافِيَةً لِتَحْطِيمِ قَلْبِ أَسْدٍ .

رَدَ دَائِمًا: «لَا تَنْجُوتُ مِنْ تِلْكَ السَّنَةِ ، فَسَأَنْجُو مِنْ أَيِّ شَيْءٍ» . وَعَزَّا هَذَا إِلَى إِرَادَتِهِ الَّتِي لَا تَلِينَ .

وَقَدْ قَالَ لَهُ أَبُوهُ أُونُوكَا ، الَّذِي كَانَ مَرِيضًا أَثْنَاءَ شَهْرِ الْحَصَادِ الرَّهِيبِ ذَلِكَ: «لَا تَيَأسْ . أَنَا أَعْرُفُ أَنَّكَ لَنْ تَيَأسْ . فَلَكَ قَلْبٌ رَجُلٌ مَفْعُمٌ بِالْكَبْرِيَاءِ . وَالْقَلْبُ ذُو الْكَبْرِيَاءِ يَسْتَطِعُ أَنْ يَتَجاوزَ فَشَلًا يَكُونُ مِنْ نَصِيبِ النَّاسِ عَامَةً ، لَأَنَّ فَشَلًا كَهَذَا لَا يَحْطِمُ كَبْرِيَاءً . فَالْفَشَلُ الْأَصْعَبُ وَالْأَكْثَرُ مَرَارَةً هُوَ الْفَشَلُ الَّذِي يَصِيبُ الْإِنْسَانَ وَحْدَهُ» .

كان أونوكا دائماً على ذلك النحو في أيامه الأخيرة . فقد زاد حبه
للكلام مع تقدم السن والمرض . فأعى ذلك صبر أونوكو إلى حد
يُفوق الوصف .

فصل ٤

قال رجل عجوز : « حين ينظر المرء إلى فم ملك ، يخيل إليه أنه لم يرضع مطلقاً من ثدي أمه ». وقد تكلم ذلك العجوز عن أوكونكoo الذي ارتقى فجأة من الفقر المدقع وسوء الحظ ليصبح واحداً من سادة العشيرة . لم يحمل الشيخ ضعينة لأوكونكoo ، بل احترمه في الحقيقة لجده ونجاحه . لكنه صدم ، مثله في ذلك مثل معظم القوم ، لفظاظته في التعامل مع الناس الأقل نجاحاً . فقبل أسبوع فقط خالفة شخص في الرأي أثناء اجتماع للأقارب عقدوه لمناقشة الاحتفال بعيد الأجداد القادم . فقال أوكونكoo دون أن ينظر إلى الرجل : « إن هذا الاجتماع للرجال ». فالرجل الذي خالفه في الرأي لا يحمل أية ألقاب . لذلك السبب دعاه امرأة . إن أوكونكoo يعرف كيف يقتل روح رجل .

انحاز الجميع في اجتماع الأقارب إلى جانب أوسوجو حين دعاه أوكونكoo امرأة . وقال أكبر الرجال الحاضرين سناً بصرامة بأن أولئك الذين كسرت روح خيرة نوى نخيلهم يجب ألا ينسوا أن يتواضعوا . اعتذر أوكونكoo على ما بدر منه ، واستئنف الاجتماع .

لكن لم يكن صحيحاً أن روحًا خيرة هي التي كسرت نوى تخيل أكونكرو . فقد كسرها هو نفسه . فأي إنسان يعرف صراعه المرير ضد الفقر والشقاء لم يكن يستطيع القول إنه كان محظوظاً . وإن وجد رجل يستحق نجاحه ، فإن ذلك الرجل هو أوكونكرو . ففي سن مبكرة ، اكتسب شهرته كأعظم مصارع في كل البلاد . ولم يكن هذا حظاً . وأقصى ما يمكن للإنسان قوله هو أن تشيء أو إلهه الشخصي كان طيباً . لكن لدى شعب الإيو مثلك مفاده أن الرجل حين يقول نعم يقول تشيء نعم أيضاً . وقد قال أوكونكرو نعم بقوة شديدة ، فوافقه تشيء . وليس تشيء فحسب ، بل عشيرته أيضاً ، لأنها تحكم على الرجل بناء على ما فعلته يداه . لذلك السبب اختارت القرى التسع كي ينتقل إلى أعدائها رسالة حرب إلا إذا وافقوا على تقديم صبيّ وعذراء تكفيراً عن قتل زوجة أودو . كان خوف أعداء أومووفيا منها عميقاً إلى حد أنهم عاملوا أوكونكرو معاملة ملك وأحضروا له عذراء منحت إلى أودو كزوجة ، والصبي إيكيميفونا .

قرر الشيوخ أن يوضع إيكيميفونا تحت رعاية أوكونكرو لفترة من الزمن . لكن أحداً لم يفكّر أن الفترة ستطول إلى ثلاثة سنوات . فقد بدأوا أنهم نسوا كل شيء عنه فور اتخاذ القرار .

كان إيكيميفونا في البداية خائفاً جداً . حاول مرة أو مرتين الفرار ، لكنه لم يكن يعرف من أين يبدأ . فكر بأمه وأخته البالغة من العمر ثلاثة سينين وبكى بحرقة . عطفت عليه أم نووبي كثيراً وعاملته كواحد من أطفالها . لكن كل ما كان يقوله : «متى سأعود إلى البيت؟» وحين سمع أوكونكرو

أنه رفض أن يأكل أي طعام ، دخل الكوخ وفي يده عصا كبيرة ووقف فوقه بينما راح الغلام يتطلع الأيام وهو يرتعد . بعد لحظات ، ذهب إلى خلف الكوخ وبدأ يتقىً متألماً . فمضت أم نووبي إليه ووضعت كفيها على صدره وظهره . مرض مدة ثلاثة أسابيع سوق ، وعندما استرد عافيته ، بدا كأنه تغلب على خوفه الشديد وحزنه .

كان الغلام بحكم طبيعته مفعماً بالحياة ، وقد اكتسب تدريجياً شعية في منزل أوكونكoo ، خصوصاً لدى الأطفال . ولم يعد ابن أوكونكoo ، نووبي ، الذي كان يصغره بعامين ، يفارقه تماماً ، فقد بدا له أنه عارف بكل شيء . كان باستطاعته أن يصنع ناياً من ساق خيزران وحتى من عشب الفيل . وكان يعرف أسماء جميع الطيور وينصب فخاخاً لقوارض الآجام الصغيرة . كما كان يعرف من أي أشجار تصنع أقوى الأقواس .

حتى أوكونكoo نفسه أصبح مولعاً جداً بالغلام - في سريرته طبعاً . فأوكونكoo لا يبدي أبداً أي عاطفة علنية ، إلا إذا كانت عاطفة الغضب . فإبداء الحنان علامة على الضعف ، والشيء الوحيد الذي يستحق الإظهار هو القوة . لذلك عامل إيكيميفونا كما عامل كل شخص آخر - بيد ثقيلة . لكن لم يكن هناك أدنى شك في أنه أحب الغلام . فاحياناً ، حين يذهب إلى المجتمعات القرية الكبيرة أو احتفالات الأجداد الجماعية ، كان يسمح لإيكيميفونا بمرافقته ، كابن له ، حاملاً مقعده وكيسه المصنوع من جلد الماعز . وبالفعل ، دعاه إيكيميفونا أبي .

أتى إيكيميفونا إلى أومووفيا في نهاية الموسم الرغد الواقع بين الحصاد

والزرع . وقد شفي في الواقع من مرضه قبل أيام فقط من بداية أسبوع السلام . وكانت تلك أيضاً هي السنة التي انتهك فيها أوكونكوا السلام ، وعاقبه على ذلك ، كما جرت العادة ، إيزيانى ، كاهن ربة الأرض .

أثارت زوجة أوكونكوا الصغرى غضب المبرر ، عندما ذهبت إلى بيت صديقتها كي تضفر شعرها ، ولم تعد في وقت مبكر لتطبخ وجة العصر . لم يعرف أوكونكوا في البداية أنها غير موجودة في البيت . وبعد أن انتظر الطبق عشاً ، ذهب إلى كوخها ليرى ما كانت تفعله . لم يكن هناك أحد في الكوخ وكان الموقد بارداً .

سأل زوجته الثانية ، التي خرجت من كوخها للتجلب ماء من الوعاء العملاق الموضوع في ظل شجرة صغيرة في وسط مجمع الأكواخ : «أين أوجيوجو؟»

– «ذهبت لتضفر شعرها» .

غضّ أوكونكوا شفتيه والغضب يجيش في صدره .

سأل بهدوء وضبط نفس غير عاديين : «أين أطفالها؟ هل أخذتهم معها؟»

أجبت زوجته الأولى ، أم نووبي : «إنهم هنا» . فانحنى أوكونكوا ونظر في داخل كوخها . كان أطفال أوجيوجو يأكلون مع أطفال زوجته الأولى .

– «هل طلبت منك إطعامهم قبل أن تذهب؟»

كذبت أم نووبي : «نعم» ، محاولةً أن تخفف من طيش أوجيوجو .

عرف أوكونكwoo أنها لا تقول الحقيقة . خطا عائداً إلى أوبيه في انتظار عودة أوجيوجو . حين عادت ، انهال عليها ضرباً بقسوة شديدة . فقد نسي في غمرة غضبه أن الأسبوع كان أسبوع السلام . ركضت زوجتاه الأوليان خارجتين من كوخيهما فزعتين وتوسلتا إليه بحرمة الأسبوع المقدس . لكن أوكونكwoo لم يكن الرجل الذي يكفّ عن ضرب شخص قبل أن ينهيه ، حتى لا خوفاً من إلهة .

سمع جيران أوكونكwoo صرخ زوجته ، فأوصلوا أصواتهم من فوق جدران المجمع متسائلين عن الأمر . أتى بعضهم ليجلوا الأمر بنفسهم . فلم يحدث أن سمع أحد بشخص أقدم على ضرب أي شخص في الأسبوع المقدس .

قبل حلول المغيب ، زار إيزيانى ، كاهن ربه الأرض ، آنـي ، أوكونكwoo في أوبيه . فأحضر أوكونكwoo جوزة الكولا ووضعها أمام الكاهن .

ـ «أبعد عني جوزة الكولا . لن آكل في بيت رجل لا يكـن احتراماً لآلهتنا وأجدادنا» .

حاول أوكونكwoo أن يشرح له ما فعلته زوجته ، لكن إيزيانى لم يبد اهتماماً بذلك . كان يحمل في يده عصا قصيرة دق بها على الأرض ليؤكـد نقاطه .

قال حينما تكلـم أوكونكwoo : «اسمع ، أنت لست غريباً في أمووفيا . وأنت تعلم جيداً ، كما أعلم أنا ، أن أجدادنا قضوا بـأـنـا ، قبل أن نزرع أية غلال في الأرض ، يجب أن نراعي حرمة أسبوع لا يوجه أي رجل فيه إلى

جاره كلمة سوء . إننا نحيا بسلام مع زملائنا تكريماً لرب الأرض العظيمة التي بلا بركتها لن تنمو غلالنا . لقد ارتكبت شرًّا عظيماً . وأنزل عصاه على الأرض بشدة . «أخطأت زوجتك ، لكن ، حتى لو دخلت إلى أوبيك ووجدت عشيقها فوقها ، فإنك ترتكب شرًّا عظيماً إن أنتَ ضربتها» . هبطت عصاه على الأرض مرة أخرى . «إن الشر الذي ارتكبته يمكن أن يدمر العشيرة بأكملها . فربة الأرض التي أهتها قد ترفض أن تمنحنا بركتها ، فنهلك كلنا» . تغيرت لهجته من الغضب إلى إصدار أمر . «ستحضر غداً إلى مقام آني عنزةً واحدة ودجاجة واحدة وقطعة قماش ومائة ودَعَةً» . ثم نهض وغادر الكوخ .

فعل أوكونكoo ما قاله الكاهن . حمل إليه أيضاً زقاً مليئاً بنبيذ التخيل . في أعماقه كان نادماً . لكنه لم يكن الرجل الذي يتجلو مخبراً جيرانه بأنه كان مخطئاً . هكذا قال الناس عنه إنه لا يكنَ احتراماً لآلهة العشيرة . وقال أعداؤه إن حظه الحسن أدار رأسه . ودعوه بالطائر الصغير نزا الذي نسي نفسه بعد وجبة دسمة إلى حد أنه تحدّى تشيه ، إلهه الشخصي .

لا يجري أي عمل خلال أسبوع السلام . ويزور الناس جيرانهم ويشربون نبيذ التخيل . ولم يتحدثوا في هذه السنة إلا عن النسو- آني الذي اقترفه أوكونكoo . إذ كانت هذه أول مرة منذ سنوات طويلة ينتهك فيها رجلُ السلام المقدس . حتى الشيوخ لا يتذكرون سوى مناسبة أو مناسبتين مشابهتين حدثتا ذات مرة في الماضي المعتم .

راح أوجبويوفي أيزيودو ، الذي كان أكبر الرجال سنًا في القرية ، يخبر ضيَّقَيْن قدمًا لزيارته أن عقوبة انتهاءك سلام آني أصبحت لينة جداً في عشيرتهم .

قال : «لم يكن الأمر دائمًا هكذا . حدثني أبي بأنه رُوي له أن أي رجل ينتهك السلام في الماضي كان يُجر على الأرض في القرية إلى أن يموت . لكن هذه العادة ألغيت بعد فترة ، لأنها أفسدت السلام التي قصدت أن تحافظ عليه» .

قال أحد الشايقين : «أخبرني شخص أمس أنه إثم كبير في بعض العشائر أن يموت رجل خلال أسبوع السلام» .

قال أجيويفي إيزبيودو : «هذا صحيح حقاً . فلدى أوبيودواني تلك العادة . إذا مات رجل خلال أسبوع السلام فإنه لا يدفن بل يطرح في غابة الشر . إنها عادة سيئة يتبعها أولئك الناس لأنهم يفتقرن إلى الفهم . إنهم يطربون أعداداً كبيرة من الرجال والنساء دون دفن . وما هي النتيجة ؟ تمتليء عشيرتهم بالأرواح الشريرة لهؤلاء الموتى غير المدفونين ، والجائعة إلى إيداء الأحياء» .

بعد أسبوع السلام ، يبدأ كل رجل وعائلته بتنظيف الغابة من الأشجار لإعداد مزارع جديدة . فتترك الشجيرات المقطوعة كيما تجف ثم تضرم فيها النار . حين يرتفع الدخان إلى عنان السماء ، تظهر الحدائق مقبلة من جهات مختلفة وتحلق فوق الحقول المحترقة في وداع صامت . فالفضل الماطر يقترب وسترحل بعيداً إلى حين عودة الفصل الجاف .

أمضى أوكونكوا الأيام القليلة التالية في تهيئة بذور الأيام . ففحص كل حبة يام بعناية ليقرر إنْ كانت صالحة للبذار . فيقرر أحياناً أن حبة يام معينة أكبر من أن تشكل بذرة واحدة فيشقّها بالطول بمهارة بسكته الحادة . وقد

ساعده ابنه البكر ، نووبي ، وإيكيميفونا بجلب اليام في سلال طويلة من المخزن وعدّ البذور المهميّة في مجموعات مكوّنة من أربع مائة بذرة . في بعض الأحيان ، أعطى أوكونكovo كلّاً منها بضع حبات من اليام لإعدادها للبذار . لكنه وجد دائمًا أخطاء في عملهما ، وأشار إلى هذه الأخطاء بلهجة مفعمة بالتهديد .

سأل نووبي : «هل تعتقد أنك تقطع اليام للطبخ؟ إذا قطعت حبة أخرى بهذا الحجم ، فسأكسر فكك . أنت تظن أنك ما زلت طفلاً . لقد بدأت أملك مزرعة حين كنت في سنك» . وقال لإيكيميفونا : «وأنت ، ألا تزرعون اليام في المكان الذي أتيت منه؟» وأوكونكovo يعرف في أعماقه أن الأولاد ما زالوا أصغر من أن يفهموا تماماً في إعداد بذور اليام الصعب . لكنه فكر أن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ في وقت مبكر جداً . فاليام رمز الرجلة ، وكل منْ يستطيع أن يطعم عائلته اليام ، من حصاد إلى آخر ، فهو رجل عظيم حقاً . وقد أراد أوكونكovo لابنه أن يكون مزارعاً عظيماً ورجالاً عظيماً . وسيتأصل علامات الكسل المقلقة التي اعتقاد أنه رآها فيه .

لن أقبل أن يكون لي ابن لا يستطيع أن يرفع رأسه عالياً في اجتماع العشيرة . وأفضل أن أختقه بيديّ هاتين . وإذا وقفت تحدّق في على هذا النحو فسيحطم أماديورا رأسك» .

بعد بضعة أيام ، وحينما أصبحت الأرض رطبة بعد هطول المطر مرتين أو ثلاث مرات بغزاره ، ذهب أوكونكovo وعائلته إلى المزرعة ومعهم سلال بذور اليام ومجارفهم وسيوفهم ، وبدأ الزرع . أقاموا أكوااماً مفرودة من الطين في خطوط مستقيمة في جميع أنحاء المزرعة ويدرّوا اليام فيها .

كان اليام ، ملك الغلال ، ملكاً مرهقاً جداً . فهو يتطلب عملاً شاقاً وعنيبة متواصلة يومياً لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر قمرية من صياغ الديك إلى حين عودة الدجاج إلى أفنانه . وتحتاج الأطراف الخضراء الوليدة إلى الحماية من حرارة الأرض بحلقات من أوراق السيسال السميكة . وحين ترداد غزارة الأمطار ، تزرع النسوة الذرة والبطيخ والفول بين أكواام اليام . ثم تسندن نباتات اليام في البداية بعصي صغيرة ، وفيما بعد ، بأغصان شجر طويلة وكبيرة . ويعشبن المزرعة ثلاثة مرات من حياة اليام ، لا قبلها ولا بعدها .

ثم أتت الأمطار حقاً ، غزيرة ومتواصلة إلى حد أنه حتى صانع المطر في القرية لم يعد يدعى بأنه قادر على التدخل . فليس بوسعي الآن إيقاف المطر ، تماماً كما لم يكن سيحاول جلبه في ذروة الموسم الجاف ، دون التعرض لخطر شديد يداهم صحته . فالحركية الشخصية المطلوبة لمواجهة قوى تطرفات الطقس هذه أقوى بكثير من أن يتحملها الكيان البشري .

لذا لا يتدخل أحد في مجري الطبيعة في وسط الموسم الماطر . وينصب المطر في بعض الأحيان على شكل صفائح سميكة من المياه بحيث تبدو الأرض والسماء مندمجتين في بلل كليّ واحد . عندئذ ، لا يمكن التأكد مما إذا كان هدير رعد أمادبورا الخافت يأتي من الأعلى أو من الأسفل . وفي أوقات مثل هذه ، يتحلق الأطفال في كل كوخٍ من الأكواخ ذات سقوف القش التي لا يحصيها العدد في أومووفيا ، حول نار طبخ

أمهاتهم ويرون الحكايات ، أو يجلسون مع آبائهم في أكواخهم يستمدون الدفء من نيران الحطب ، ويشعون ويأكلون الذرة . وتلك فترة راحة قصيرة بين فصل الزرع المرهق الشاق وشهر الحصاد الذي لا يقل عنه إرهاقاً ، لكنه شهر غالٍ عامٍ بالمسّرة .

بدأ إيكيميفونا يحسّ كأنه واحد من أفراد أسرة أوكونكوا . وقد ظل يفكّر بأمه واخته البالغة من العمر ثلاث سنوات ، فتتباhe لحظات من الحزن والانقباض . لكنه أصبح نووبي متعلّقين أحدهما بالأخر بعمق شديد إلى حد أن أصبحت مثل تلك اللحظات أقل تكرراً وأخف إيلاماً . كان لدى إيكيميفونا معين لا ينضب من الحكايات الشعبية . حتى تلك التي كان نووبي يعرفها من قبل كانت تروى بنضارة جديدة ونكهة محلية لعشيرة مختلفة . وقد ظل نووبي يذكّر هذه الفترة بحبيبة شديدة حتى نهاية حياته . ويذكّر حتى كيف ضحك عندما أخبره إيكيميفونا أن الإسم الصحيح لجوز الذرة المستعمل على حبات قليلة متفرقة هو ايزي - أجادي - نوايي ، أو أسنان امرأة عجوز . واتجه ذهن نووبي فوراً إلى نواييكي ، التي كانت تعيش إلى جوار شجرة يودالا . فقد كانت لها ثلاثة أسنان فقط وتدخن غليونها دائماً .

تدرّيجياً ، خف المطر وتبعاً لتغيرات هطوله ، وعادت السماء والأرض إلى الانفصال مرة أخرى . وسقط المطر رذاذاً رقيقاً ومائلأً بين أشعة الشمس والنسيم الهادئ . لم يعد الأطفال يمكثون في داخل بيوتهم بل راحوا يتراكمون في الجوار منشدين :

«المطر يهطل ، الشمس تشرق ،

وننادي Nnadi يطبخ ويأكل وحده» .

وقد تساءل نوويي دائمًا من يكون ننادي هذا ولماذا يعيش وحيداً ،
يطبخ ويأكل . في النهاية ، قرر أن لا بد أن ننادي يعيش في أرض قصة
إيكيميفونا المفضلة تلك ، حيث النمل يقيم مملكة رائعة والرمال ترقص
دائمًا وأبدًا .

فصل ٥

كان عيد اليمام الجديد يقترب وأمووفيا في مزاج احتفالي . كان هذا العيد مناسبة لتقديم الشكر إلى آني ، ربة الأرض ومصدر كل الخصب . فآنى تلعب في حياة القوم دوراً أكبر من دور أيّ من الآلهة الأخرى . فقد كانت الحكم النهائي في قضايا الأخلاق والسلوك . والأهم من ذلك أنها كانت على اتصال وثيق بآباء العشيرة الراحلين الذي أودعت أجسامهم الأرض .

كان عيد اليمام الجديد يجري كل سنة قبل بدء الحصاد لتكريم ربة الأرض وأرواح أجداد العشيرة . ولا يمكن أكل اليمام الجديد قبل تقديم نصيب منه إلى تلك القوى . وكان الرجال والنساء ، صغاراً وكباراً ، يتطلعون بشوق إلى مهرجان اليمام الجديد لأنّه يمثل بداية موسم الوفرة - السنة الجديدة . في الليلة الأخيرة السابقة للمهرجان ، يتخلص الجميع من يام العام الماضي المتبقى في حوزتهم . فالعام الجديد يجب أن يبدأ بيات طازج حلو المذاق ، وليس بمحصول السنة الماضية المنكمش المتلّف . فتغسل جيداً جميع قدور الطبخ ، وأوعية القرع والطاسات الخشبية ، وخاصة الهاونات الخشبية التي يسحق فيها اليمام . ويكون فو - فو اليمام مع

حساء الخضار الطبق الرئيسي في الاحتفال . فتطهى كميات كبيرة من ذلك إلى حد أنه مهما أكلت العائلة ومهما أكل الأصدقاء الكثيرون والأقارب المدعون من القرى المجاورة ، فإن كميات كبيرة منه تبقى في نهاية النهار . وتتروى دائمًا قصة رجل غني وضع أمام ضيوفه كومة من الفوف ، مرتفعة إلى حد أن الجالسين في جانب منها لم يتمكنوا من رؤية ما كان يحدث في الجانب الآخر ، وأن أحدهم رأى أول مرة صهره الذي حضر أثناء الوليمة وجلس في الجانب الآخر في ساعة متأخرة من المساء فقط . عندئذ فقط ، تبادلا التحية وتصافحا فوق ما تبقى من الطعام .

لذا كان مهرجان الأيام الجديد مناسبة بهيجة في جميع أنحاء أموروفيا . وكان يتوقع من كل رجل قوي النذارع ، كما يقول شعب الإيبو ، أن يدعو أعداداً كبيرة من الضيوف من النواحي البعيدة والواسعة . وكان أوكونكورو دائمًا يدعو أقارب زوجاته ، ولأن لديه الآن ثلات زوجات ، يشكل ضيوفه مجموعة كبيرة إلى حد ما .

لكن أوكونكورو ، على نحو ما ، لا يتحمس أبداً كثيراً للأعياد كغالبية الناس . كان أكولاً جيداً وفي وسعه شرب قرعة أو قرعتين كبيرتين مليئتين بنبيذ النخيل . لكنه كان دائمًا يحسن بعدم الارتياح لتبطله عدة أيام في انتظار وليمة والانتهاء منها . فهو سيكون أسعد كثيراً جداً وهو يعمل في مزرعته .

بقي على حلول المهرجان ثلاثة أيام فقط . ففركت زوجات أوكونكورو الجدارن والأكواخ بالتراب الأحمر إلى أن عكست النور . ثم رسمن عليها أشكالاً بالأبيض والأصفر والأخضر الداكن . ثم بدان بصبح أنفسهن بخشب الكام ورسمن أشكالاً سوداء جميلة على بطونهن وظهورهن .

وزين الأطفال أيضاً ، خصوصاً شعورهم التي قصت بأشكال بد菊花ة . وتحدث النسوة بانفعال عن أقاربهن الذين دُعوا ، وتقافز الأطفال فرحاً وهم يفكرون بتدليل زوارهم القادمين من وطن أمهاتهم لهم . انفعل إيكيميفونا أيضاً بنفس المقدار . ويداً مهرجان اليام الجديد في نظره حدثاً أكبر بكثير هنا مما هو عليه في قريته ، التي أصبحت مكاناً نائياً وغامضاً في مخيلته .

ثم انفجرت العاصفة . فجأة ، وجد أكونكواو ، الذي كان يتسلّك على غير هدى في مجمع أكواخه ، كاظماً غيظه ، متৎساً لغضبه .

سأل : «منْ قتل شجرة الموز هذه؟» .

خيم صمت على مجمع الأكواخ فوراً .

ـ «منْ قتل هذه الشجرة؟ أم أنكم كلّكم صمّ بكم؟»

كانت الشجرة في الحقيقة مفعمة بالحياة . لكن زوجة أوكونكواو الثانية قطفت أوراقاً قليلة منها فقط لتلفّ بها بعض الطعام ، ذكرت ذلك . وبلا أية مناقشة ، أوسعها أوكونكواو ضرباً وانصرف عنها هي وابنتها الوحيدة وهما تبكيان . لم تجرأ أي من الزوجتين الآخريين على التدخل بأكثر من تردّيد عرضي ومتّرد متسلتين إليه من مسافة معقولة : «يكفي هذا يا أوكونكواو» .

بعد أن شفى أوكونكواو غليله على هذا النحو ، قرر الخروج إلى الصيد . كانت لديه بندقية عتيقة صدّئة صنعها حداد ماهر عاش في أومورو فيا قبل أمد بعيد . لكن أوكونكواو ، رغم أنه كان رجلاً عظيماً يعترف الجميع بجسارتة ، لم يكن صياداً . فهو في الحقيقة لم يقتل ببندقية فأراً .

لذا ، عندما نادى على إيكيميفونا ليحضر له بندقيته ، تمنت زوجته ، التي انتهى لتوه من ضربها ، بشيء عن بنادق لم تصب هدفها أبداً . ولسوء حظها سمعها أوكونكwoo ، فركض بجحون داخلأ غرفته بحثاً عن البنديقة المعبأة ، ثم خرج راكضاً وصوبها نحوها وهي تسليق بارتباك سور المخزن الواطيء . ضغط على الزناد فانطلق صوت انفجار عال اقتربن بعوبل زوجاته وأطفاله . ثم رمى البنديقة من يده وقفز إلى داخل المخزن ، وهناك كانت المرأة تستلقي مرتعدة الفرائص ومرتعبة لكن دون أن تصاب بأذى . فأطلق تنهيدة عميقه ومضى مع بندقيته .

على الرغم من هذه الحادثة ، جرى مهرجان اليم الجديد في دار أوكونكwoo بفرح كبير . في صباح ذلك اليوم الباكر ، حين قدم قربانه من اليم الجديد وزيت النخيل لأجداده ، طلب منهم أن يحموه ويحموا أطفاله وأمهاتهم في السنة الجديدة .

في أثناء النهار ، وصل أصحابه من القرى الثلاث المجاورة ، وجلب كل فريق معه زقاً ضخماً من نبيذ النخيل . دار الطعام والشراب حتى حلول الليل ، حينما بدأ أصحابه أوكونكwoo يرحلون قاصدين بيوتهم .

كان اليوم الثاني من السنة الجديدة يوم مباراة المصارعة الكبرى بين قرية أوكونكwoo والقرى المجاورة . من الصعب القول أي المناسبتين يتمتع بها القوم أكثر - الولائم والزماله في اليوم الأول أم مباريات المصارعة في اليوم الثاني . لكن امرأة واحدة لم يخامرها شك أبداً في ذلك . كانت هذه المرأة زوجة أوكونكwoo الثانية ، إيكوييفي ، التي كاد أن يقتلها بطلقة البنديقة . فلم يكن ثمة مهرجان في جميع مواسم السنة يبعث في قلبهما

السرور مثل مباراة المصارعة . فقبل سنوات طويلة ، عندما كانت غادة القرية ، أسر أوكونكيو قلبه بتعلبه على الهرّ في أعظم مباراة تعيها الذاكرة الحية . ولم تتزوجه آنذاك لأنه كان أفقر من أن يدفع مهر زواجه . لكنها هربت بعد بضع سنوات من بيت زوجها ، وأتت لكي تعيش مع أوكونكwoo . حدث كل هذا منذ سنوات عديدة جداً . وإيكويفي الآن امرأة في الخامسة والأربعين من العمر قاست كثيراً في حياتها . لكن حبها لمباريات المصارعة ظل قوياً مثلماً كان قبل ثلاثين عاماً .

لم يكن ظهر اليوم الثاني من مهرجان اليوم الجديد قد حلّ بعد . فجلست إيكويفي وابتها الوحيدة ، إيزينما ، قرب النار في انتظار غليان الماء في القدر . كانت الدجاجة التي ذبحتها إيكويفي لتوها موضوعة في الهاون الخشبيّ . بدأ الماء يغلي ، وبحركة سريعة واحدة رفعت إيكويفي القدر عن النار وصبت الماء الغالي فوق الدجاجة . ثم أعادت القدر الفارغ إلى الحشية المستديرة في الركن ، ونظرت إلى راحتّي يديها اللتين أسود لونهما من السخام . كانت إيزينما تدهش دائمًا لقدرة أمها على رفع القدر عن النار بيديها العاريتين .

قالت : «إيكويفي ، هل صحيح أن الناس عندما يكبرون لا تحرقهم النار؟» كانت إيزينما ، خلافاً لمعظم الأطفال ، تنادي أمها باسمها .

أجبت إيكويفي ، وهي مشغولة جداً إلى حد لا يسمح لها في المجادلة : «نعم». كانت ابتها في العاشرة من العمر ، لكنها كانت أضخم من عمرها .

- «لكن أم نووبي أوقعت قدر حسأء ساخن في ذلك اليوم وانكسر على الأرض» .

قلبت إيكويفي الدجاجة في الهاون وبدأت تنتف الريش .

قالت إيزينما التي انضمت إليها في نتف الريش : «إيكويفي ، جفوني ترّف» .

قالت أمها : «هذا يعني أنك ستبكين» .

قالت إيزينما : «كلا ، إنه هذا الجفن ، الأعلى» .

- «هذا يعني أنك سترین شيئاً» .

سألت : «ماذا سأری؟»

أرادت إيكويفي منها أن تستخرج بنفسها : «كيف أعرف؟» .

قالت إيزينما أخيراً : «أوهو . أعرف ما هو - مباراة المصارعة» .

أخيراً ، نظفت الدجاجة . حاولت إيكويفي أن تقلع منقارها ، لكنه كان قاسياً جداً . استدرات ، وهي على مقعدها الواطيء ، ووضعت المنقار في النار لبعض لحظات . ثم شدته ثانية فخرج بيدها .

نادى صوت من أحد الأكواخ الأخرى : «إيكويفي» . كان صوت أم نووبي ، زوجة أوكونكوا الأولى .

صاحت إيكويفي مجيبة : «هل تلك أنا؟» . فتلك هي الطريقة التي يجib فيها الناس على النداءات الصادرة من الخارج . إنهم لا يجibون أبداً بنعم خوفاً من أن يكون المنادي روحًا شريرة .

ـ «هل تعطي إيزينما قليلاً من النار لتحضرها إلى؟؟»

كان أطفالها وإيكيميفونا قد ذهبوا إلى الجدول .

وضعت إيكويي بضع فحمات مشتعلة في قطعة قدر مكسور فحملتها إيزينما عبر المجمع النظيف المكتنوس إلى أم نووبي .

قالت : «شكراً يا ناما». كانت تقشر حبات يام جديد ، وبجوارها سلة فيها خضار طازجة وفول .

عرضت إيزينما : «دعيني أشعّل لك النار» .

قالت : «شكراً يا إيزيجبو». كانت غالباً ما تناديها إيزيجبو ، وتعني «الفتاة الطيبة» .

مضت إيزينما إلى الخارج وجلبت بضعة أعواد من كومة حطب ضخمة . كسرتها إلى قطع صغيرة بباطن قدمها وبدأت تشعل ناراً ، نافخة فيها من أنفاسها .

قالت أم نووبي ، وهي ترفع بصرها عن اليام الذي كانت تقشره : «ستنفحين عينيك وتطفيهما . استعملني المروحة». ثم نهضت واقفة وسحبت المروحة المعلقة في إحدى دعائم السقف . حالما نهضت ، غرّزت العنزة المشاغبة ، التي كانت تأكل بإذعان قشر اليام ، أسنانها في اليام نفسه ، وانتزعت لقمنتين وفرّت من الكوخ لتمضي ما انتزعته في سقيفة الماعز . شتمتها أم نووبي وعادت ل تستقر جالسة وتقشر اليام . أرسلت النار التي أشعلتها إيزينما سحب دخان كثيفة . استمرت في تهويتها بالمروحة إلى أن اندلع اللهب . شكرتها أم نووبي وعادت إيزينما إلى كوخ أمها .

في تلك اللحظة تماماً ، بدأ قرع الطبول بعيد يصل إلى سمعهم آتياً من ناحية الإيلو ، ملعب القرية . كان لكل قرية إيلو ، قديم قدم القرية نفسها ، تجري على أرضه جميع الاحتفالات والرقصات الكبيرة . قرعت الطبول إيقاع رقصة المصارعة الذي لاتخطئه الأذن - سريعاً وخفيفاً ومرحاً ، فأتى طافياً على الريح .

سلك أوكونكرو حلقة وحرّك قدميه على إيقاع قرع الطبول . فهو يشعل فيه النار كما ظلّ يشعلها منذ شبابه . ارتعش بشهوة الانتصار والإخضاع . كان كالرغبة في امرأة .

قالت إيزينما لأمها : «ستتأخر عن المصارعة» .

- «لن يبدأوا قبل أن تغيب الشمس» .

- «لكنهم يقرعون الطبول» .

- «نعم . الطبول تبدأ ظهراً ، لكن المصارعة تنتظر حتى تبدأ الشمس بالغروب . إذهبني وانظري إذا كان أبوك قد أخرج اليام لوجبة بعد الظهر» .

- «أخرجها . وأم نووبي بدأت الطبخ» .

- «إذهبني وأحضرني حستنا إذن . يجب أن نطبخ بسرعة وإلا تأخرنا عن المصارعة» .

ركضت إيزينما في اتجاه المخزن وأحضرت حبتين من اليام من فوق الجدار الواطئ .

قشرت إيكوييفي اليام بسرعة . تشممت العنزة المشاكسة حواليها ، وراحت تأكل القشور . ثم قطعت إيكوييفي اليام إلى قطع صغيرة وبدأت

تعدّ حساء ، مستخدمة جزءاً من الدجاجة .

في تلك اللحظة ، سمعتا شخصاً يبكي خارج مجمعهما تماماً . كان الصوت شبيهاً جداً بصوت أوبياجيلي ، أخت نووبي .

صاحت إيكوفي عبر الفناء موجهة حديثها إلى أم نووبي :

ـ «أليست هذه أوبياجيلي تبكي؟»

أجابت : «نعم . لا بد أنها كسرت جرتها» .

اقترب البكاء الآن كثيراً ، وسرعان ما دخل صفّ الأطفال ، وهم يحملون على رؤوسهم جراراً مختلفاً الأحجام ومناسبة لأعمارهم . دخل إيكيميفونا أولاً ومعه الجرة الكبيرة ، وتبعه مباشرة نووبي ثمّ أخواه الأصغران . أتت أوبياجيلي في المؤخرة ، وعلى وجهها تسيل دموع . وفي يدها حشية القماش التي من المفترض أن توضع عليها الجرة وهي على رأسها .

سألت أمها : «ماذا حدث؟» ، روت لها أوبياجيلي قصتها المحزنة . فواستها أمها ووعدتها بشراء جرة أخرى .

همّ أخوان نووبي الصغاران بإخبار أمّهما بالقصة الحقيقية ، لكن إيكيميفونا حدهما بنظرة صارمة ، ف أمسكوا لسانيهما . الحقيقة أن أوبياجيلي ظلت تقوم بحركة الإينيانجا وهي تحمل جرتها . فوازنـت الجرة على رأسها ، وطوت ذراعيها على صدرها وبدأت تهتزّ خصرها كسيدة صغيرة ناضجة . وحين وقعت الجرة وانكسرت ، انفجرت ضاحكة . ولم تشرع بالبكاء إلا عندما اقتربوا من شجرة الإيروكو خارج مجمع أكواخهم .

كانت الطبول لاتزال تقرع ، ملحمة وبلا تغيير . لم يعد الصوت منفصلاً عن القرية المفعمة بالحياة . كان كنبض قلب القرية . يخفق في الجو ، في أشعة الشمس ، وحتى بين الأشجار ، ويملاً القرية بالإثارة .

صبت إيكويفي نصيب زوجها من الحساء في طاسة وغطتها . وحملتها إيزينما إليه في أوبيه .

كان أوكونكوا جالساً على جلد ماعز يتناول وجبة زوجته الأولى . جلست أوبياجيلي ، التي أحضرت هذه الوجبة من كوخ أمها ، على الأرض في انتظار انتهاءه منها . ووضعت إيزينما طبق أمامها أمامه وجلست مع أوبياجيلي .

صاحب أوكونكوا عليها : «إجلسي كامرأة !» . فضمنت إيزينما ساقيها ومدتهما أمامها .

سألت إيزينما بعد فترة مناسبة : «أبي ، هل ستذهب لتشاهد المصارعة؟»

أجاب : «نعم . هل ستذهبين أنتِ؟»
ـ «نعم» .

بعد صمت قصير سألت : «هل أستطيع أن أحضر مقعدك؟»
ـ «لا ، هذه مهمة صبي» .

كان أوكونكوا مولعاً بإيزينما بصفة خاصة . فهي تبدو شديدة الشبه بأمها التي كانت ذات مرة فاتنة القرية . لكن ولعه يظهر في مناسبات نادرة جداً فقط .

قالت إيزينما : «كسرت أوبياجيلي جرتها اليوم» .

قال أوكونكوا بين لقمة وأخرى : «نعم ، أخبرتني بذلك» .

قالت أوبياجيلي : «أبي ، يجب ألا يتكلم الناس وهم يأكلون وإلا دخل الفلفل في المجرى الخطأ» .

- «هذا صحيح جداً . هل سمعت ذلك يا إيزينما؟ إنك أكبر من أوبياجيلي لكنها أعقل منك» .

كشف الغطاء عن طبق زوجته الثانية وبدأ يأكل منه . أخذت أوبياجيلي الطبق الأول وعادت إلى كوخ أمها . ثم دخلت نكيتشي ، حاملة الطبق الثالث . كانت نكيتشي ابنة زوجة أوكونكوا الثالثة .

من بعيد ، استمر قرع الطبول .

٦ فصل

احتشدت القرية بأكملها في الإيلو ، رجالاً ونساءً وأطفالاً . وقفوا في دائرة واسعة تاركين وسط الملعب خاويأً . جلس شيخ وعزماء القرية على كراسيهم التي أحضرها إلى هناك أبناءهم الشباب أو عبيدهم . كان أوكونكوب بينهم . أما البقية فكانوا واقفين ما عدا أولئك الذين حضروا مبكّرين جداً ليؤمّنوا أماكن على المنصّات القليلة المصنوعة من زنود خشبية ملساء مرتكزة إلى دعائم متقطعة .

لم يكن المصارعون قد وصلوا بعد ، فظلّ قارعوا الطبول سادة الموقف . وقد جلسوا هم أيضاً أمام دائرة المشاهدين الواسعة ، يواجهون الشيّوخ . انتصب خلفهم شجرة القطن الحريري "العتيقه الضخمة التي كانت مقدسة . فأرواح الأطفال الطيّبين تعيش فيها في انتظار أن يولدوا . وفي الأيام العادية ، تأتي النسوة الشابات الراغبات في الأطفال ليجلسن في ظلّها .

كانت هناك سبعة طبول موزعة وفقاً لأحجامها في سلال خشبية طويلة . راح يقرع عليها ثلاثة رجال بعصيّ خشبية ، متنقلين من طبل إلى آخر على نحو محموم . لقد تلبستهم روح الطبول . اندفع الشباب الذين

يحافظون على النظام ، في مناسبات كهذه ، هنا وهناك ، وهم يتشاررون فيما بينهم ومع قائد فريق المصارعة اللذين كانوا لا يزالان خارج الدائرة خلف الجمهور . بين فترة وأخرى ، يجري شابان ، يحملان سعف النخيل ، حول الدائرة الداخلية ويعملان على دفع الجمهور إلى الخلف بضرب الأرض أمامهم ، وضرب سيقانهم ، إنْ ظلّوا عنيدين .

أخيراً ، دخل الفريقان إلى الدائرة وهم يرقصون ، فضج الجمهور بالهتاف والتصفيق . تعالى قرع الطبول إلى حد الجنون . وتماوج الناس مندفعين إلى الأمام . تراکض الشابان المكفاران بحفظ النظام بسرعة ، ملوّحين بسعف نخيلهم . هزّ الشيوخ رؤوسهم على حفق الطبول وتذكروا أيام شبابهم عندما تصارعوا على إيقاعها المskر .

بدأت مباريات المصارعة بفتیان الخامسة أو السادسة عشر . كان هناك ثلاثة فتیان فقط من هذا العمر في كل فريق . لم يكن هؤلاء المصارعين الحقيقيين ، بل كانوا هم الذين يهیئون المشهد فقط . انتهت المباراتان الأولىان خلال فترة قصيرة . لكن المباراة الثالثة أثارت ضجة كبيرة حتى بين الشيوخ الذين اعتادوا على الأیاظهروا انفعالهم على هذا النحو المكشوف . كانت مباراة سريعة مثل المباراتين الآخرين ، وربما حتى أسرع . لكن قليلاً جداً من الناس شاهدوا ذلك النوع من المصارعة من قبل . فحالما التح فتیان ، قام أحدهما بحركة لم يستطع أحد وصفها لأنها كانت سريعة كومیض . وقع الآخر مطروحاً على ظهره . زأر الجمهور وصفق ، فأغرق هذا قرع الطبول المسعور للحظة من الزمن . هبّ أو كونكوا واقفاً على قدميه وعاود الجلوس بسرعة . اندفع ثلاثة شبان من فريق الفتى المستنصر إلى الأمام ، فحملوه على أكتافهم ورقصوا

مخترقين صفوف الجمّهور الممّهّل . وسرعان ما عرف الجميع مَنْ هو الفتى . كان اسمه مادوكا ، ابن أوبيريكا .

توقف قارعو الطبول لفترة استراحة قصيرة قبل المباريات الحقيقة . كانت أجسادهم قد التمّعت بالعرق ، فتناولوا المراوح وبدأوا يرددون على أجسادهم . شربوا ماءً أيضاً من جرار صغيرة وأكلوا جوز كولا . عادوا مرة أخرى كائنات بشرية عادية ، يتحدثون ويضحكون فيما بينهم ومع آخرين واقفين قربهم . تراخي الجو الذي كان مشدوداً بالانفعال . بدت الحال كأن ماء صب فوق جلد طبل مشدود . مال كثير من الناس بانتظارهم حولهم ، ربما للمرة الأولى ، فرأوا الواقفين أو الجالسين إلى جوارهم .

قالت إيكويفي للمرأة التي وقفت إلى جانبها كتفاً إلى كتف منذ بداية المباريات : «لم أعرف أن هذه أنت» .

قالت المرأة : «لأولمك ، فأنا لم أر في حياتي مثل هذا الجمّهور الكبير من الناس . هل صحيح أن أوكونوكو كاد أن يقتلك بيندقيته؟» .

ـ «هذا صحيح حقاً يا صديقتي العزيزة . ولا أزال عاجزة عن العثور على كلمات مناسبة لرواية القصة» .

ـ «إن التشي الذي يحرسك يقظ جداً يا صديقتي . وكيف حال ابتي ، إيزينما؟» .

ـ «ظلّت بصحة جيدة منذ فترة من الوقت . ربما أنت لتبقى» .

ـ «أعتقد ذلك . كم عمرها الآن؟» .

ـ «حوالي عشر سنوات» .

ـ «أعتقد أنها سوف تبقى . فهم عادة يبقون إذا لم يموتوا قبل السادسة» .

قالت إيكويفي وهي تنهد بعمق : «أدعوا الآلهة أن تبقىها» .

كان اسم المرأة ، التي تكلمت ، تشيلو . وهي كاهنة أجبالا ، وهي التلال والكهوف . كانت تشيلو في حياتها العادمة أرملة وأمًا لطفلين . إنها صديقة عزيزة لإيكويفي وتشتركان معاً في سقية واحدة في السوق . وهي مولعة بصفة خاصة بابنة إيكويفي الوحيدة ، إيزينما ، التي تدعوها «بنيتي» . وكثيراً ما ابتعات كعكاً وأعطاه إلى إيكويفي لتقديمه إلى إيزينما في البيت . ومن يشاهد تشيلو في حياتها العادمة لا يكاد يصدق أنها نفس الشخص الذي يلقي بنبواته حينما تقمصها روح أجبالا .

عاد قارعو الطبول ورفعوا عصيهم ، فارتعش الجو وتوتر مثل قوس مشدود .

اصطف الفريقان يواجهان بعضهما بعضاً عبر الخلاء . تقدم أحد الشبان من أحد الفريقين ورقص في وسط الملعب ثم اتجه نحو الجانب الآخر وأشار إلى الذي يريد أن يصارعه . رقص الآتنان عائدين إلى الوسط معاً والتحما .

كان هناك اثنا عشر رجلاً في كل جانب ، فجرى التحدي من جانب إلى آخر . تجول حكمان حول المتصارعين ، وحين رأيا أنهما متكافئان ، أو قفاهما . انتهت خمس مباريات على هذا النحو . لكن اللحظات المثيرة حقاً كانت حين يُطرح رجل أرضاً . فيرتفع صوت الجمهور الهائل ويشقّ عنان السماء منتشرًا في جميع الاتجاهات . كان هذا الصوت يُسمع حتى في القرى المجاورة .

كانت المباراة الأخيرة بين قائدِيَّ الفريقَيْن . وهما من أفضل المصارعين في جميع القرى التسع . وتساءل الجمهور مَنْ الذي سيطرح الثاني أرضاً هذه السنة . قال البعض إنْ أوْكافو هو الأفضل ، وقال الآخرون إنه ليس نداً لإيكيزوبي . ففي السنة الماضية ، لم يتمكن أيٌّ منهما طرح الآخر أرضاً رغم أنَّ الحكمين سمحاً في استمرار المباراة لفترة أطول من العادة . كانوا يستخدمان نفس الأسلوب ويرى الواحد منهما خطط الآخر سلفاً . وقد يتكرر هذا ثانية في هذه السنة .

أخذ الغسق يقترب حين بدأ مباراتهما . جنّ جنون الطبول وجنّ الجمهور معها . تدافع الناس إلى الأمام بينما رقص الشابان متوجهين إلى داخل الدائرة . وعجزت سعف التخييل عن ردهم إلى الوراء .

مد إيكيزوبي يده اليمني . فقبض عليها أوْكافو ، والتحما . كانت مباراة شرسة . حاول إيكيزوبي جاهداً أن يغرس عقبه اليمني خلف أوْكافو كي يقذف به إلى الوراء وفقاً لطريقة إيجي الماهرة . لكن الواحد منهما كان يعرف ما يفكّر فيه الآخر . أحاط الجمهور بقارعي الطبول وابتعلهم ، ولم يعد إيقاعهم المسعور مجرد صوت محض بل خَفْق قلب الناس بالذات .

سكن المتصارعان الآن تقرباً وكل منهما في قبضة الآخر . برّزت العضلات في أذرعهما وأفخاذهما وظهريهما وارتعشت . بدا الأمر أنها مباراة متكافئة . وراح الحكمان يتقدمان إلى الأمام لكي يفصلَا بينهما حين ركع إيكيزوبي ، الذي سيطر عليه اليأس الآن ، بسرعة على إحدى ركبتيه في محاولة للإطاحة بخصمه إلى الخلف فوق رأسه . كانت تلك الحركة غلطة حساب محزنة . ففي مثل سرعة برق أماديو، رفع أوْكافو ساقه اليمنى ومرّ بها فوق رأس منافسه . انفجر الجمهور بهدير مرعد . ثم رفع

أنصار أو كافو بطلهم عن الأرض وحملوه على أكتافهم إلى البيت . غنوا
تمجيداً له وصفقت الصبايا : «من سيصارع من أجل قريتنا؟
أو كافو سيصارع من أجل قريتنا .

هل طرح مائة رجل؟

طرح أربعين مائة رجل .

هل طرح مائة هرّ؟

طرح أربعين مائة هرّ .

أطلبوا منه إذن أن يقاتل من أجلنا» .

فصل ٧

عاش إيكيميفونا في منزل أوكونكوه ثلاثة سنوات ، وبدأ أن شيخوخ
أومووفيا نسوا كل شيء عنه . وقد كبر بسرعة مثل ساق يام خضراء في
الموسم الماطر ، وامتلاً بنسخ الحياة . انغمس تماماً في عائلته الجديدة ؟
فكان مثل أخ أكبر لنوبي ، حيث بدا منذ البداية كأنه أوقن ناراً جديدة في
الصغير . فقد جعله يحس بأنه أصبح راشداً ، ولم يعودا بمضيان الأمسيات
في كوخ الأم وهي تطبخ الطعام ، بل يجلسان مع أوكونكوه في أوبية ، أو
يراقبانه وهو ينزل النخلة من أجل نبيذ المساء . لم يعد أي شيء يبعث
السرور في قلب نوبي الآن أكثر من أن ترسل أمه أو زوجة أخرى من
زوجات أبيه في طلبه كي يؤدي واحدة من تلك المهام الصعبة والذكورية
في البيت ، مثل تكسير الحطب ، أو سحق الطعام . وحين يتلقى نوبي
دعوة كهذه عن طريق أخ أو اخت أصغر ، كان يتظاهر بالانزعاج ويتذمر
بصوت مرتفع من النساء ومتاعبهن .

كان أوكونكوه مسروراً في أعماقه من التطور الذي طرأ على ابنه ،
وعرف أن الفضل في هذا يعود إلى إيكيميفونا . فقد أراد لنوبي أن يكبر

ويصبح شاباً صلباً قادراً على إدارة بيت أبيه بعد رحيله والتحاقه بالأجداد . وأراد له أن يصبح رجلاً مزدهراً الحال ، يملك في مخزنه ما يكفي ليعذى الأجداد بالقربين بانتظام . لذلك كان دائماً يحسّ بالسعادة عندما يسمع ابنه يتذمّر من النساء . فهذا يبيّن أنه سيكون قادراً على التحكم بنسائه في الوقت المناسب . فمهما كان الرجل ناجحاً ، لن يكون رجلاً حقاً إذا عجز عن التحكم في نسائه وأطفاله (وخصوصاً نسائه) . سيكون مثل الرجل في الأغنية ، الرجل الذي كانت لديه عشر زوجات وزوجة واحدة وليس لديه ما يكفي من الحسأاء لفواه .

هكذا شجع أوكونكرو الغلامين على الجلوس معه في أوببيه ، وروى لهما حكايات الأرض - حكايات ذكورية حافلة بالعنف وسفك الدماء . عرف نووبي أن من الصواب أن يكون الإنسان ذكراً وأن يكون عنيفاً ، لكنه ظلّ ، على نحو ما ، يفضل الحكايات التي اعتادت أمه أن تحكيها ، ولا تزال بلا شك تحكيها لأطفالها الصغار - حكايات السلحفاة وطرقها الماكرة ، والطائر إينيكي - نتي - أوبا الذي تحدى جميع العالم في مبارزة مصارعة ليطّرّحه الهرّ أرضاً في النهاية . تذكر الحكاية التي ردّتها أمه كثيراً حول الشجار الناشر بين الأرض والسماء في الماضي السحيق ، وكيف أن السماء حبس المطر سبع سنوات ، إلى أن ذبلت المحاصيل ولم يعد بالإمكان دفن الموتى لأن المجارف كانت تتكسر على الأرض المتحجرة . في النهاية ، أرسلت الأرض النسر ليتوسط لدى السماء ، ويرقق قلبهما بأغنية عن معاناة أبناء الرجال . كلما غنت أم نووبي هذه الأغنية ، كان

يحسّ نفسه محمولاً إلى المشهد البعيد في السماء حيث غنى النسر ،
مبعوث الأرض ، طالباً الرحمة . أخيراً ، تحرك قلب السماء بالشفقة ،
وأعطت النسر المطر ملفوفاً بأوراق الكوكو - يام . لكن ، وفيما هو يطير
متوجهاً نحو الوطن ، مزقت مخالبه الطويلة أوراق الشجر وهطل المطر كما
لم يهطل من قبل . هطل على النسر بغزارة إلى حد أنه لم يرجع لتسليم
الرسالة بل طار إلى أرض بعيدة لمح فيها ناراً . حين وصل إليها ، وجد أنها
نار رجل يقدم قرباناً . فتدفأ بلهبها وأكل أمعاء القربان .

ذلك هو نوع الحكايات الذي أحبّه نووبي . لكنه بات يعرف الآن أنها
حكايات للنساء والأطفال الحمقى ، ويعرف أن أباه يريده أن يكون رجلاً .
لذلك تظاهر بأنه لم يعد مهتماً بحكايات النساء . وحين أظهر ذلك ، رأى
أن أباه سُرّ ، ولم يعد يوحيه أو يضريه . هكذا راح نووبي وإيكيميفونا
يستمعان إلى حكايات أوكونكوا عن حروب قبلية ، أو كيف أنه ، قبل
سنوات طويلة ، طارد ضحيته وفهرا وحصل على رأسه البشري الأول .
في أثناء حديثه عن الماضي ، كانوا يجلسون في العتمة أو في وهج
الخطب المعتم في انتظار انتهاء النساء من طبخهن . وحين ينتهي ، كانت
كل واحدة تحضر طاسة من الفو - فو وطاسة من الحساء إلى زوجها .
فيضاء مصباح زيت ، ويدعو أوكونكوا الطعام من كل طاسة ، ثم يقدم
نصيباً منه إلى نووبي وإيكيميفونا .

على هذا النحو مرت الأئمّار والمواسم . ثم أتى الجراد . وهو أمر لم
يحدث منذ سنين طويلة عديدة . قال الشیوخ إن الجراد يأتي مرة في كل

جيل ، ويظهر كل سنة لمدة سبعة أعوام ثم يختفي حتى جيل آخر . فيعود إلى كهوفه في أرض بعيدة ، حيث يحرسها جنس من رجال أقزام . وبعد مرور جيل يفتح أولئك الأقزام الكهوف مرة أخرى فيأتي الجراد إلى أمووفيا .

وقد أتى في موسم رياح الحرور/ الهارماتان القارسة بعد جمع المحاصيل ، وأكل العشب البري في الحقول .

كان أوكونكوا والصبيان يعملون في إصلاح أسوار المجتمع الخارجية الحمراء . كان هذا أحد الأعمال السهلة التي يجري إنجازها بعد انتهاء موسم الحصاد . إذ كانت الجدران تغطى بطبقة سميكة جديدة من أغصان وأوراق النخيل من أجل وقايتها من فصل الأمطار القادم . عمل أوكونكوا في الجانب الخارجي من السور بينما عمل الأولاد في الجانب الداخلي منه . كانت هناك ثقوب صغيرة تخترق الجدار من جانب إلى الجانب الآخر في مستوياته العليا ، فمرر أوكونكوا عبر هذه الثقوب حبلًا ، أو تابي - تاي ، إلى الصبيان فلقاء حول دعائم خشبية وأعاداه إليه . بهذه الطريقة ثبّت الغطاء على السور .

ذهبت النسوة إلى الغابة لجمع الحطب ، بينما ذهب الأطفال الصغار لزيارة أقرانهم في مجتمعات الأكواخ المجاورة . لاحت ريح الهارماتان في الجو وقد بدا أنها تقطّر شعورًا نوم مضيّب على العالم . فراح أوكونكوا والصبيان يعملون في صمت مطبق ، صمت يتحطم حين ترفع سعف نخيل جديدة إلى السور أو حين تحرك دجاجة مشغولة أوراق شجر جافة

في الجوار في بحثها الدؤوب عن الطعام .

عندئذ ، وعلى نحو فجائي تماماً ، سقط ظل على العالم وبدا أن الشمس اختفت خلف سحابة كثيفة . رفع أوكونكوب بصره متسائلاً عما إذا كانت ستمطر في مثل هذا الوقت من السنة . لكن وفي هذه اللحظة تقريباً ، انفجر ضجيج فرح من جميع الاتجاهات ، ودبّت الحياة واشتعل النشاط في أومووفيا التي كانت غافية في وهج الظهر .

تردد النشيد مرحًا في كل مكان : «الجراد يهبط» ، فترك الرجال والنساء والأطفال عملهم ولهوهم وتراكموا إلى الخلاء ليشهدوا المنظر غير المألف . فالجراد لم يأت منذ سنوات وسنوات ، والرجال المسنون فقط هم الذين رأوه من قبل .

في البداية ، أتى سرب صغير نسبياً . كان بمثابة الرسُل المبعوثين لاستطلاع الأرض . ثم ظهرت في الأفق كتلة متحركة ببطء مثل صفحة سحابة لا حدود لها سوداء تناسب نحو أومووفيا . وسرعان ما غطت نصف السماء ، ورصفت الكتلة الصماء أعين نور دققة كغبار نجوم . كان مشهداً هائلاً ، مليئاً بالقوة والجمال .

انتشر الكل الآن ، وتحدثوا بانفعال ودعوا الآلهة أن يخيم الجراد في أومووفيا لقضاء الليل . ومع أن الجراد لم يزور أومووفيا منذ سنوات كثيرة ، عرف الكل بالغزيرة بأنه طعام شهي جداً صالح للأكل . أخيراً ، نزل الجراد . حطَّ على كل شجرة وعلى كل نصل عشبة ، واستقر على

السطح وغطى الأرض الجرداء . انقصفت أغصان الأشجار القوية تحت ثقله ، واكتست البلد بأكملها لوناً بنيناً ترابياً هو لون السرب الضخم الجائع .

خرج كثير من الناس حاملين سلالهم وحاولوا الإمساك بالجراد ، لكن الشيوخ نصحوهم أن يصبروا حتى حلول الليل . كانوا على حق . فقد استقر الجراد في الشجيرات لقضاء الليل وابتلت أجنته بالندى . عندئذ خرجت أومووفيا عن بكرة أبيها على الرغم من رياح الحرور القارسة ، فملأ الكل أكياسه وقدوره بالجراد . في الصباح التالي ، شُوي الجراد في قدور صلصالية ثم نُشر في الشمس حتى أصبح جافاً وهشاً . وعلى مدى أيام عديدة ، أكل أهل القرية هذا الطعام النادر ممزوجاً بزيت التحيل .

جلس أوكونكoo في أوبيه يمضع الجراد بسعادة مع ايكيميفونا ونوبوي ، ويشرب نبيذ التحيل بإفراط حين دخل عليه أوجبويفي إيزيدو . كان إيزيدو أكبر الرجال سنًا في هذا الحي من أومووفيا . فقد كان في زمانه محارباً عظيماً جسوراً ، ولا يزال يتمتع حتى الآن باحترام شديد في العشيرة . رفض أن يشارك في وجبة الطعام ، وطلب من أوكونكoo وأن يتبادل الحديث معه في الخارج . هكذا خرجا معاً ، والرجل العجوز يتکيء على عصاه . حين أصبحا خارج مدى السمع ، قال لأوكونكoo :

ـ «ذلك الغلام يدعوك أبي . لا تشارك في قتله» .

فوجيء أوكونكoo ، وهم بالكلام حين تابع الرجل العجوز :

– «نعم ، قررت أومووفيا قتله . أعلن ذلك وحي التلال والكهوف .
سيأخذونه إلى خارج أومووفيا كما جرت العادة ، وسيقتلونه هناك . لكنني
أريد ألا تكون لك يد في هذا . فهو يدعوك أباه» .

في الصباح الباكر من اليوم التالي ، حضرت إلى بيت أوكونكورو
مجموعة من شيخ قرى أومووفيا التسع ، وقبل أن يبدأوا الحديث بصوت
خافت ، أرسل نووبي وإيكيميفونا إلى الخارج . لم يمكثوا طويلاً جداً ،
بعد خروجهم ، جلس أوكونكورو لفترة طويلة جداً ساكناً مسندًا ذقنه إلى
كتفه . في وقت لاحق من النهار ، دعا إليه إيكيميفونا وأخبره بأنه سيؤخذ
إلى بيته الأصلي في اليوم التالي . سمع نووبي الحديث ، فانفجر باكياً ،
فصربه أبوه بسبب ذلك ضرباً مبرحاً . أما إيكيميفونا ، فقد أحس بالحيرة
الشديدة . إذ أصبح بيته الأصلي تدريجياً باهتاً ويعيداً جداً . لقد ظل يفقد
أمه واخته ، وسيفرحه جداً أن يراهما . لكنه عرف بطريقة ما أنه لن يراهما .
وتذكر المرة التي تحدث فيها أشخاص بصوت خافت مع أبيه ، ويدا الآن
كأن هذا يحدث مرة أخرى معه .

فيما بعد ، ذهب نووبي إلى كوخ أمه وأخبرها بأن إيكيميفونا سيذهب
إلى بيته . أسقطت فوراً مدقعة الهalon التي كانت تسحق بها الفلفل ، وطوت
ذراعيها على صدرها وتنهدت : «الطفل المسكين» .

في اليوم التالي ، عاد الرجال ومعهم رزق خمر . كانوا يرتدون لباسهم
الكامل كما لو كانوا ذاهبين إلى إجتماع عشيرة مهم أو لزيارة قرية مجاورة .
مرروا أقمشتهم من تحت إيطهم الأيمن ، وعلقوا أكياسهم المصنوعة من

جلد الماعز وسيوف التخطيب المغمدة في قرابها على الكتف الأيسر .
أعد أوكونكوا نفسه بسرعة وانطلق الجمع مع إيكيميفونا الذي حمل زق
الخمر . هبط صمت الموت على مجتمع أكواخ أوكونكوا . بدا حتى كأن
الأطفال الصغار يعرفون . جلس نوروي، عليه ذلك اليوم في كوخ أمه
والدموع تترقرق في ماقيه .

في بداية رحلتهم ، تحدث رجال أومووفيا وضحكوا من الجراد ومن
نسائهم ومن بعض الرجال المختين الذين رفضوا القدوم معهم . لكنهم
حين اقتربوا من ضواحي أومووفيا ، هبط الصمت عليهم أيضاً .

ارتفعت الشمس ببطء إلى كبد السماء ، وبدأ الدرج الرملي العجاف
ينفث الحرارة المدفونة فيه . غردت بعض الطيور في الغابات المحيطة
بالمكان . داس الرجال على أوراق الشجر الجافة الساقطة على الرمل .
لكن كل شيء آخر كان صامتاً . ثم ترافق من بعيد قرع إيكوي خافت .
فعلا وخفت مع الريح - رقصة وادعة تنبعث من عشيرة بعيدة .

قال الرجال فيما بينهم : «رقصة أوزو» . لكن أحداً لم يكن متأكداً من
أين كانت تأتي . قال البعض إنها من إيزيميلي ، وقال آخرون إنها من آبامي
أو أنيتا . وتجادلوا الفترة قصيرة من الوقت وعادوا إلى الصمت ثانية ،
وعلت الرقصة المراوغة وانخفضت مع الريح . كان رجل في مكان بعيد
يتقلّد لقباً من ألقاب عشيرته مع الموسيقى والرقص ووليمة كبيرة .

ضاق الدرج الآن حتى أصبح خطأ دقيقاً في قلب الغابة . بدأت تحلّ

محل الأشجار القصيرة والنباتات القليلة المتفرقة المحيطة بقرية الرجال
الأشجار العملاقة والنباتات الكثيفة المعرفة الموجودة هناك ربما منذ بدء
الخلية ، دون أن يمسسها الفأس ولا النار . رسمت الشمس النافذة من
خلال أوراقها وأغصانها أشكالاً من الضوء والظل على الدرب الرملي .

سمع إيكيميفونا همساً خلفه واستدار بحدة . صاح الرجل الذي همس
وتحت الآخرين على الإسراع .

قال : «لا يزال أمامنا طريق طويل» . ثم تقدم هو ورجل آخر إيكيميفونا
وحتى الخطى .

هكذا تابع رجال أومووفيا طريقهم ، مسلحين بسيوفهم المغمدة ،
وسار إيكيميفونا وسطهم ، حاملاً زق نبيذ التخيل على رأسه . مع أنه كان
قلقاً في البداية ، إلا أنه لم يعد الآن خائفاً . فقد سار أوكونكوا خلفه . فهو
لا يكاد يتخيّل أن أوكونكوا ليس أباً الحقيقي . فلم يولع أبداً بأبيه
ال حقيقي ، وعند نهاية ثلاثة سنوات ، أصبح أبوه ذلك نائياً جداً عنه حقاً .
لكن أمه وأخته البالغة من العمر ثلاثة سنوات . . . بالطبع لن يكون عمرها
الآن ثلاثة سنوات ، بل ستة . هل سيعرفها الآن؟ لا بد أنها كبرت تماماً .
كم ستبكي أمه من الفرح ، وتشكر أوكونكوا لأنه اعنى به جيداً على هذا
النحو وأعاده إليها . سترغب في الاستماع إلى كل ما جرى له خلال هذه
الستين . هل سيدرك كل ما جرى؟ سيرحدثها عن نووبي وأمه ، وعن
الجراد . . . فجأة ، خطرت بباله فكرة . قد تكون أمه ماتت . وحاول عبثاً
إبعاد الفكرة عن ذهنه . ثم حاول تسوية الأمر بنفس الطريقة التي اعتاد أن

يسويّ بها المسائل المشابهة عندما كان صبياً صغيراً . كان ما يزال يتذكر
الأغنية :

إيزى إلينا ، إلينا !

سالا

إيزى ايليكوا يا

ايكوابا أكوا أوليجولي

إيبى داندا نيتشي إيزى

إيبى أوزوزونتيي إيجوو

سالا

غنها في ذهنه ، ومشى على خفق إيقاعها . إذا انتهت الأغنية مع قدمه
اليمنى ، فأمه على قيد الحياة . وإذا انتهت مع اليسرى ، فهي ميتة . لا ،
ليست ميتة ، بل مريضة . وانتهت الأغنية مع قدمه اليمنى . إنها حية
ويخير . وغن الأغنية مرة أخرى ، فانتهت مع اليسرى . لكن المرة الثانية لا
تحسب . الصوت الأول يصل إلى تشوکوو ، أو إله البيت . ذلك قول أثير
يردده الأطفال . أحس إيكيميفونا نفسه طفلاً مرة أخرى . لابد أن تفكيره
بعودته إلى البيت ، إلى أمه ، هو ما جعله يحس بهذا .

سلك أحد الرجال الذين يسرون خلف إيكيميفونا حلقه . التفت
إيكيميفونا إلى الوراء ، فزمر الرجل آمراً إيه بالمضي قدماً وعدم التوقف

والالتفات . بعثت لهجته قشعريرة خوف باردة في ظهر إيكيميفونا . فارتجمفت يداه بغموض على الزق الأسود الذي يحمله . لماذا انسحب أوكونكوا إلى المؤخرة ؟ أحس إيكيميفونا بساقيه تذوبان تحته . خاف أن يلتفت إلى الخلف .

حين سحب الرجل الذي سلك حلقه سيفه ورفعه ، أشاح أوكونكوا بنظره . سمع الضربة . وقع الزق وانكسر على الرمل . سمع إيكيميفونا يصرخ : «أبي ، قتلوني !» ركض نحوه . سحب أوكونكوا سيفه ، وقد أذهله الخوف ، وجندله . خاف أن يفكروا بأنه ضعيف .

حالما دخل أبوه إلى البيت في تلك الليلة ، أدرك نووبي أن إيكيميفونا قتل ، فشعر بأن شيئاً انها في داخله ، كانقطاع وتر قوس مشدود . لم يبك . تكَّوم فقط رخيّ الجسم . أحس بنفس الشعور الذي أحسّ به منذ فترة ليست بعيدة ، أثناء موسم الحصاد الماضي . كل الأطفال يحبون موسم الحصاد . حين يذهب أولئك القادرون على حمل حتى بضع حبات يام في سلة ضئيلة الحجم إلى الحقول مع الكبار . وإذا لم يساعدوا في استخراج اليام من الأرض ، فإنهم يجمعون الحطب لشوي اليام الذي سيؤكل في الحقول . وهذا اليام المشوي المنقوع بزيت التحيل الأحمر والمأكول في المزرعة في الهواء الطلق يكون أشهى من أي وجبة في البيت . ففي يوم كهذا قضاه نووبي في المزرعة خلال الحصاد الأخير ، أحس لأول مرة بانخطاف في داخله شبيه بما يحسه الآن . كانوا عائدين إلى البيت مع سلال اليام من مزرعة بعيدة عبر الجدول عندما سمعوا

صوت طفل رضيع يبكي في الغابة الكثيفة . خيم صمت مفاجئ على النسوة اللواتي كن يتداولن الحديث وأسرعن الخطى . كان نوبي قد سمع أن التوأمین يوضعاً في أوعية فخارية ويطرحان في الغابة ، لكنه لم يصادف أن مَرْبَأَيْ توأمَيْن أبداً . فسرت في جسده قشعريرة غامضة وأحس برأسه يتتفجخ ، كسائر متواحد في الليل يمر بروح شريرة . انهار شيء في داخله . وهبط عليه هذا الإحساس مرة أخرى حينما خطأ أبوه إلى داخل البيت في تلك الليلة بعد قتل إيكيميفونا .

فصل ٨

لم يذق أوكونكرو طعاماً مدة يومين بعد موت إيكيميفونا . راح يشرب نبيذ النخيل من الصباح إلى الليل ، فأحمرت عيناه وعفنتا مثل عيني جرذ أمسك به من ذيله وقذف به بعنف إلى الأرض . دعا ابنه نووبي إلى الجلوس معه في أوييه . لكن الصبي كان خائفاً منه ، فانسل خارجاً من الكوخ حالما لاحظ أن الكري بدأ يداعب جفنيه .

لم ينم في الليل . حاول ألا يفكر بيايكيميفونا ، لكنه كلما حاول أكثر ، كلما فكر فيه أكثر . نهض ذات مرة من سريره وطاف حول مجتمع الأكواخ . لكنه كان ضعيفاً إلى حد أن ساقيه كادتاً لاتحملانه . وأحسن كأنه عملاق ثمل يسير بساقٍ بعوضة . وسرت بين حين وآخر رعشة انتقلت من رأسه إلى جميع أنحاء جسمه .

في اليوم الثالث ، طلب من زوجته الثانية ، إيكويوفي ، أن تشوّي له موز الجنة . فهياّته بالطريقة التي يحبها - مع شرائح من الفول والسمك .

قالت ابنته إيزينما حينما أحضرت الطعام له : «أنت لم تأكل منذ يومين . لذلك يجب أن تنهي هذا» . جلست ومدّت ساقيها أمامها . أكل أوكونكرو الطعام وهو شارد الذهن . فكر وهو ينظر إلى ابنته البالغة عشر سنوات :

«كان يجب أن تكون ولدًا». ناولها قطعة من السمك .

قال : «إذهب بي واحضرني بعض الماء البارد». اندفعت إيزينما إلى خارج الكوخ ، وهي تمضغ السمك ، وعادت بسرعة حاملة طاسة من الماء البارد من جرة الفخار في كوخ أمها .

تناول أوكونكwoo الطاسة منها وجرع الماء دفعه واحدة . أكل بضع قطع أخرى من الموز وأزاح الطبق جانباً .

قال : «احضرني لي كيسى» ، فأحضرت إيزينما له كيس جلد الماعز من طرف الكوخ البعيد . بحث فيه عن قنية السعوط . كان كيساً طويلاً ، فغاب فيه كل ذراعه تقريباً . احتوى الكيس على أشياء أخرى إلى جانب قنية السعوط . كان فيه قرن الشرب ، وقرعة شرب أيضاً فاصطدم الوعاءان أحدهما بالآخر وهو يبحث . حين أخرج قنية السعوط ، ضرب بها بخفة على رضفة ركبته عدة مرات قبل أن يرش مقداراً من السعوط على راحة يده اليسرى . ثم تذكر أنه لم يخرج ملعة السعوط . بحث في الكيس مرة أخرى وأخرج ملعة مسطحة عاجية صغيرة ، حمل بها السعوط البني إلى منخريه .

حملت إيزينما الطبق في إحدى يديها وطاسة الماء الفارغة في الأخرى وعادت إلى كوخ أمها . قال أوكونكwoo لنفسه مرة أخرى : «كان يجب أن تكون ولدًا». عاد ذهنه إلى إيكيميفونا وارتعد . لو أنه فقط يجد عملاً يقوم به لاستطاع أن ينسى . لكنه كان موسم الراحة الواقع بين الحصاد وموسم الزرع التالي . والعمل الوحيد الذي يقوم به الرجال في هذا الوقت هو تغطية جدران مجمع أكواخهم بسعف نخيل جديد . وقد قام أوكونكwoo

بذلك . وأنهى العمل في نفس اليوم الذي غزا فيه الجراد القرية ، حين عمل هو في جانب منه وعمل إيكيميفونا ونوبوي في الجانب الآخر .

سأل أوكونكوا نفسه : « متى أصبحت امرأة عجوزاً مرتعنة ، أنت المعروف في كل القرى التسع ببسالتك في الحرب ؟ كيف يمكن لرجل قتل خمسة رجال في معركة أن يتمزق إرباً لأنه أضاف شيئاً إلى عددهم ؟ أوكونكوا ، لقد أصبحت امرأة حقاً » .

هب واقفاً على قدميه ، وعلق كيس جلد الماعز على كتفه وذهب لزيارة صديقه أوبيريكا .

كان أوبيريكا يجلس في الخارج في ظل شجرة بر تعال ويصنع غطاء سقف من أوراق نخل الرافية . فتبادل التحيات مع أوكونكوا وقاده إلى داخل أوبي .

قال وهو يفرك ويزيل ذرات الرمل الملتصقة بفخذه : « كنتُ أتياً لزيارتكم فور انتهاءي من ذلك الغطاء » .

سأل أوكونكوا : « عسى الأمر خيراً ؟ »

أجاب أوبيريكا : « نعم » . طالب يد ابتي سيأتي اليوم وآمل أن نحسن أمر مهر العروس . « أريدك أن تكون موجوداً » .

في تلك اللحظة تماماً ، دخل ابن أوبيريكا ، مادوكا ، إلى الأوبي قادماً من الخارج ، وحياناً أوكونكوا ثم استدار نحو مجمع الأكواخ .

قال أوكونكوا للغلام : « تعال وصافحني . أدخلت مصارعتك في ذلك

اليوم الكثيرَ من السعادة إلى قلبي» . ابتسِم الغلام ، وصافح أوكونكُو ودخل مجمعَ الأكواخ .

قال أوكونكُو : «سيقوم بأعمال عظيمة . لو كان لي ولد مثله ، لكنْتُ سعيداً . إنني قلق على نووبي . إن طامة من الأيام المسحوق تطرّحه أرضاً في مبارأة مصارعة . أخواه الصغيران أفضل منه . لكنني أقول لك يا أوبيريكا ، إن أولادي لا يشبهونني حقاً . أين الجذيرات الفتية التي ستنمو عندما تموت شجرة الموز العتيقة؟ لو كانت إيزينما ولداً ، لكنْتُ سعيداً . فهي تتحلى بالروح الصحيحة» .

قال أوبيريكا : «أنت تقلق نفسك بلا سبب . الأطفال لا يزالون صغاراً جداً» .

ـ «كبر نووبي إلى حد يمكنه فيه أن يُحِبِّل امرأة . عندما كنت في سنِه كنت مسؤولاً عن نفسي . لا يا صديقي ، إنه ليس صغيراً جداً . فالكتكوت الذي سيصبح ديكاً يمكن تمييزه في نفس اليوم الذي تفَقَّس عنه البيضة . لقد بذلت جهدي لأجعله ينشأ كرجل ، لكن فيه شيئاً كثيراً جداً من أمه» .

فَكَرْ أوبيريكا : «شيء كثير جداً من جده» ، لكنه لم يقل هذا . خطر نفسُ الْخاطر بِيال أوكونكُو ، لكنه تعلّم منذ فترة طويلة كيف ينْبَذ ذلك الشبح . فكلما ضايقته فكرة ضعف وفشل أبيه كان يطردُها بالتفكير في قوته ونجاحه . وهذا ما فعله الآن . فقد اتجه ذهنه إلى آخر عرض لرجلته .

سأّل أوبيريكا : «لا أستطيع أن أفهم لماذا رفضتَ القدوم معنا لقتل ذلك الولد» .

أجاب أوبيريكا بحده: «لأنني لم أرد ذلك . كان لدى عمل أفضل لأقوم به» .

ـ «يبدو من صوتك كأنك تعترض على سلطة وقرار الوحي الذي قال إنه يجب أن يموت» .

ـ «أنا لا اعتراض . لماذا أفعل هذا؟ الوحي لم يطلب مني أن أنفذ قراره» .

ـ «لكن واحداً كان لابد أن ينفذه . لو خفنا كلنا من الدم ، لما نفذ . ماذا تظن بأن الوحي سيفعل حينئذ؟»

ـ «أنت تعرف جيداً جداً يا أوكونكwoo أنني لا أخاف من الدم . إذا قال لك أحد إبني أخاف ، فهو يكذب . دعني أقول لك شيئاً واحداً يا صديقي . لو كنت مكانك لبقيت في البيت . إن ما فعلته لن يسر الأرض . إنه من نوع الأفعال التي تمحوربة الأرض بسببه عائلات بأكملها» .

قال أوكونكwoo: «الأرض لا تستطيع أن تعاقبني لإطاعتي رسولها . فأصابع طفل لا تتسلخ من قطعة يام ساخنة تضعها أمه في كفه» .

وافق أوبيريكا: «هذا صحيح . لكن الوحي إذا قال إن ابني يجب أن يُقتل ، فلن اعترض على هذا ، كمالن أكون الشخص الذي ينفذه» .

كان يمكن أن يستمرا في النقاش لولا دخول أوفويدو في تلك اللحظة . كان واضحاً من عينيه المتألقتين بأنه يحمل أنباءً مهمة . لكن من سوء الأدب استعجاله . فقدم إليه أوبيريكا فلقة من جوزة الكولا التي كسرها مع أوكونكwoo . أكلها أوفويدو ببطء وتحدى عن الجراد . حين انتهى من تناول جوز الكولا قال: «الأمور التي تحدث هذه الأيام غريبة جداً» .

سؤال أوكونكwoo : «ماذا حدث؟»

سؤال أوفويدو : «هل تعرف أوجبوفي ندولوي؟»

قال أوكونكwoo وأبيريكا معاً : «أوجبوفي ندولوي من قرية إيري» .

قال أوفويدو : «مات هذا الصباح» .

قال أبيريكا : «هذا ليس غريباً . فقد كان أكبر الشيوخ سنًا في إيري» .

وافق أوفويدو : «أنتَ على حق . لكنك كان يجب أن تسأل لماذا لم يقرع الطبل لإخطار أومووفيا بوفاته» .

سؤال أبيريكا وأوكونكwoo معاً : «لماذا؟» .

ـ ذلك هو الغريب في الأمر . هل تعرف زوجته الأولى التي تتوكأ على عصا؟»

ـ «نعم . اسمها أوزويمينا» .

قال أوفويدو : «نعم . كانت أوزويمينا ، كما تعرفان ، أعجز من أن تعتنى بندولوي أثناء مرضه . ففعلت ذلك زوجاته الأصغر سنًا . وحينما توفي هذا الصباح ، ذهبت إحدى هذه الزوجات إلى كوخ أوزويمينا وأخبرتها . فهضت عن حصيرتها ، وحملت عصاها وسارت نحو الأولى . انحنت على ركبتيها وكفيها عند العتبة ونادت على زوجها الذي كان قد مدد على حصيرة . نادت عليه ثلاثة مرات : «أوجبوفي ندولوي» ، ثم عادت إلى كوخها . حين دخلت عليها الزوجة الصغرى مرة أخرى لتدعواها كي تحضر غسل الجثمان ، وجدتها ممددة على الحصيرة ميتة» .

قال أوكونكوه: «ذلك غريب جداً حقاً . سيؤجلون جنازة ندولوي إلى أن تدفن زوجته» .

—«ذلك هو السبب في عدم قرع الطبل لإخبار أو موسوفيا».

قال أوبيريكا : «قيل دائمًا إن لندولوي وأوزويمينا عقل واحد . وأذكر أنني عندما كنت صبياً صغيراً ، كانت تتردد أغنية عنهم . إنه لم يكن يستطيع فعل شيء دون أن يعلمها به » .

قال أوكونكwoo : «لم أكن أعرف ذلك . لقد اعتقدت أنه كان قويأً في شبابه ». .

قال أوفويدو : «كان كذلك فعلاً» .

هزّ او كونکو و رأسه بشك .

أوبيريكا : «لقد قاد أومووفيا إلى الحرب في تلك الأيام» .

بدأ أوكونكورو يحسّ بأنه يعود إلى طبيعته السابقة . فكل ما كان يلزمه هو شيء يشغل ذهنه . لو أنه قتل إيكيميفونا أثناء موسم الزرع أو الحصاد الحافل بالعمل ، لما كان الأمر سيئاً إلى هذا الحد ، لكان عقله ترکّز على عمله . فلم يكن أوكونكورو رجل فكر بل رجل عمل . لكن ، في غياب العمل ، يحتل الكلام المرتبة الثانية بالأفضلية .

حالما غادر أو فيدو ، تناول أوكونكوا كيسه فوراً وهم بالخروج .

قال : «يجب أن أعود إلى البيت لأبذل نخلاتي في فترة بعد الظهر» .

سؤال أوبيير يكا : «من ينزل نخلاتك العالية لك؟» .

أجاب أوكونكoo : «أوميزوليكي» .

قال أوبيريكا : «أتمنى أحياناً لو أتني لم أقبل لقب أوزو . فمما يدمي قلبي أن أرى هؤلاء الشباب وهم يقتلون النخيل بحجة بزله» .

وافق أوكونكoo : «هذا ما يحدث فعلاً . لكن قانون البلد يجب أن يُطاع» .

قال أوبيريكا : «لاأدرى من أين أتينا بذلك القانون . ففي عشائر كثيرة أخرى ، ليس محظوراً على حامل لقب أن يتسلق النخلة . هنا نقول إنه لا يستطيع تسلق الشجرة العالية ، لكنه يستطيع بزل الأشجار القصيرة وهو واقف على الأرض . إن مثل هذا كمثل ديماراجانا الذي رفض تقديم سكينه لقطع لحم الكلب لأن الكلب تابو بالنسبة إليه ، لكنه عرض أن يستعمل أسنانه» .

قال أوكونكoo : «يحسن أن تحافظ عشيرتنا على سمو مكانة لقب أوزو . فلقب أوزو في تلك العشائر الأخرى التي تتحدث عنها لقب حفير الشأن إلى درجة أن كل شحاذ يمكنه أن يناله» .

قال أوبيريكا : «كنت أمنرح فقط . ففي قريتي آبامي وأنيتا يساوي اللقب أقل من وَدَعَتين . وكل رجل هناك يضع خيط اللقب على كاحله ، ولا يفقده حتى لو أقدم على جريمة سرقة» .

قال أكونكoo : «لقد لطخوا الكلمة أوزو حقاً» .

قال أوبيريكا : «لن يمر وقت طويل قبل أن يأتي أصهاري» .

قال أوكونكoo وهو ينظر إلى موقع الشمس : «سأعود بسرعة» .

كان هناك سبعة أشخاص في كوخ أوبيريكا عندما عاد أوكونكواو .
وكان طالب يد الابنة شاباً في حوالي الخامسة والعشرين من عمره ، ومعه
أبوه وعمه . كان هناك من جهة أوبيريكا أخواه الكباران ومادوكا ، ابنه البالغ
ستة عشر عاماً .

قال أوبيريكا لابنه : «أطلب من أم أكويكي أن ترسل لنا بعض جوز
الكولا». اختفى مادوكا في مجمع الأكواخ كالبرق . وتركّز الحديث فوراً
حوله ، فاتفق الجميع على أنه حاد كموسى .

قال أوبيريكا بتسامح : «أفكّر أحياناً بأنه حاد أكثر من اللازم . إنه لا يكاد
يمشي . وهو دائماً في عجلة من أمره . إذا أرسلته في مهمة ، يطير خارجاً
قبل أن يسمع نصف الرسالة» .

قال أخوه الأكبر : «لقد كنت أنت نفسك كذلك تماماً . وكما يقول
قونما : «عندما تمضغ البقرة الأم العشب ، تراقب العجلون الصغيرة فمها» .
لقد ظل مادوكا يراقب فمك» .

بينما كان يتكلّم ، عاد الفتى ، تبعه أكويكي ، أخته من أبيه ، حاملة
طبقاً خشبياً فيه ثلاثة جوزات كولا وفلفل تمساح . أعطت الطبق لشقيق
أبيها الأكبر ثم صاحت ، بخجل شديد ، طالب يدها وأهله . كانت في
 حوالي السادسة عشر وقد نضجت تماماً للزواج . ففحص طالب يدها
 وأهله جسدها الشاب بأعين خبيرة لأنهم يطمئنون أنفسهم بأنها جميلة
 وناضجة .

ضمّ شعرها في منتصف رأسها بتسريحة عُرف فرس . فرك جسمها
 برقة بخشب الكام ، ورسمت على جمِيع أجزاء جسدها أشكال سوداء

بالأولى . وأحاطت جيداً بعقد أسود تدل على شكل ثلاث لفات فوق نهديها الممتهنين الريانين تماماً . على ذراعيها لبست أساور حمراء وصفراء ، وطوقت خصرها بأربعة أو خمسة صفوف من الجييجيدا ، أو خرز الخصر .

بعدما صافحت الضيوف ، أو بالأحرى مدّت يدها حتى يصافحوها ، عادت إلى كوخ أمها لتساعد في الطبخ .

حضرتها أمها عندما اقتربت من الموقد لتحضر يد الهاون الموضوعة على الجدار : «إخلعي الجييجيدا أولاً . وأنا أقول لك كل يوم بأن الجييجيدا والنار ليسا صديقين . لكنك لا تسمعين أبداً . أنت تكبرين أذنيك للزينة ، لا للسمع . في أحد هذه الأيام ستتشبّه النار في أطواق الجييجيدا وتشعل خصرك ، عندئذ ستتعلمين» .

ابتعدت أكويكي إلى الطرف الآخر من الكوخ وبدأت تخلع خرز الخصر . كان لا بد أن تنجز هذا ببطء وحرص ، بخلع كل خيط لوحده ، وإنقطع واضطرت إلى نظم الحلقات الدقيقة الألف مرة أخرى . فركت كل خيط بكفيها نحو الأسفل إلى أن تجاوز رديفها وانزلق إلى الأرض حول قدميها .

بدأ الرجال في الأولي بشرب نبيذ النخيل الذي أحضره طالب يد أكويكي معه . كان نبيذاً جيداً جداً وقوياً ، فرغم أن الشمرة الموضوعة في فم الرزق لحجز السائل الفوار ، فارزب الأبيض واندلق .

قال أوكونكوا : «هذا النبيذ من صنع خمار جيد» .

ابتسم طالب يد الفتاة الشابة ، الذي كان اسمه إيببي ، ابتسامة عريضة

وقال لأبيه : «هل تسمع ذلك؟» ثم قال للاخرين : «إنه لن يعترف أبداً
بأنني حاذق في بزل التخيل» .

قال أبوه أوكيجبو : «لقد بزل ثلاثة من أفضل نخلاتي حتى مات». [١٣]

قال إبيبي الذي بدأ يصبّ النبيذ : «حدث ذلك قبل حوالي خمس سنوات ، قبل أن أتعلم البزّل». ملأ القرن الأول وناوله لأبيه . ثم صبّ للأخرين . أخرج أوكونكوه قرنه الكبير من كيس جلد الماعز ، ونفخ فيه ليزيّل أي غبار قد يكون هناك ، وناوله لأبيه كي يملأه .

فيما كان الرجال يشربون ، تحدثوا حول كل شيء ما عدا الأمر الذي اجتمعوا من أجله . بعدهما فرغ الرزق فقط ، سلك أبو الشاب حلقة وأعلن الغرض من زيارتهم .

عندئذ ، قدم له أوبيريكا حزمة صغيرة من عصي المكابس . فعدّها
أوكيجيو .

سأّل : «إنها ثلاثة؟»

أو ماً أو بير يكا برأسه موافقاً .

قال أوكيجبو : «أخيراً توصلنا إلى نتيجة» ، ثم التفت إلى أخيه وابنه وقال : «لنخرج كي نتهامس سوية» . نهض الثلاثة ومضوا إلى الخارج . حين رجعوا ، أعاد أوكيجبو حزمة العصي إلى أوبيريكا . فعدّها ، وبدلًا من الثلاثين ، كانت هناك خمس عشرة . ناولها إلى أخيه الأكبر ماتشي ، الذي عدّها بدوره وقال : «لم نفكّر بأقل من ثلاثين . لكن ، كما قال الكلب : «إذا تنازلت لك وتنازلت لي ، فهذا اللعب» . والزواج يجب أن يكون لعباً

وليس عراكاً . لذا فإننا نتنازل ثانية » . ثم أضاف عشر عصي إلى الخمس عشرة وأعطى الحزمة إلى أوكيجبو .

وبهذه الوسيلة ، تحدد مهر أكويكي أخيراً بعشرين كيس من الوداع . وكان الغسق قد هل حين توصل الفريقان إلى هذا الاتفاق .

قال أوبيريكا لابنه مادوكا : «إذهب وابخر أم أكويكي بأننا انتهينا» . على الفور تقريراً ، دخلت المرأة تحمل طاسة كبيرة من الفو - فو . تبعتها زوجة أوبيريكا الثانية حاملة وعاء من الحساء ، وأحضر مادوكا زقاً من نبيذ التخيل .

فيما راح الرجال يأكلون ويشربون ، تحدثوا عن عادات جيرانهم .

قال أوبيريكا : «في هذا الصباح بالذات ، كنت أنا وأكونكوه نتحدث عن آبامي وأينيتا ، حيث يتسلق حاملو الألقاب الشجر ويتحققون الفو - فو لزوجاتهم» .

ـ «إن جميع عاداتهم مقلوبة رأساً على عقب . وهم لا يحددون مهر العروس كما نفعل نحن ، بالعصي . إنهم يساومون ويماحكون كما لو أنهم يشترون عنزة أو بقرة في السوق» .

قال أخوه أوبيريكا الأكبر : «ذلك سيء جداً» . لكن ، ما هو حسن في مكان هو سيء في مكان آخر . ففي أمونسو لا يساومون على الإطلاق ، ولا حتى بعض المكانس . إن طالب يد الفتاة يستمر في إحضار أكياس الوداع إلى أن يطلب منه أهلها التوقف . هذه عادة سيئة لأنها تؤدي دائمًا إلى الخصم» .

قال أوكونكوا : «العالم واسع . وقد سمعت حتى أن أطفال الرجل ينسبون في بعض القبائل إلى الزوجة وعائلتها» .

قال ماتشي : «ذلك لا يمكن أن يكون . ويوسعك أيضاً أن تقول إن المرأة تستلقي فوق الرجل عندما ينجبان الأطفال» .

قال أوبيريكا : «إنها كقصة الرجال البيض الذين يشبهون ، كما يقال ، قطعة الطباشير هذه» . ورفع بيده قطعة الطباشير التي يحتفظ بها كل رجل في أوييـهـ كـيـ يـرـسـمـ الضـيـوـفـ بهاـ خطـوـطـاـ عـلـىـ الـأـرـضـ قبلـ أنـ يـأـكـلـواـ جـوـزـ الكـوـلاـ . «ويقال أيضاً أن ليس لهؤلاء الرجال البيض أصابع في أقدامهم» .

سؤال ماتشي : «ألم ترهم أبداً؟»

سؤال أوبيريكا : «هل رأيـهـمـ أـنـتـ؟»

قال ماتشي : «أحدـهـمـ يـمـرـ مـنـ هـنـاـ باـسـتـمـرـارـ . اـسـمـهـ أـمـادـيـ» .

ضحك أولئك الذين يعرفون أمادي . كان مجذوماً ، كان الاسم المهدّب للجذام هو : «الجلد الأبيض» .

٩ فصل

لأول مرة منذ ثلاث ليال نام أوكونكورو . استفاق مرة في متتصف الليل وعاد ذهنه إلى الأيام الثلاثة الماضية دون أن يحسّ بأنها تقلقه . بدأ يسائل نفسه لماذا أحس بالقلق أصلاً . كان إحساسه مثل رجل يتتسائل في ضوء النهار لماذا بدا له الحلم مخيفاً على هذا النحو في الليل . مد جسمه وحک فخذه حيث قرصته بعوضة وهو نائم . أزت بعوضة أخرى قرب أذنه اليمني . لطم أذنه وأمل أن يكون قتلها . لماذا يتوجه البعوض دائمًا نحو أذن الإنسان؟ حين كان طفلاً صغيراً روت له أمّه حكاية عن هذا . لكنها كانت سخيفة مثل جميع حكايات النساء . روت أن ذكر بعوض طلب من الأذن أن تتزوجه ، فاستلقت الأذن على قفاهما من شدة الضحك . وسألت الأذن : «كم ستعيش في اعتقادك؟ أنت منذ الآن هيكل عظمي». انصرف ذكر البعوض ذليلاً ، وظل في كل مرة يمرّ بالأذن يخبرها بأنه ما زال على قيد الحياة .

انقلب أوكونكورو على جنبه وعاد إلى النوم . في الصباح ، أيقظه طارق على بابه .

زمنجر : «منْ هنا؟» . عرف أنها لابد أن تكون إيكويفي . فإيكويفي

الوحيدة من بين زوجاته الثلاث التي تجرؤ على قرع بابه .

أُتى صوتها : «إيزينما تموت» ، وتجمعت في هاتين الكلمتين كل مأساة وأسى حياتها .

قفز أوكونكoo من سريره ، أزاح مزلاج بابه واندفع راكضاً نحو كوخ إيكويفي .

كانت إيزينما تتمدد مرتعدة على حصيرة إلى جانب نار قوية أبقتها أنها مشتعلة طوال الليل .

قال أوكونكoo : «إنها إيبا» ، وتناول سيف التقطيف ومسس إلى الغابة لجمع أوراق الشجر والأعشاب ولحاء الشجر المستخدمة في صنع دواء الإيبا .

ركعت إيكويفي إلى جانب الطفلة المريضة ، وراحت تتحسس بكفها ، بين حين وآخر ، جبينها المبلل المحترق .

كانت إيزينما طفلتها الوحيدة ومحور عالمها . فقد كانت في كثير من الأحيان هي التي تقرر أي طعام ينبغي أن تطبخ أنها . كانت أنها تقدم إليها أطعمة متربة كالبيض ، الذي يُسمح للأطفال بأكله نادراً ، لأن طعاماً كهذا يغريهم بالسرقة . وحدث مرة ، بينما كانت إيزينما تأكل بيضة ، أن دخل أوكونكoo قادماً من كوخه دون أن يتوقع قدمه . صدم صدمة عظيمة وأقسم أن يضرب إيكويفي إذا تجرأت وأعطت الطفلة بيضاً مرة أخرى . لكن من المستحيل رفض أي طلب لإيزينما . وبعد توبخ أبيها ، ازدادت شهية الطفلة للبيض . واستمتعت ، فوق كل شيء آخر ، بالسرية التي تأكل بها الآن البيض . فأنها تدخلها دائمًا إلى غرفة نومهما وتغلق الباب خلفها .

لاتدعوا إيزينما أمها نني ، ككل الأطفال . بل تدعوها باسمها المجرد ، إيكويفي ، مثلما يفعل أبوها والكبار الآخرون . فالعلاقة بينهم لم تكن مجرد علاقة بين أم و طفلتها . بل فيها شيء شبيه بالرفقة بين ندين ، زادتها متانة مؤامرات صغيرة مثل أكل البيض في غرفة النوم .

قاست إيكويفي كثيراً في حياتها . فقد أنجبت عشرةأطفال مات منهم تسعه في طفولتهم ، قبل سن الثالثة عادة . وبعد أن دفنت طفلأً تلو الآخر ، أخلى الحزن مكانه لليأس ثم للاستسلام القاتم . أصبح إنجاب الأطفال ، الذي لابد أن يشكل مجد المرأة المتوج بالنسبة لإيكويفي ، مجرد عذاب جسديّ خال من الرجاء . وأصبح الاحتفال بتسمية الطفل ، بعد سبعة أسابيع سوق من مولده ، مجرد طقس فارغ . وعبر يأسها المتعاظم عن نفسه في الأسماء التي أطلقتها على أطفالها . فكان أحدها صرخة مفعمة بالعاطفة ، أونوومبيكو - «أيها الموت ، أتوسل إليك» . لكن الموت لم يلقي بالأ . ومات أونوومبيكو في شهره الخامس عشر . وكان الطفل التالي فتاة ، أوزويمينا - «أرجو ألا يتكرر هذا» . ماتت في شهرها الحادي عشر ، ومات بعدها طفلان آخران . عندئذ ، غلب إيكويفي الاحساس بالتحدي ، ودعت طفلها التالي أونووما - «فليفعل الموت ما يشاء» . ومات الطفل .

في أعقاب موت طفل إيكويفي الثاني ، ذهب أوكونكوا إلى رجل طب ، كان في الوقت نفسه عرّاف وحي آفا ، ليستفسر عن الخلل . أخبره هذا الرجل بأن الطفل كان أوجبانجي ، أحد أولئك الأطفال الأشرار الذين يدخلون إلى أرحام أمهاthem بعد الموت كي يولدوا ثانية .

قال : «عندما تحمل زوجتك مرة أخرى ، لاتدعها تنام في كوخها .

دعها تذهب لتقييم مع أهلها . ف بهذه الطريقة ستتجنب معذبها الشرير و تكسر دائرة الولادة والموت الشريرة » .

فعلت إيكوفي ما طلب منها . فما إن حملت حتى ذهبت للعيش مع أمها العجوز في قرية أخرى . هناك ولد طفلها الثالث وخُتن في اليوم الثامن . لم تعد إلى مجتمع أكواخ أوكونكورو إلا قبل ثلاثة أيام من احتفال التسمية . و دعي الطفل أونوومبيكو .

لم يدفن أونوومبيكو حسب الأصول بعد وفاته . فقد ذهب أوكونكورو إلى رجل طب آخر اشتهر في عشيرته بمعرفته الواسعة بالأطفال الأوجانجيين . كان اسمه أو كاجبو أو يانوا . وكان شخصاً مهيباً جداً ، طويلاً ، ذات حياة مكتملة ورأس أصلع . له بشرة فاتحة اللون وعيان حمراء وان وناريتان وهو يصرّ دائماً بأسنانه أثناء استماعه إلى القادمين لاستشارته . سأله أوكونكورو ببعض أسئلة عن الطفل الميت . وعن كل الجيران والأقارب الذين قدموه إليهم للتعزية .

سأله : « في أي يوم من أيام السوق ولد؟ »

أجاب أوكونكورو : «أويي» .

- « ومات في هذا الصباح؟ »

قال أوكونكورو : «نعم» ، عندئذ فقط أدرك للمرة الأولى أن الطفل مات في نفس يوم السوق الذي ولد فيه . لاحظ الجيران والأقارب أيضاً التوافق ، فقالوا فيما بينهم إن هذا بالغ الدلالة .

سأله رجل الطب : « أين تنام مع زوجتك ، في أويي أم في كوخها؟ »

- «في كوخها» .

- «في المستقبل ، أدعها إلى أوبيرك» .

أمر رجل الطب بعدم إقامة الحداد على الطفل الميت . وأخرج سكيناً حادة من الكيس المصنوع من جلد الماعز المتدعلي من كتفه الأيسر وبدأ يُمثل بالطفل . ثم سحبه بعيداً ليدفنه في غابة الشر ، ممسكاً به من كاحله وجاراً إياه على الأرض خلفه . وبعد معاملة كهذه ، سيفكر الطفل مرتين قبل أن يعود ثانية ، إلّا إذا كان من العنيدين يعودون ، حاملين طابع التمثيل بهم - أصبعاً ناقصاً أو رima خطأً عامقاً في المكان الذي شطبه سكين رجل الطب .

عندما مات أونوومبيكو ، كانت إيكويفي قد أصبحت امرأة مفعمة بالمرارة . فامرأة زوجها الأولى أصبحت لديها ثلاثة أبناء ، جميعهم أقواء وأصحاء . وحين ولدت ابنتها الثالث ، ذبح أوكونكوا عنزة لها ، كما هي العادة . ولم يكن لدى إيكويفي سوى التمنيات الطيبة . لكن إحساسها بالمرارة تجاه تشيّها كان قد تمازج إلى حد أنها لم تعد قادرة على الابتهاج مع الآخرين على حظهم الحسن . هكذا ، وفي يوم احتفلت أم نووبي بميلاد ابنتها الثالثة بإقامة الولائم وعزف الموسيقى ، كانت إيكويفي الشخص الوحيد في الجمع السعيد التي راحت تنتقل من مكان إلى آخر وقد حطت سحابة على جيبيها . عزت ضرّتها تصرفها هذا إلى الخبر ، على جري عادة الضرائر . فمن أين لها أن تعرف أن مراة إيكويفي لم تكن تتدفق إلى الخارج ، باتجاه الآخرين ، بل إلى الداخل ، باتجاه روحها بالذات ، وأنها لا تلوم الآخرين على حسن طالعهم بل تلوم تشيّها الشير الذي حرمتها من هذا الطالع الحسن؟

أخيراً ، ولدت إيزينما ، مع أنها كانت عليلة ، إلا أنها بدت مصممة على أن تحيا . في البداية ، قبلتها إيكويفي ، كما قبلت الآخرين - بتسليم فاتر الهمة . لكن ، عندما عاشت عامها الرابع والخامس والسادس ، عاد الحب ثانية إلى أمها ، ومع الحب جاء القلق . فصممت على رعاية صحة طفلتها ، وكرست كل وجودها لها . وكوفئت بنوبات عرضية من الصحة فارت إيزينما أثناءها بالحبيبة كنبيذ التخييل الطازج . بدت إيزينما في مثل تلك الفترات أنها تجاوزت الخطر . لكنها كانت تنتكس فجأة . عرف الجميع أنها أوجبانجي . وهذه النوبات من المرض والصحة نموذجية بالنسبة لنوعها . لكنها عاشت طويلاً إلى حد أنها من المحتمل أن تكون قررت البقاء . فبعضهم يتعب حقاً من دورات الولادة والموت الشريرة ، أو يشفقون على أمهااتهم ، فيقولون . وقد آمنت إيكويفي في أعماقها أن إيزينما جاءت لتبقى . وأمنت بذلك لأن ذلك الإيمان وحده هو الذي أسفى على حياتها نوعاً من المعنى . وتعزز هذا الإيمان عندما استخرج رجل طب قبل سنة أو نحوها إيهي - أولاً إيزينما . عندئذ ، عرف الجميع أنها ستتحيا لأن رباطها بعالم الأوجبانجي انفصمت . واطمأن قلب إيكويفي . لكن قلقها على ابنتها كان عظيماً إلى درجة أنها لم تستطع التخلص كلياً من خوفها . مع أنها آمنت أن الإيهي - أولاً الذي استخرج من باطن الأرض كان حقيقياً ، فإنها لم تستطع تجاهل حقيقة أن بعض الأطفال الشريرين فعلاً يضللون الناس و يجعلونهم يستخرجون إيهي - أولاً خادعاً .

لكن إيهي - أولاً إيزينما بدا حقيقياً تماماً . كان حصاة ناعمة ملفوفة في خرقه قذرة من القماش . كان الرجل الذي حفر عليه واستخرجه هو

أوكاجبو نفسه ، المشهور بين جميع أفراد العشيرة بمعرفته بهذه الأمور . لم ترد إيزينما التعاون معه في البداية . لكن هذا كان متوقعاً . فليس ثمة أوجبانجي يسلم أسراره بسهولة ، وأغلبهم لا يسلموها أبداً لأنهم ماتوا صغاراً جداً - قبل أن يصبح بالإمكان توجيهه أسئلة إليهم .

سألها : «أين دفت الإيبي - أوكاك؟ أنت تعرفين ما هو . لقد دفنته في الأرض في مكان لكي تموتي وتعودي لتعذبي أمك» .

طلعت إيزينما إلى أمها التي كانت عيناها الحزينة والمتوسلتان ثابتتين عليها .

هدر أوكونكوا : «أجبني على السؤال فوراً» ، كان يقف إلى جانبها . كما كانت العائلة كلها هناك بالإضافة إلى عدد من الجيران .

قال رجل الطب بصوت بارد واثق : «أتركها لي» . التفت إلى إيزينما . «أين دفت إيبي - أوكاك؟» .

أجابت : «حيث يدفنون الأطفال» ، وتمت المترجرون الصامتون لأنفسهم .

قال رجل الطب : «تعالي إذن ودليني على المكان» .

انطلق الجميع مع إيزينما وسار أوكاجبو خلفها مباشرة . وأتى بعده أوكونكوا ثم تبعتهم إيكويفي . حين وصلوا إلى الطريق الرئيسية ، استدارت إيزينما يساراً كأنها كانت تتجه إلى الجدول .

سأل رجل الطب : «لكنك قلت إنه مخبأً حيث يدفنون الأطفال؟»

قالت إيزينما التي ظهر إحساسها بالأهمية في مشيتها المفعمة بالحيوية

والنشاط : «لا». كانت تندفع أحياناً راكضة ثم تتوقف فجأة . تبعها الجموع صامتاً . وتساءلت النسوة والأطفال العائدون من الجدول ، وعلى رؤوسهم جرار الماء ، عما كان يحدث ، وعندما شاهدوا أو كاجبو ، استنتجوا أن الأمر لابد أن يكون متعلقاً بالأوجانجي . فكلهم يعرفون إيكويفي وابنتهها جيداً .

حين وصلت إيزينما إلى شجرة الأورالا الضخمة ، استدارت يساراً إلى داخل الأجمة ، وتبعها الجموع . ويسبب من حجمها الصغير ، شقت طريقها خلال الأشجار والنباتات المعرّفة بأسرع من السائرين وراءها . فامتلأت الغابة بوقع الخطى على أوراق الأشجار الجافة وصوت العصي وإزاحة الأغصان جانباً . توغلت إيزينما أكثر فأكثر وتوغل الحشد معها . ثم استدارت فجأة على أعقابها وبدأت تمشي عائدة نحو الطريق . توقف الجميع لسمحوا لها في المرور ثم اصطفوا خلفها وساروا وراءها .

قال أو كونكoo مهدداً : «إذا كنت تقوديننا جميعاً عبثاً فسوف أضربك ضرباً موجعاً حتى يعود عقلك إليك» .

قال أو كاجبو : «قلت لك دعها وشأنها . أنا أعرف كيف أتعامل معهن» .

قادتهم إيزينما عائدة بهم إلى الطريق ، وتلفتت يساراً ويميناً واستدارت إلى اليمين . هكذا عادوا إلى البيت ثانية .

سأل أو كاجبو عندما توقفت إيزينما في النهاية أمام أوبى أبيها : «أين دفت الإيبي - أو والك؟» كان صوته على حاله : هادئاً واثقاً .

قالت إيزينما : «إنه قرب شجرة البرتقال تلك» .

شتمها أوكونكوبحنق : «لماذا لم تقولي ذلك يا ابنة أكالوجولي الشريرة؟» . تجاهله رجل الطب .

قال بهدوء لإيزينما : «تعالي ودليني على الموقع تماماً» .

قالت عندما وصلوا إلى الشجرة : «إنه هنا» .

قال أوكاجبو : «أشيري إلى الموقع بأصبعك» .

قالت إيزينما وهي تمس الأرض بأصبعها : «إنه هنا» . ووقف أوكونكوبجانباً ، ممتعقاً كالرعد في الفصل الممطر .

قال أوكاجبو : «أحضروا لي مجرفة» .

حين أحضرت إيكويفي المجرفة ، كان قد نحى كيسه من جلد الماعز جانباً وخلع قطعة القماش الكبيرة وبيقي في ملابسه الداخلية ، شريط طويل رفيع من القماش ملفوف حول خصره ، كالحزام ، مارأّ بين فخذيه ومثبتاً في الحزام من الخلف . شرع فوراً بحفر حفرة حيث أشارت إيزينما . جلس الجiran حوله وهم يراقبون الحفرة تتعمق أكثر فأكثر . حل محل التربة الداكنة العليا الشرى الأحمر اللامع الذي تفرك به النسوة الأرض وجدران الأكواخ . عمل أوكاجبو صامتاً دونما كلل ، والتمع ظهره تحت حبات العرق . ووقف أوكونكوب إلى جانب الحفرة . طلب من أوكاجبو أن يصعد ويرتاح بينما سيعمل هو . لكن أوكاجبو قال إنه لم يتعب بعد .

ذهبت إيكويفي إلى كونخها لتطبخ اليام . فقد أخرج زوجها مقداراً من اليام أكبر من المألف لأنه لابد من إطعام رجل الطب . وذهبت إيزينما معها لمعاونتها في تجهيز الخضار .

قالت : «هناك مقدار كبير جداً من الخضار» .

سألت إيكويفي : «الاترين أن القدر مليء باليم؟ أنت تعرفين كيف أن الأوراق تصغر بعد الطبخ» .

قالت إيزينما : «نعم ، لذلك السبب قتلت الأفعى السحلية أنها» .

قالت إيكويفي : «صحيح تماماً» .

قالت إيزينما : «أعطيت أنها سبع سلال من الخضار لتطبخها وفي النهاية بقيت ثلاثة . ولذلك قتلتها» .

— «تلك ليست نهاية الحكاية» .

قالت إيزينما : «أوهو . تذكري الآن . أحضرت سبع سلال أخرى وطبختها بنفسها . وبقيت هناك مرة أخرى ثلاثة سلال . فقتلت نفسها» .

في خارج الأوبى ، كان أو كاجبو وأوكونكoo يحفران الحفرة ليعثروا على المكان الذي دفنت فيه إيزينما إيبى - أوواها . جلس الجيран حولهما ، يتفرجون . عمقت الحفرة الآن إلى حد أنه لم يعودوا يرون الحقار . بل رأوا الشرى الأحمر الذي ألقاه خارجاً وهو يتکوم ويرتفع أكثر فأكثر . ووقف ابن أو كونكoo ، نووبي ، قرب حافة الحفرة لأنه أراد أن يستوعب كل ما يحدث .

حلّ أو كاجبو محلّ أو كونكoo في الحفرة مرة أخرى ، وراح يعمل ، كعادته ، بصمت . شرعت الجارات وزوجتها أو كونكoo يتباذلن الأحاديث . ثم فقد الأطفال اهتمامهم وبدأوا يلعبون .

فجأة ، وثب أو كاجبو إلى خارج الحفرة بخفة فهد .

قال أو كاجبو : «إنه قريب جداً الآن . فقد أحسست به» .

عم الجميع انفعال فوري ، ووثب الجالسون وقوفاً .

قال لأوكونكoo : «أدع زوجتك وطفلتاك» . لكن إيكويفي وإيزينما كانتا قد سمعتا الضجة . فركضتا خارجتين لتجلوان حقيقة الأمر .

عاد أو كاجبو إلى الحفرة التي أحاط بها الآن المتفرجون . بعد ملء بعض مجارف أخرى من الثرى ، صدم إيسبي - أولاً . رفعه بحرص بال مجرفة وألقى به إلى سطح الأرض . فرت بعض النسوة خوفاً عندما ألقى به على الأرض . لكنهن سرعان ما عدن ووقف الجميع يحذقون في الخرقة من مسافة معقولة . بربز أو كاجبو من الحفرة ، ودون أن يتغوه بكلمة أو حتى يتطلع إلى المشاهدين ، مضى إلى كيسه من جلد الماعز ، وأخرج ورقتين وبدأ يمضغهما . حينما ابتلعهما ، رفع الخرقة من الأرض بيده اليسرى وبدأ يحلّ عقدتها . عندئذ ، وقعت الحصاة الناعمة اللامعة . فالقططها .

سأل إيزينما : «هل هذه لك؟» .

أجابت : «نعم» . صرخت جميع النسوة بابتهاج لأن متاعب إيكويفي انتهت أخيراً .

حدث كل هذا قبل أكثر من سنة ، ولم تمرض إيزينما منذ ذلك الوقت . لكن ، ها هي ترتعد فجأة في الليل . فقرّبتها إيكويفي إلى موقع النار ، ومدّت حصيرتها على الأرض وأشعلت ناراً . لكن حالتها ساءت أكثر فأكثر . حين ركعت إلى جانبها ، تتحسس بكفها جبينها المبتل الملتهب ،

صلّت آلاف المرات . ومع أن امرأتي زوجها قالتا إنها مجرد إبها ، إلا أنها لم تسمعهما .

عاد أوكونكoo من الغابة حاملاً على كتفه الأيسر حزمة كبيرة من الأعشاب وأوراق الشجر والجذور واللحاء جمعها من الأشجار والشجيرات الطيبة . دخل إلى كوخ إيكويفي ، وأنزل حمله وجلس .

قال : «أحضر لي قدرأ ، واتركي الطفلة وحدها» .

ذهبت إيكويفي لتحضر القدر واختار أوكونكoo أفضل ما في حزمه ، وفقاً لمقاديرها المناسبة ، وقطعها قطعاً صغيرة . ثم وضعها في القدر وصبت عليها إيكويفي بعض الماء .

سألت عندما صبت في القدر نصف الماء تقريباً : «هل يكفي ذلك؟»
زار أوكونكoo فيها : «أكثر قليلاً . . . قلت قليلاً . هل أنت صماء؟»
وضعت القدر على النار وتناول أوكونكoo سيفه ليعود إلى أوبية .

قال وهو يذهب : «يجب أن تراقي القدر بعناية ، لا تركيه يغلي ويفور . إذا فار ، ستذهب قوته» . مضى إلى كوخه وبدأت إيكويفي تعنى بالقدر كمالاً أنه هو نفسه تقريباً طفل مريض . تنقل بصرها باستمرار بين إيزينما والقدر الغالي ثم عاد إلى إيزينما .

عاد أوكونكoo عندما أحس أن الدواء غلى كفاية . تفحصه وقال إنه جاهز .

قال : «أحضر لي مقعداً واطئاً لإيزينما وحصيرة سميكة» .
أنزل القدر عن النار ووضعه أمام المقعد . ثم أنهض إيزينما ووضعها

على المقعد ، منفرجة الساقين فوق القدر النافث بخاراً . وألقى الحصيرة فوقهما . جاهدت إيزينما لتفلت من البخار الخانق القوي ، لكنها ثبتت في مكانها . وبدأت تبكي .

عندما أزاحت الحصيرة عنها أخيراً كانت غارقة في العرق . مسحت إيكويفي جسدها بقطعة قماش ورقدت على حصيرة جافة وسرعان ما استغرقت في النوم .

١٠ فصل

بدأت جماهير غفيرة تجتمع في قرية إيلو حالما خفت حدة حرارة الشمس ولم تعد مؤلمة على الجسم . كانت معظم الاحتفالات الجماعية تجري في مثل ذلك الوقت من النهار ، فحتى عندما يذكر أن احتفالاً سيبدأ «بعد وجبة منتصف النهار» ، يعرف الجميع بأنه سيبدأ بعد ذلك بفترة طويلة ، عندما تخف حرارة الشمس .

كان واضحًا من طريقة وقوف وجلوس الحشد أن الاحتفال خاص بالرجال فقط . لكن كثيراً من النساء وجدت هناك ، فبدون من الأطراف كالغربيات . جلس حاملو الألقاب والشيوخ على مقاعدهم بانتظار أن تبدأ المحاكمات . وأمامهم صف من المقاعد لم يجلس عليها أحد . كانت هناك تسعه من هذه المقاعد . وقفت مجموعتان صغيرتان من الأشخاص على مسافة لائقة وراء المقاعد . واجهوا الشيوخ . كان في المجموعة الأولى ثلاثة رجال ، وفي الثانية ثلاثة رجال وامرأة . كانت المرأة هي مجبافو والرجال الثلاثة الذين برفقتها إخوانها . وفي المجموعة الأخرى زوجها ، أوزورولو ، وأقاربه . كانت مجبافو وإخوانها جامدين كتماثيل حسب الفنان في وجوههم تحدياً . بينما راح أوزورولو وأقاربه ، بالمقابل ،

يتهمسون فيما بينهم . بدوا كأنهم يهمسون ، لكنهم في الحقيقة كانوا يتحدثون بأعلى أصواتهم . كان كل مَنْ في الحشد يتحدث . وكان المشهد أشبه بسوق . بدا صوت الضجة من بعيد أشبه بهدير تحمله الريح .

دوّي صوت جرس قرصيّ حديديّ مطلقاً موجة من الترقب بين الحشد . تطلع الجميع باتجاه بيت الإيجووجوو . جوم ، جوم ، جوم ، جوم ، انطلق الجرس القرصي ، وصدرت عن ناي قوي نفخة عالية الطبقة . ثم أتت أصوات الإيجووجو حلقية ورهيبة . لطمت الموجة النساء والأطفال وحدث هروب فزع إلى الخلف . لكن هروبهم كان مؤقتاً . فقد كانوا واقفين على مسافة كافية بحيث يمكنهم أن يهربوا لو تقدم أي من الإيجووجوو نحوهم .

دوّي الطبل مرة أخرى وعزف الناي . أصبح بيت الإيجووجوو الآن جحيم أصوات مرتعشة : آرو أوبيم دي دي دي ! ملأت الجو ، بينما راحت أرواح الأجداد ، التي انبثقت من الأرض لتتوها ، تحيي بعضها البعض بلغتها الغامضة . كان بيت إيجووجو الذي ظهرت منه الأرواح مواجهاً للغابة ، بعيداً عن الحشد الذي رأى فقط واجهة البيت الخلفية مزينة بأشكال ورسومات رسمتها نساء اخترن خصيصاً لهذه الغاية على فترات منتظمة . لم تر هذه النسوة داخل الكوخ أبداً . كما لم تره أية امرأة أخرى مطلقاً . فقد فرken الجدران الخارجية وطلينها تحت إشراف الرجال . وإذا كن تخيلن ما في داخل البيت ، فانهن احتفظن بخيالاً ثئن لأنفسهن . فلا تطرح أية امرأة مطلقاً أية أسئلة حول أقوى عبادة وأكثرها سرية في العشيرة .

آرو أوبيم دي دي دي ! تطايرت الأصوات حول الكوخ المقفل المظلم مثل السنة نار . كانت أرواح أجداد العشيرة قد خرجت . دق جرس الحديد القرصي الآن بصورة متواصلة وطفا صوت الناي ، ثابتًا وقوياً ، فوق الفوضى .

ثم ظهر الإيجووجوو . فأطلقت النساء والأطفال صرخة مدوية وفرن . كان هذا تصرفًا غريزياً . فآية امرأة تفر دائمًا فور ظهور الإيجووجوو للعيان . وحين ظهرت ، في ذلك اليوم ، تسع من أرواح العشيرة المقمعة كان ذلك مشهداً مرعباً . حتى مجبافو فرّت هاربة واضطرب إخوانها إلى إيقافها .

كان كل واحد من الإيجووجوو يمثل قرية من قرى العشيرة . وكان قائدها يدعى غابة الشر . وقد تصاعد الدخان خارجاً من رأسه .

انحدرت قرى أومووفيا التسع من تسعه أبناء لأب العشيرة الأول . كان غابة الشر يمثل قرية أوميرو ، أو أطفال إيرو ، الذي كان أكبر الأبناء التسعه .

صرخ زعيم الإيجووجوو ، وهو يدفع الهواء بذراعيه الملفوفتين بليف نخيل الرافيا : «أومووفيا كويينو !» فأجاب شيخ العشيرة : «ياو !

— «أومووفيا كويينو !»

— «يا !»

— «أومووفيا كويينو !»

— «يا !»

غز غابة الشر طرف عصاه المدببة المخسخة في الأرض . فبدأت

العصا تهتز وتخشش ، مثل شيء يجيش بحياة معدنية . ثم جلس غابة الشر على أول المقاعد الخالية وبدأ الإيجووجو الآخرون يجلسون بعده حسب أقدمية كل واحد منهم .

لاحظت زوجات أوكونكوا ، ولعل نساء آخريات لاحظن أيضاً ، أن للإيجووجو الثاني نفس مشية أوكونكوا الخفيفة النشطة . من المحتمل أيضاً أنهن لاحظن أن أوكونكوا لم يكن بين حاملي الألقاب والشيوخ الجالسين خلف صف الإيجووجو . لكن ، إذا كان قد فكرن بهذه الأمور ، فإنهن احتفظن بأفكارهن لأنفسهن . فالإيجووجو ذو المشية الخفيفة النشطة كان أحد آباء العشيرة الميتين . وقد بدا مخيفاً بجسده الملفوف بليف الرافيا المسود بالدخان ، ووجهه الخشبي الضخم المدهون باللون الأبيض ما عدا عينيه المستديرتين المعوجفتين وأسنانه المتفرحمة التي كانت كبيرة بحجم أصابع يد رجل . ويرز من رأسه قرنان قويان .

حين جلس جميع الإيجووجو على مقاعدهم وهدأت أصوات الأجراس والجلالجل الكثيرة المعلقة على أجسامهم ، خاطب غابة الشر المجموعتين المواجهتين له .

قال : «يا جسم أوزوولو ، أنا أحبيك» . فالأرواح كانت تخاطب الأحياء دائمًا «كأجسام» . انحنى أوزوولو ولمس الأرض بيده اليمنى علامة على الخصوص .

قال : «يا أبانا ، يدي لمست الأرض» .

سأل : «يا جسم أوزوولو ، هل تعرفي؟»

- «كيف لي أن أعرفك يا أبانا؟ أنتَ خارج نطاق معرفتنا» .

ثم التفتَ غابة الشَّر إلى المجموعة الأخرى وخاطب أكبر الأخوة الثلاثة سناً.

قال : «يا جسم أودوكوي ، أنا أحبيك» ، وانحنى أودوكوي ولمس الأرض . وبدأت المرافة .

خطا أوزوولو إلى الأمام . وعرض قضيته .

- «هذه المرأة الواقفة هناك هي زوجتي ، مجبافو . تزوجتها بنقودي ويامي . وأنا لست مدیناً لأصهاري بأي شيء . لست مدیناً لهم بياام . لست مدیناً لهم بكونوكو-يام . ذات صباح أتى ثلاثة منهم إلى بيتي ، وضربيوني وأخذوا زوجتي وأطفالي وأبعدوهم عنِّي . حدث هذا في الموسم الممطر . انتظرت عبشاً عودة زوجتي إلىّي . وأخيراً ، ذهبت إلى بيت أصهاري وقلت لهم : «لقد استعدتم شقيقتكم . وأنالم أرسلها إليكم . أنتم أنفسكم أخذتموها . قانون العشيرة يلزمكم برد مهرها» . لكن أخوة زوجتي قالوا إنه ليس لديهم ما يقولونه لي . لهذا رفعت الأمر إلى آباء العشيرة . انتهت قضيتي . أنا أحبيكم» .

قال زعيم إيجووجوو : «كلماتك حسنة . لنسمع أودوكوي . قد تكون كلماته أيضاً حسنة» .

كان أودوكوي قصيراً وغليظ البنية . خطأ إلى الأمام وحيا الأرواح ويدأ قصته .

- «صهري أخبركم بأننا ذهينا إلى بيته ، وضربيناه وأخذنا أختنا وأطفالها وأبعدناهم عنه . كل ذلك صحيح . وأخبرك بأنه جاء ليسترد مهره ورفضنا إعادته إليه . ذلك صحيح أيضاً . صهرنا ، أوزوولو ، وحش . عاشت معه

أختنا تسع سنوات . وخلال هذه السنوات لم يمر يوم واحد في السماء دون أن يضرب المرأة . حاولنا أن نسوي الخلافات بينهما مرات عديدة لا يحصى عددها ، وفي كل المناسبات كان أوزوولو مذنباً .

صاحب أوزوولو : «هذا كذب !

تابع أودوكوي : «قبل ستين ، حينما كانت حاملاً ، ضربها حتى أجهضت » .

ـ «هذا كذب . لقد أجهضت بعد أن ذهبت لتنام مع عشيقها» .

قال غابة الشر وهو يسكته : «يا جسم أوزوولو ، أنا أحبيك . أي عاشق ينام مع امرأة حبلى؟» علت هممة الاستحسان من الجمهور . تابع أودوكوي : «في السنة الماضية ، حين كانت أختي تتعافي من مرض ألم بها ، ضربها مرة أخرى ضرباً مبرحاً جداً إلى درجة أنه لولا دخول الجيران عليهم وإنقاذهم لها لكان قتلها . سمعنا هذا ، وفعلنا ما أخبرتكم به . إن قانون أومورو في يقضي بأنه إذا هربت امرأة من زوجها فإنه يجب أن يعاد مهرها إليه . لكن المرأة في هذه القضية هربت لتنفذ حياتها . إن طفلتها ينتهي إلى أوزوولو . ونحن لانتعرض على هذا ، لكنهما أصغر من أن يترکا أحهما . بالمقابل ، إذا شفي أوزوولو من جنونه وجاء حسب الأصول ليرجو زوجته أن تعود إليه ، فستعود إليه على شرط أنه إذا ضربها مرة أخرى فستقطع أعضاءه التناسلية» .

ضج الجمهور بالضحك . هبّ غابة الشرّ واقفاً على قدميه فعاد النظام على الفور . ارتفعت سحابة متواصلة من الدخان من رأسه . ثم جلس ثانية واستدعي شاهدين . كان كلاهما من جيران أوزوولو فأقرّ كلاهما موضوع

الضرب . عندئذ ، نهض غابة الشر ، وسحب عصاه وأعاد غرسها في الأرض ثانية . ركض عدة خطوات باتجاه النساء ، فهربن كلهن مذعورات ليعدن على الفور تقريرياً إلى أماكنهن . ذهب الإيجووجوو التسعة إلى بيوتهم للتداول وساد الصمت فترة طويلة . ثم دوى القرص المعدني وعُزف الناي . برز الإيجووجوو مرة أخرى من بيتهما الواقع تحت الأرض تبادلوا التحيات وعادوا إلى الظهور في الإيلو .

زار غابة الشر ، وهو يواجه الشيوخ ووجهاء القبيلة : «أوموفيا كوينو !» أجاب الجمهور بصوت كهدير الرعد : «يا !» ثم هبط الصمت من السماء وابتلع الضجيج .

بدأ غابة الشر يتكلّم ، لبث الجميع صامتين طوال الوقت الذي تكلّم فيه . جلس الإيجووجوو الشمانية الآخرون ساكنين كالتمايل .

قال غابة الشر : «استمعنا إلى الطرفين في القضية . واجبنا ليس أن نلوم هذا الرجل أو نمدح ذلك ، بل أن نسوي النزاع» . استدار إلى فريق أوزوولو وقف قليلاً عن الكلام .

«يا جسم أوزوولو ، هل تعرفني ؟»

أجاب أوزوولو : «من أين لي أن أعرفك يا أبي ؟ أنتَ خارج نطاق معرفتنا» .

«أنا غابة الشر . أنا أقتل الشخص يوم تصبح حياته أحلى ما تكون بالنسبة إليه» .

أجاب أوزوولو : «هذا صحيح» .

- «إذهب إلى أصهارك مع زق نبيذ وارجُ زوجتك أن تعود إليك . ليس من الشجاعة أن يقاتل رجل امرأة» . التفت إلى أودوكوي ، وترك فترة من الوقت تمر .

ثم قال : «يا جسم أودوكوي ، أنا أحبيك» .

أجاب أودوكوي : «يدي على الأرض» .

- «هل تعرفني؟»

أجاب أودوكوي : «لأحد يستطيع أن يعرفك» .

- «أنا غابة الشر ، أنا لحم جاف يملا القم ، أنا نار مشتعلة بلا حزم حطب . إذا أحضر صهرك نبيذاً إليك ، دع أختك تذهب معه . أنا أحبيك» .

سحب عصاه من التراب الصلب وغرسها ثانية .

زار ، فأجاب الجمهور : «أومووفيا كوبينو !

قال شيخ إلى الآخر : «لأعرف لماذا تعرض مسألة تافهة كهذه أمام الإيجوجوو» .

أجاب الآخر : «أنت لا تعرف أي نمط من الرجال هو أوزوولو؟ إنه لن يستمع إلى أي قرار آخر» .

بينما كانا يتبدلان الحديث ، مثل أمام الإيجوجوو فريقان آخران من الأشخاص حلاً محل الفريقين الأولين ، وبدأت قضية حول أرض كبيرة .

١١ فصل

كان الليل حالك السواد . وقد ظل القمر يتأخر في البزوغ ليلة إثر ليلة إلى أن أصبح الآن يُرى قرابة الفجر فقط . وكلما هجر القمر المساء وزرخ مع صياغ الديك ، كلما أصبحت الليالي سوداء كفحم نباتي .

جلست إيزينما وأمها فوق حصيرة على الأرض بعد وجبة العشاء المشكّلة من الفو-فو يام وحساء ورق الشجر المر . شعّ مصباح زيت التحيل بضوء مائل إلى الصفرة . بدونه ، كان من المستحيل تناول الطعام ، وكما عَرَفَ الإنسان أين يقع فمه في عتمة ذلك الليل . كان هناك مصباح زيت التحيل في كل الأكواخ الأربع في مجمع أوكونكovo ، وبدا كل كوخ من الأكواخ الأخرى مثل عين ذابلة من ضوء أصفر خافت في كتلة الليل الصماء .

كان العالم صامتاً ما عدا زعيق الحشرات الحادّ ، الذي كان جزءاً من الليل ، وصوت الهاون الخشبيّ والمدقة بينما كانت نواییکی تسحق الفو-فو . كانت نواییکی تقيم على بعد أربعة مجتمعات ، وقد اشتهرت بتأخرها في طبخ الطعام . عرفت كل امرأة في الجوار صوت هاون ومدقة نواییکی . وكان صوته جزءاً من الليل أيضاً .

كان أوكونكoo قد أكل من أطباق زوجاته واتكاً الآن على الجدار مستنداً بظهره إليه . بحث في كيسه وأخرج منه قنية السعوط . قلبها فوق كف يده اليسرى ، لكن شيئاً لم يخرج منها . فضرب القنية على ركبته ليهتزّ التبغ . تلك هي المشكلة دائمًا مع سعوط أوكيكي . إنه يصبح رطباً بسرعة شديدة ، وفيه كثير من الملح الصخري . لم يشترا أوكونكoo منه سعوطاً منذ فترة طويلة ، فإيديجو هو الرجل الذي يعرف كيف يسحن سعوطاً سحناً جيداً . لكنه وقع مؤخراً فريسة المرض .

تناهت إلى سمع أوكونكoo أصوات خافتة ، يقطعها الغناء بين حين وآخر ، صادرة عن أكواخ زوجاته وهن يتبادلن مع أطفالهن رواية الحكايات الشعبية . جلست إيكويفي وابتتها إيزينما على حصيرة على الأرض . وجاء دور إيكويفي لتروي حكاية .

بدأت : كان يا ما كان أن دعي جميع الطيور إلى وليمة في السماء . سعدت جميعها سعادة عظيمة ، وراحت تعدّ نفسها للليوم العظيم . فصبت أجسامها بخشب الكام الأحمر ورسمت أشكالاً جميلة عليها بالأولي .

رأى ذكر سلحافة جميع هذه الاستعدادات وسرعان ما اكتشف كل ما عنته . فلا يغيب عن ملاحظته أي شيء يحدث في عالم الحيوان ، فهو مفعم بالتفكير . وما إن سمع بالوليمة الكبيرة في السماء حتى بدأ ريقه يتحلّب لمجرد التفكير فيها . كانت هناك مجاعة في تلك الأيام ، ولم يكن ذكر السلحافة قد أكل وجبة جيدة منذ قمرتين . طقطق جسمه مثل قطعة خشب جافة في درعه الأجوف فبدأ يخطط كيف سيذهب إلى السماء .

قالت إيزينما : «لكن ليس له أجنحة» .

أجبت أمها : «أصبرني . تلك هي القصة . ليس لذكر السلحفاة أجنحة ، لكنه ذهب إلى الطيور وطلب منها أن تسمح له بالذهاب معها .

قالت الطيور حين سمعته : «نحن نعرفك جيداً . أنت ماكر جداً وناكر للجميل . وإذا سمحنا لك بالذهاب معنا فستبدأ بارتکاب الشرور» .

قال ذكر السلحفاة : «أنتم لا تعرفونني . أنا تغيرت . فقد تعلمت أن الرجل الذي يسبب متاعب للآخرين يسبب متاعب لنفسه» .

كان لذكر السلحفاة لسان حلو ، وسرعان ما وافقت جميع الطيور على أنه أصبح رجلاً متغّيراً ، فأعطاه كل طائر ريشة ، فصنع لنفسه منها جناحين .

أخيراً ، حلّ اليوم العظيم ، وكان ذكر السلحفاة أول من وصل إلى مكان التجمع ، وحين اجتمعت جميع الطيور هناك ، انطلقت سوية في سرب واحد . كان ذكر السلحفاة سعيداً جداً ذلق اللسان وهو يطير بين الطيور ، وسرعان ما اختير ليتكلم باسمها لأنّه كان خطيباً مفوهاً .

قال والطيور تطير في طريقها إلى الوليمة : «هناك أمر مهم واحد يجب لأنّنساه . حين يدعى الناس إلى وليمة عظيمة كهذه ، يتبنون أسماء جديدة لهذه المناسبة . وسيتوقع مضيفونا في السماء أن نحترم هذه العادة القديمة جداً» .

لم يكن أحد من الطيور قد سمع بهذه العادة ، لكن الطيور كانت تعرف أن ذكر السلحفاة مخلوق كثير الأسفار ويعرف عادات شعوب مختلفة ، على الرغم من نعائصه في اتجاهات أخرى . وهكذا اختار كل منها اسماً .

وحين اختاروا كلهم أسماء جديدة ، اختار ذكر السلفةة اسماً أيضاً . كان لابد أن يُدعى : كُلُّكُمْ .

أخيراً ، وصل السرب إلى السماء ، وكان مضيفوهم سعداء جداً لرؤيتهم . نهض ذكر السلفةة بريشه متعدد الألوان وشكرهم على دعوتهم . كان خطابه بلغياً جداً إلى حد أن كل الطيور أحسست بالسعادة لأنها أحضرته معها ، وأومنات برؤوسها موافقة على كل ما قاله . فاعتبره مضيفوهم ملك الطيور ، خاصة وأنه بدا مختلفاً نوعاً ما عن الآخرين .

بعد تقديم جوز الكولا وأكله ، بسط قوم السماء أمام ضيوفهم أشهى أطباق رآها ذكر السلفةة في حياته أو حلم بها . فجلب الحسأة ساخناً عن النار في نفس القدر الذي طبخ فيه . وكان مليئاً باللحم والسمك . بدأ ذكر السلفةة يتسمم بصوت مسموع . كان هناك يام مسحوق وحساء يام مطبوخ بزيت النخيل مع سمك طازج . كان هناك أيضاً زقاق من نبيذ نخيل . وبعدما بسط كل شيء أمام الضيوف ، تقدم شخص من قوم السماء وتذوق قليلاً من كل قدر . ثم دعا الطيور إلى الأكل . لكن ذكر السلفةة هبّ واقفاً على قدميه وسأل : «لمن أعددتم هذه الوليمة؟»

أجاب الرجل : «لِ كُلُّكُمْ» .

التفت ذكر السلفةة إلى الطيور وقال : «أنتم تذكرون أن اسمي هو : كُلُّكُمْ . والعادة هنا أن يقدم الطعام للناطق بلسان الضيوف أولاً ، وللآخرين بعد ذلك . سيقدم الطعام لكم بعد انتهاءي من الأكل» .

بدأ يأكل والطيور تهمهم بغضب . اعتقاد قوم السماء أن عاداتهم تقضي بأن تترك الطيور جميع الطعام لملكها . هكذا أكل ذكر السلفةة أفضل

الطعام ثم شرب زقين من نبيذ التخيل ، فامتلأً بالطعام والشراب وانتفخ جسمه في داخل درعه .

تجمّعت الطيور لتأكل ما بقي وتنقر العظام التي ألقاها حوله على الأرض . كان بعضها غاضباً إلى درجة أنه عاف الأكل . وفضل أن يطير عائداً إلى بلده بمعدة خاوية . لكن ، وقبل أن يرحلوا ، استرد كل طائر من ذكر السلحافة الريشة التي أعاره إياها . هكذا بقي ذكر السلحافة في درعه الصلب ممتلئاً بالطعام والشراب لكن دون أية أجنحة يطير بها إلى البيت . طلب من الطيور أن تنقل رسالة لزوجته ، إلا أن الجميع رفض ذلك . بيد أن الببغاء ، الذي أحسّ بالغضب أكثر من الآخرين ، غير رأيه ووافق على نقل الرسالة .

قال ذكر السلحافة : «أخبر زوجتي أن تخرج كل الأشياء اللينة في منزلي وتغطي بها ساحات البيت حتى أقفز إليها من السماء دون أن أتعرض لخطر شديد» .

وعده الببغاء بنقل الرسالة ، ثم طار راحلاً . إلا أنه أخبر زوجة ذكر السلحافة ، حينما وصل إلى بيته ، أن تخرج جميع الأشياء الصلبة في البيت . هكذا أخرجت الزوجة مجارف زوجها وسماكيه ورماده وبنادقه وحتى مدفعته . تطلع ذكر السلحافة من السماء إلى الأسفل ورأى زوجته تخرج أشياء ، لكنها كانت بعيدة جداً إلى حد أنه لم يميز ما أخرجته . وحين بدا كل شيء جاهزاً ، ترك نفسه ينطلق . هوى وهوى إلى أن بدأ يخشى أنه لن يكفّ عن السقوط أبداً . ثم بصوت مثل قصف مدفعته ، ارتطم بمجتمع سكنه» .

سألت إيزينما : «هل مات؟»

أجبت إيكويفي : «لا ، تكسر درعه إلى قطع صغيرة . لكن رجل طب عظيمًا كان يعيش في الجوار . فأرسلت زوجته في طلبه ، فجمع هذا كل القطع الصغيرة وألصقها ببعضها . لذلك السبب نرى درع السلحفاة غير أملس» .

قالت إيزينما : «لاتوجد أغنية في الحكاية» .

قالت إيكويفي : «لا . سأفكر في حكاية أخرى فيها أغنية . لكن الدور عليك الآن» .

بدأت إيزينما : «كان يا ما كان أن السلحفاة والقط ذهبا ليتصارعا معاليام - لا ، هذه ليست البداية . كان يا ما كان أن كانت هناك مجاعة كبيرة في بلد الحيوانات . كانت أجسام الجميع هزيلة ما عدا القط ، الذي كان سميناً وجسمه يلتمع كأنه كان قد دُلّك . . .»

توقفت عن الحديث ، ففي تلك اللحظة بالذات حطم صوت مرتفع عالي الطبقة صمت الليل الخارجي . كانت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، تتنبأ . لم يكن هناك جديد في الأمر . فبين فترة وأخرى كانت روح إله تشيلو تتمقصها فتببدأ بالتنبؤ . لكن نبءاتها وتحياتها كانت موجهة هذه الليلة إلى أكونكwoo ، لذا أصغى جميع أفراد العائلة إليها . وتوقفت الحكايات الشعبية .

أتى الصوت كسكين حادة تقطع الليل : «أجبالا دو - و - و - و ! أجبالا إيكينيو - و - و - و - . أوكونكwoo ! أجبالا إيكيني جيو - و - و - و ! أجبالا شولو إيفو آدا يا إيزينما - و - و - و !»

عند ذكر اسم إيزينما ، انتفض رأس إيكويفي بعنف مثل حيوان اشتم رائحة الموت في الهواء . قفز قلبه متوجعاً في داخلها .

في هذه الأثناء ، وصلت الكاهنة إلى منزل أوكونكoo وبدأت تتحدث معه خارج كوخه . ظلت تكرر المرة تلو المرة أن أجبالا ي يريد رؤية ابنته إيزينما . ورجاها أوكونكoo وأن تعود في الصباح لأن إيزينما كانت نائمة الآن . لكن تشيلو تجاهلت كل ما كان يحاول قوله وواصلت الصراخ بأن أجبالا ي يريد رؤية ابنته . كان صوتها واضحأ كالمعدن ، فسمعت نساء وأطفال أوكونكoo في أكواخهن كل ما قالته . كان أوكونكoo لا يزال يتسلل إليها قائلاً إن الفتاة ظلت مريضة منذ فترة وأنها نائمة . فدخلتها إيكويفي بسرعة إلى غرفة نومهما ووضعتها على سريرهما المرتفع المصنوع من الخيزران .

صرخت الكاهنة فجأة . حذرته : «إحذر يا أوكونكoo ! إحذر من تبادل الكلام مع أجبالا . هل يتكلم الإنسان حين يتكلم الإله؟ إحذر !» اجتازت كوخ أوكونكoo وذهبت مباشرة إلى كوخ إيكويفي . لحق بها أوكونكoo .

نادت : «إيكويفي ، أجبالا يحييك . أين ابتي إيزينما؟ أجبالا ي يريد أن يراها» .

خرجت إيكويفي من كوخها حاملة مصباح زيت النخيل بيدها اليسرى . كانت ريح خفيفة تهب ، لذلك كورت يدها اليمنى لتحمي اللهب . ظهرت أم نووبي من كوخها ، حاملة أيضاً مصباح زيت . وقف

الأطفال في العتمة خارج أكواخهم يرافقون الحدث العجيب . خرجت زوجة أوكونكوا الصغرى أيضاً وانضمت إلى الآخرين .

سألت إيكويفي : «أين يريد أجبالا رؤيتها؟»

أجبت الكاهنة : «في أي مكان آخر غير منزله في التلال والكهوف؟»

قالت إيكويفي بحزن : «سأذهب معكما أيضاً» .

لعت الكاهنة : «توفيا - آا !» ، وصوتها يفرقع كنباح الرعد الغاضب في الفصل الجاف . «كيف تجرؤين يا امرأة على الذهاب إلى أجبالا الجبار بمحضر إرادتك؟ إحدري يا امرأة لئلا يصعقك وهو غاضب . أحضرني لي ابتي» .

دخلت إيكويفي إلى كوخها وخرجت ثانية مع إيزينما .

قالت الكاهنة : «تعالى يا بنتي ، سأحملك على ظهري . فالطفل على ظهر أمه لا يعرف أن الطريق طويل» .

بدأت إيزينما تبكي . فقد اعتادت على أن تدعوها تشيلو «يا بنتي» . لكن مارأته الآن ، في الضوء الأصفر الخافت ، تشيلو مختلفة .

قالت الكاهنة : «لاتبكي يا بنتي ، وإلا غضب أجبالا منك» .

قالت إيكويفي : «لاتبكي ، ستعيدك إلى هنا بسرعة . وسأعطيك بعض السمك لكي تأكليه» . دخلت إلى الكوخ مرة أخرى وأنزلت السلة المسودة التي تحتفظ فيها بسمكها المجفف والمواد الأخرى المستخدمة في طبخ الحساء . قسمت قطعة إلى نصفين وأعطيتها إلى إيزينما التي التصقت بها .

قالت إيكويفي : «لاتخافي» ، وربت على رأسها المخلوق في عدة مواضع ليتخد الشعر المتبقى شكلًا منظماً . وخرجتا ثانية . ركعت الكاهنة على إحدى ركبتيها وتسألت إيزينما ظهرها ، وكفّها مطبقة على قطعة السمك وعيناها متألقتان بالدموع .

بدأت تشيلو تنشد التسابيح إلى إلهها من جديد : «أجبالا دو-و-و- و ! أجبالا إيكينيو-و-و-و .» واستدارت إلى الخلف بعنف ومررت عبر كوخ أوكونكoo ، حانية ظهرها بشدة عند الإفريز . كانت إيزينما تبكي بصوت عال الآن ، مناديه أمها . واختفت الصوتان في الظلام الدامس .

هبط وهن غريب مفاجيء على إيكويفي وهي تقف محدقة في اتجاه الصوتين مثل دجاجة إختطفت حداً كتكوتها الوحيد وحملته بعيداً . تلاشى صوت إيزينما بسرعة وترامى إليها فقط صوت تشيلو وهو يبتعد أكثر فأكثر في المدى .

سؤال أوكونكoo وهو يعود إلى كوخه : «لماذا تقفين هنا كأنها اختطفت؟»

قالت أم نوبي : «ستعيدها سريعاً» .

لكن إيكويفي لم تسمع هذه الموسعة . وقفت ساكنة برهة ، ثم فجأة ، حزمت أمرها . أسرعت مجتازة كوخ أوكونكoo وانطلقت إلى الخارج .

سؤال : «إلى أين أنت ذاهبة؟»

أجابت : «سألحق بتشيلو» ، واختفت في الظلام . سلك أوكونكoo حلقة ، وأخرج قنية السعوط من كيس جلد الماعز الموضوع إلى جانبه .

راح صوت الكاهنة يختفي تدريجياً في المدى . فسارعت إيكويفي إلى درب المشاة الرئيسي ، واستدارت يساراً باتجاه الصوت . كانت عيناهما عاجزتين في الظلام . لكنها شقت طريقها بسهولة فوق درب المشاة الرملي المحاط من الجانبين بالأغصان وأوراق الأشجار الرطبة . شرعت تعلو ، ممسكة ثدييها لمنعهما من الارتطام بجسمها بصوت ضاج . اصطدمت قدمها اليسرى بجذر بارز فوق سطح الأرض ، فتملكتها الرعب . كان هذا نذير شؤم . أسرعت أكثر في عدوها . لكن صوت تشيلو كان لا يزال بعيداً جداً . هل كانت تعلو هي أيضاً؟ كيف أمكنها أن تمضي بهذه السرعة وإيزيينما على ظهرها؟ مع أن الليل كان بارداً بطراوة ، إلا أن إيكويفي بدأت تحس بالحرارة من عدوها . اصطدمت باستمرار بالأعشاب وافرة النماء والنباتات المعرّشة التي سدت الطريق . تعثرت مرة ووّقعت على الأرض . عندها فقط أدركت ، مجفلة ، أن تشيلو كفت عن الإنشاد . خفق قلبها بعنف ووقفت ساكنة . ثم أتى جيشان تشيلو المتجدد من بضع خطوات أمامها فقط . لكن إيكويفي لم تتمكن من رؤيتها . أغمضت عينيها ببرهة ، وفتحتهما ثانية وهي تبذل جهداً لكي ترى . لكن هذا كان لامجدياً ، فلم تستطع أن ترى ما هو أبعد من أنفها .

لم يكن في السماء نجوم لوجود سحابة مطر فيها . كانت تحوم حولها اليراعات بمصابيحها الخضراء الضئيلة ، فتجعل الليل أشد حلقة . وبين تفجيرات تشيلو ، كان الليل يضج حياءً بارتعاش حشرات الغابة الثاقب المنسوج مع الظلمة .

— «أجيالاً دو-و-و! أجيالاً إيكينيو-و-و-و! .»

تشاقلت إيكويفي في السير خلفها دون أن تقترب منها أو تبتعد عنها .

فكرت أنهم ذاهبون بالتأكيد إلى الكهف المقدس . بعدهما راحت تمشي ببطء ، واتسع وقتها للتفكير . ماذا ستفعل عندما تصلان إلى الكهف ؟ لن تجرؤ على الدخول . ستنتظر عند المدخل ، وحيدةً تماماً في ذلك المكان المخيف . فكرت في جميع كائنات الليل المرعبة . وتذكرت تلك الليلة ، منذ زمن بعيد ، عندما شاهدت أوجبو-أجالي-أودو ، إحدى الكائنات الشريرة التي أطلقتها في هذا العالم «الأدوية» القوية التي صنعتها القبيلة في الماضي السحيق ضد أعدائها ، ونسألت الآن كيف تسيطر عليها . كانت إيكويفي عائدة من الجدول مع أمها في ليلة مظلمة كهذه حينما شاهدتا وهج الكائن وهو يطير باتجاههما . أقيمتا بجرتيمما إلى الأرض ، ورقدتا إلى جانب الطريق متوقعتين أن ينقض الضوء الشرير عليهم ويقتلهم . تلك كانت المرة الوحيدة التي رأت فيها إيكويفي أوجبو-أجالي-أودو . ومع أن هذا حدث قبل زمن طويل جداً ، إلا أن دمها ظل يجري بارداً فيعروقها كلما تذكرت تلك الليلة .

أتى صوت الكاهنة على فترات متباudeة الآن ، لكن عنفوانه لم يتناقض . كان الهواء بارداً ورطباً بالندى . عطست إيزينما . فتمتت إيكويفي : «الحياة لك» . في نفس الوقت قالت الكاهنة : «الحياة لك يا بنيني» . وبعث صوت إيزينما القادم من العتمة الدفء في قلب أمها . وسارط مثاقلة ببطء .

فجأة ، صرخت الكاهنة . قالت : «إن شخصاً يسير خلفي ! سواء كنتَ روحأ أم رجلاً ، فليحلق أجلاً رأسك بموسى مثلما ! وليلو رقتك إلى أن ترى عقبيك !»

تسمرت إيكويفي في مكانها . قال لها جزء من عقلها : «يا امرأة ،

إرجعي إلى البيت قبل أن يلحق بك أجبالاً الأذى» . لكنها لم تستطع ذلك . فوقفت ساكنة إلى أن زادت تشيلو المسافة بينهما وعاودت السير في إثريهما . كانت قد مشت فترة طويلة حتى أنها بدأت تحس بحدر خفيف في أطرافها ورأسها . ثم خطر ببالها أنهما لا يمكن أن تكونا قد اتجهتا نحو الكهف ، لا بد أنهما تجاوزتاه منذ وقت طويل ، لا بد أنهما اتجهتا نحو أومواتشي ، أبعد قرية من قرى العشيرة . وراح صوت تشيلو الآن يأتي على فترات متباudeة جداً .

خيل إلى إيكويفي أن الليل أصبح أخفّ حلكة . وانقشع السحاب وظهرت بعض نجوم . لابد أن القمر يستعد الآن للبزوغ . فقد انتهى حَرَنه . فحين يبزغ القمر متأخراً في الليل ، يقول الناس إنه يرفض الطعام ، مثلما يرفض الزوج الحرن طعام زوجته عندما يتشارjan .

ـ «أجبالاً دوـ وـ وـ وـ ! أومواتشي ! أجبالاً إيكيني أونوـ وـ وـ !

كان خط السير تماماً كما فكرت إيكويفي . فقد كانت الكاهنة تحسي الآن قرية أومواتشي . كانت المسافة التي قطعتها لا تصدق . حين ظهرت في القرية المكشوفة قادمتين من درب الغابة الضيق ، كان الظلام قد خفت حلكته وأصبح بالإمكان رؤية أشكال الأشجار الغامضة . زررت إيكويفي عينيها جاهدة أن ترى ابنتها والkahنة ، لكنها كلما ظنت أنها رأت شكليهما كلما ذابت على الفور ككتلة مصهورة في الظلام . وتابعت سيرها بحدr .

ظلّ صوت تشيلو يرتفع باستمرار الآن ، مثلما كان حين انطلقت في بدء سيرها . تملّك إيكويفي إحساس بفضاء رحب ، وخمنت أنهما لابد

وأن تكونا في إيلو القرية ، أو الملعب . أدركت أيضاً ، بما يشبه الرجة ، أن تشيلو لم تعد تقدم إلى الأمام . بل كانت تستدير عائدة في الحقيقة . ابتعدت إيكويفي بسرعة عن خط تراجعها . فمرت تشيلو بها ، وبدأنا تعودان على نفس الطريق التي جاءتا منها .

كانت رحلة طويلة ومنهكة القوى ، وأحسست إيكويفي نفسها كالسائر في نومه معظم الطريق . كان القمر بالتأكيد يزغب ، ومع أنه لم يظهر في السماء بعد ، إلا أن ضوءه كان قد أذاب العتمة . واستطاعت إيكويفي الآن أن تميّز الكاهنة وحملها ؛ فأبطأت في خطوها كي تزيد المسافة بينهما ؛ إذ خشيت مما قد يحدث لو استدارت تشيلو فجأة ورأتها .

دعت في صلاتها أن يطلع القمر . لكنها وجدت الآن ضوء القمر الطالع الشاحب أربع من الظلام . وأصبح العالم مأهولاً بأشكال غامضة خيالية انحلت تحت تحديقها الثابتة وتشكلت مرة أخرى متذكرة هيئات جديدة . في إحدى المراحل ، بلغ الذعر بها مبلغاً كاد يدفعها إلى مناداة تشيلو طلباً للرقفة والمشاركة الإنسانية . فقد رأت هيئة رجل يتسلق نخلة ، رأسه إلى الأرض ورجلاه إلى الأعلى . لكن ، في تلك اللحظة بالذات ، ارتفع صوت تشيلو من جيد منشدة ترانيها الممسوسة ، فأجفلت إيكويفي إذ لم يكن في صوتها مسحة من الإنسانية . لم تكن هذه هي نفس تشيلو التي تجلس معها في السوق وتبتاع أحياناً فطائر الفول لإيزينما التي تدعوها ابنتها . بل كانت امرأة مختلفة - كاهنة أجبالا ، وحي التلال والكهوف . وواصلت إيكويفي سيرها مجدهة بين خوفين . بدا وقع خطواتها الخدرة كما لو أنه صادر عن شخص آخر يمشي خلفها . وعُقد ذراعاهما فوق ثديها العاريين . وتساقط الندى بكثافة وأصبح الهواء بارداً . لم تعد تستطع أن

تفكر ، ولا حتى بأهوال الليل . بل مشت الهوينى شبه غافية ، وحواسها تستيقظ فقط عندما تنشد تشيلو .

أخيراً ، انعطفت تشيلو وبأذات المرأةان تتجهان نحو الكهوف . منذ تلك اللحظة ، لم تتوقف تشيلو مطلقاً عن إنشادها . وحيث إلهها بعدد وافر من الأسماء - مالك المستقبل ، رسول الأرض ، الإله الذي يهلك الشخص حين تصبح الحياة أعزب ما تكون بالنسبة إليه . استيقظت إيكويفي أيضاً وتجددت مخاوفها التي أصابها الخدر .

كان القمر الآن قد طلع واستطاعت أن ترى تشيلو وإيزينما بوضوح . إنها لمعجزة أن تحمل امرأة طفلة بذلك الحجم بهذه السهولة ولهذه الفترة الطويلة . لكن إيكويفي لم تكن تفكير في ذلك . إذ لم تكن تشيلو في تلك الليلة امرأة .

- «أجبالاً دو - و - و ! أجبالاً إيكينيو - و - و ! تشي نيجبو - مادو أوبوسى ندو باناتو يا أوتو داليو - و - و ! . . . »

رأت إيكويفي التلال تلوح لها في ضوء القمر . لقد شكلت حلقة دائرة مع كسرة في نقطة معينة يؤدي من خلالها درب المشاة إلى مركز الدائرة .

حالما خطت الكاهنة إلى داخل حلقة التلال هذه ، لم تتضاعف قوة صوتها فحسب ، بل ارتد في جميع الاتجاهات أيضاً . لقد كان المكان حقاً مقام إله عظيم . فاختارت إيكويفي طريقها بعناء وهدوء . بدأت تشك في حكمة قدوتها . خطر ببالها : لن يحدث شيء لإيزينما . فكّرت : لن يحدث شيء لها . لو حدث شيء لها ، فهل يمكنها منعه؟ إنها لن تجرؤ

على دخول الكهوف الواقعة تحت الأرض . فكّرت : قدمها لا جدوى منه إطلاقاً .

بينما كانت هذه الخواطر تجول في ذهنها ، لم تدرك كم باتتا قريبتين من فم الكهف . هكذا ، عندما اختفت الكاهنة وإيزينما على ظهرها عبر فتحة بالكاد تسع لمرور دجاجة ، اندفعت إيكويفي راكضة كما لو أنها تريد إيقافهما . وفيما هي تقف محدقة في الظلام الدائري الذي ابتلعهما ، تدفقت الدموع من عينيها ، وأقسمت بينها وبين نفسها بأنها إذا سمعت إيزينما تبكي فانها ستنطلق إلى داخل الكهف لتحميها من جميع الآلهة في العالم . ستموت معها .

بعد أن أقسمت ذلك القسم ، جلست على حافة مرتفع حجري وانتظرت . اختفى خوفها . سمعت صوت الكاهنة ، وقد تبدد منه الرنين المعدني في فراغ الكهف الواسع . دفنت وجهها في حضنها وانتظرت .

لم تدرك كم مر من الوقت مضى وهي تنتظر . لا بد أنه وقت طويل جداً . كان ظهرها متوجهاً نحو الدرج المفضي إلى خارج التلال . لا بد أنها سمعت صرخة خلفها ، فاستدارت بحدة . وقف رجل حاملاً سيف تحطيب في يده . فأطلقت إيكويفي صرخة وهبت واقفة على قدميها .

قال صوت أوكونكoo : «لا تكوني حمقاء» . وأضاف ساخراً : «ظننتُ أنك ستدخلين إلى المقام مع تشيلو» .

لم تجب إيكويفي . وملأت دموع عرفان بالجمل عينيها . عرفت أن ابنتها في أمان .

قال أوكونكoo : «إذهب إلى البيت ونامي ، سأنتظر هنا» .

- «سأنتظر أنا أيضاً . كاد الفجر يزغ . وقد صاح أول ديك» .

فيما هما يقفان هناك معاً ، عاد ذهن إيكويفي إلى أيام شبابهما . لقد تزوجت أيني لأن أوكونكwoo كان آنذاك أفقر من أن يتزوج . وبعد سنتين من زواجهما من أيني ، لم تعد تستطيع الاحتمال وفرت إلى أوكونكwoo . كان هذا في الصباح الباكر وكان القمر يلمع . كانت ذاهبة إلى الجدول لجلب ماء . وكان بيت أوكونكwoo ي الطريق إلى الجدول . دخلت وقرعت بابه ، فخرج هو . حتى في تلك الأيام ، لم يكن رجلاً كثیر الكلام . فحملها ببساطة إلى سريره وبدأ يتحسس خصرها بحثاً عن طرف قطعة قماشها الفالت .

١٢ فصل

في صباح اليوم التالي خيم على الجوار بأكمله جو احتفالي لأن صديق أوكونكوا ، أوبيريكا ، سيحتفل بأوري ابنته . فهو اليوم الذي يجلب فيه طالب يدها (بعد أن دفع الجزء الأعظم من مهرها) نبيذ التخيل ، لا لوالديها وأقربائها المباشرين فقط ، بل للمجموعة الواسعة والشاملة من الأقارب المدعوة أومونا أيضاً . ودعى الجميع - الرجال والنساء والأطفال . لكنه كان في الحقيقة احتفالاً نسائياً ، والشخصيات الرئيسية فيه هما العروس وأمها .

ما إنْ طلع النهار حتى التهم الجميع الفطور بسرعة وبدأت النساء والأطفال يتجمعون في مجمع أوبيريكا لمساعدة أم العروس في مهمتها الصعبة ، لكن السعيدة ، وهي الطبخ لقرية بكاملها .

كانت عائلة أوكونكوا تعيش بالحركة مثل أية عائلة أخرى في الجوار . واستعدت أم نووبي وزوجة أوكونكوا الصغرى للانطلاق إلى مجمع أوبيريكا مع جميع أطفالهما . حملت أم نووبي سلة كوكو- يام ، وفطيرة سمك مملح ومدخن لتقديمهما إلى زوجة أوبيريكا . كما حملت زوجة

أوكونكوا الصغرى أوجيوجو ، سلة موز و كوكو- يام و قدرأً صغيراً من زيت النخيل . حمل أطفالهما جرار ماء .

كانت إيكويفي متبعة و نعسانة من التجارب المضنية التي مرت بها في الليلة السابقة . لم يكن مضى وقت طويل جداً على عودتهما . فقد زحفت الكاهنة ، وإيزينما نائمة على ظهرها ، إلى خارج المقام على بطنهما كأفعى . بالكاد ألت نظرة على أوكونكوا وإيكويفي أو أظهرت دهشة لوجودهما على باب الكهف . بل شخصت ببصرها مباشرة أمامها ومشت عائدة إلى القرية . تبعها أوكونكوا وزوجته على مسافة لائقة . فقد اعتقلا أن الكاهنة قد تكون ذاهبة إلى بيتها ، لكنها مضت إلى مجمع أوكونكوا ، وتجاوزت أوبىي ودخلت كوخ إيكويفي ثم غرفة نومها . وضعت إيزينما بعناية على السرير وخرجت دون أن توجه كلمة إلى أحد .

كانت إيزينما لا تزال نائمة عندما كان كل الآخرين في حركة دائبة ، طلبت إيكويفي من أم نووبي وأوجيوجو أن تشرحا لزوجة أوبيريكا بأنها ستتأخر . كانت قد أعدت سلة الكوكو- يام والسمك ، لكنها لابد أن تنتظر إيزينما حتى تستيقظ .

قالت أم نووبي : «أنت أيضاً بحاجة إلى النوم . تبدين متبعة جداً» .

فيما كانتا تبادلان الحديث ، ظهرت إيزينما من الكوخ ، وهي تفرك عينيها وتمطرى بهيكلها النحيل . رأت الأطفال الآخرين يحملون جرار الماء ، فتذكرت أنهم سيدهبون لجلب الماء إلى زوجة أوبيريكا . فعادت إلى الكوخ وأحضرت جرتها .

سألت أمها : «هل نمت كفاية؟»

أجبت : «نعم . لنذهب» .

قالت إيكويفي : «ليس قبل أن تفطري» . ودخلت إلى كوخها لتسخن حساء الخضار الذي طبخته في الليلة الماضية .

قالت أم نووبي : «سنذهب . سأخبر زوجة أوبيرييكا بأنك ستأتين فيما بعد» . هكذا مضى الجميع لمساعدة زوجة أوبيرييكا - أم نووبي مع أطفالها الأربع وأجيوجو مع طفلتها .

فيما كانوا يمرون عبر كوخ أوكونكوا ، سأله : «منْ سعيدّ لي وجة بعد الظهر؟»

قالت أجيوجو : «سأعود أنا لأعدّها» .

كان أوكونكوا يحس بالتعب والنعاس أيضاً ، فهو لم يتم مطلقاً طوال الليلة الفائتة ، بالرغم من أن أحداً لم يعرف هذا . لقد شعر بالقلق الشديد ، لكنه لم يظهره . حين لحقت إيكويفي بالكاهانة ، سمح بمرور ما اعتبره فترة معقولة ورجولية ، ثم مضى ومعه سيف التحطيب إلى المقام ، حيث اعتقد أنهما لابد أن يكونوا موجودين . ولم يخطر بباله أن الكاهانة قد تكون اختارت القيام بجولة في القرى أولاً إلا عندما وصل إلى المقام . فعاد أوكونكوا إلى البيت وانتظر . وحين حسب أنه انتظر كفاية ، عاد مرة أخرى إلى المقام . لكن التلال والكهوف كانت صامتة كالموتى . في رحلته الرابعة فقط ، وجد إيكويفي ، وكان القلق آنذاك قد بلغ به مداه .

كان مجمع أوبيرييكا يعج بالحركة مثل تل نمل . فنصبت قوائم طبخ

مؤقتة ثلاثة الأرجل في كل فسحة مباحة بتجمّيع ثلاثة قوالب طوب شوتها الشمس ، ثم أوقدت النار في وسطها . ووضعت قدور الطبخ على القوائم ثم رفعت عنها ، وسحق الفو-فو في مثاث من الهاونات الخشبية . طبخت بعض النساء اليام والقريسة ، وهيأت أخرىات حساء الخضار . سحق الشباب الفو-فو أو كسروا الحطب . وقام الأطفال برحلات لا حصر لها إلى الجدول .

ساعد ثلاثة شباب أوبيريكا في ذبح العنتين اللتين ستسخدمان في طبخ الحساء . كانتا عنتين سميّتين جداً ، لكن العنزة الأسمى كانت مقيّدة بحبل طويل إلى وتد قرب سور المجمع . كانت كبيرة بحجم بقرة صغيرة . وقد أرسل أوبيريكا أحد أقاربائه خصيصاً إلى أومويكي لشراء تلك العنزة . كانت هي العنزة التي سيهديها إلى أصهاره حيّة .

قال الشاب الذي أرسله أوبيريكا لشراء العنزة العملاقة : «إن سوق أومويكي مكان مدهش ، إنها تعج بالناس بحيث لو ألقيت حبة رمل لما وجدت منفذأً لتسقط على الأرض مرة أخرى» .

قال أوبيريكا : «هذا نتيجة دواء عظيم . لقد أراد سكان أومويكي أن تكبر سوقهم وتبتلع أسواق جيرانهم . لذلك صنعوا دواءً قوياً . وفي كل يوم سوق ، وقبل صيحة الديك الأولى ، يقف هذا الدواء في ساحة السوق بهيئة امرأة عجوز تحمل مروحة . وبهذه المروحة السحرية تشير إلى جميع العشائر المجاورة داعية إياها إلى السوق ؛ فتشير إلى الأمام والخلف ، وإلى اليمين واليسار» .

قال رجل آخر : «هكذا يأتي الجميع : الشرفاء واللصوص . يمكنهم سرقة وشاحك عن خصرك في تلك السوق» .

قال أوبيريكا : «نعم . لقد حذرت نوانكwoo بأن يقي عينيه وأذنيه مفتوحة جيداً . فقد حدث ذات مرة أن ذهب شخص ليبيع عنزه . فقادهما بحبل غليظ ربطه حول معصميه . لكنه لاحظ ، بينما كان ماشياً في السوق ، أن الناس يشيرون إليه كما يشيرون إلى رجل مجنون ، لم يفهم هذا إلاً عندما التفت إلى الخلف وشاهد أن ما كان يقوده في نهاية الحبل ليس عنزة ، بل كتلة ثقيلة من الخشب» .

سأل نوانكwoo : «هل تعتقد أن لصاً يستطيع أن يقدم على ذلك النوع من العمل بمفرده؟»

قال أوبيريكا : «لا . إنهم يستخدمون دواءً» .

عندما ذبحوا العنتين ، وصفقا دمهمما في طاسة ، رفعوهما فوق نار مكسوفة لإحراق الشعر ، امتزجت رائحة الشعر المحترق برائحة الطبخ . ثم غسلوهما وقطعوهما للنسوة اللواتي يعذدن النساء .

جرى كل نشاط تل النمط هذا بسلامة إلى أن قطع فجأة . إذ انطلقت صرخة آتية من بعيد : أوجي أودو آتشي ايبيجي - أو - أو ! (التي تستخدم ذنبها للطرد الذباب !) وتركت كل امرأة العمل الذي كانت تقوم به على الفور واندفعن جميعاً في اتجاه الصرخة .

صاحت تشيلو الكاهنة : «لا يمكن أن ندفع جميعاً على هذا النحو ونترك ما نطبخه لحرقة النار . يجب أن تبقى ثلاثة أو أربع نساء هنا» .

قالت امرأة أخرى : «هذا صحيح . سنسمح لثلاث أو أربع نساء بالبقاء» .

وتخلفت خمس نساء للعناية بقدور الطبخ ، واندفعت كل الآخريات لرؤية البقرة التي أفلتت من عقالها . لما شاهدنها ، طردنها باتجاه مالكها الذي دفع فوراً الغرامة الباهظة التي تفرضها القرية على كل من تفلت بقرته في غلال الجيران . وعندما تقاضت النسوة الغرامة ، تفقدن بعضهن لينظرن إنْ كانت أي امرأة قد تخلفت عن القدوم حين انطلقت الصيحة .

سألت إحداهن : «أين مجبوجو؟»

قالت جارة مجبوجو : «إنها لاتزال مريضة في الفراش . هي مريضة بالإبها» .

قالت امرأة أخرى : «المرأة الوحيدة الأخرى هي أودينكwoo . طفلها لم يبلغ يومه الثامن والعشرين بعد» .

عادت النسوة اللواتي لم تطلب زوجة أوبيريكا مساعدتهن في الطبخ إلى بيتهن ، ورجعت البقية ، دفعة واحدة ، إلى مجمع أوبيريكا .

سألت النساء اللواتي سمح لهن بالتخلف : «بقرة منْ هذه؟»

قالت إيزيلاجبو : «إنها بقرة زوجي . وقد فتح أحد الأطفال الصغار بوابة سقيفية البقر» .

في وقت مبكر من بعد الظهر ، وصل أول زقين من نبيذ التخيل من أصهار أوبيريكا . وقدّما ، حسب الأصول ، إلى النساء اللواتي شرّين كأساً

أو كأسين ، لمساعدتهن على الطبخ . أرسل قليل من النبيذ أيضاً إلى العروس والفتيات الملazمات لها واللواتي كن يضعن لمسات الموسى الأخيرة المرهفة على تسرية شعرها ويدهنّ بشرتها الناعمة بخشب الكام .

حين بدأت حرارة الشمس تخفّ ، تناول مادوكا ، ابن أوبيريكا ، مكنسة طويلة ، وكنس الأرض أمام أوبيريكيه . وكمالوأنهم كانوا في انتظار ذلك ، شرع أقارب أوبيريكا وأصدقاؤه بالوصول ، وكل منهم يعلق كيس جلد الماعز على إحدى كتفيه ويحمل حصيرة جلد الماعز أيضاً تحت إيطه . رافق بعضهم أبناؤهم الحاملين مقاعد خشبية منقوشة . وكان أوكونكوا واحداً منهم . جلسوا في نصف دائرة وبدأوا يتجادلون أطراف الحديث حول أمور شتى . فلن يمر وقت طويل قبل أن يحضر طالبو يد العروس .

أخرج أوكونكوا قنينة سعوطه وقدمها لـأوجبوفي إيزينوا ، الجالس إلى جانبه . تناولها إيزينوا ، ودقّ بها على رضفة ركبته ، وفرك كفه اليسرى بجسده ليجففها قبل أن يرش قليلاً من السعوط عليها . كانت أفعاله مدروسة ، وتكلم وهو يقوم بها : «أمل أن يحضر أصحابنا زفافاً كثيرة من النبيذ . ومع أنهم ينتمون إلى قرية معروفة بالبخل ، إلا أنهم يجب أن يعرفوا أن أكوبكي عروس جديرة بملك» .

قال أوكونكوا : «لن يتجرؤوا على إحضار أقل من ثلاثين زقاً . وسأخبرهم برأيي إن أحضر وأقل» .

في تلك اللحظة ، ساق مادوكا ، ابن أوبيريكا ، العزنة الضخمة من

المجمع الداخلي ليراها أقارب أبيه . أبدى الجميع إعجابهم بها وقالوا إنه هكذا يجب أن تُصرف الأمور . ثم أعيدت العنزة إلى المجمع الداخلي .

بعد فترة وجيزة ، بدأ الأصهار بالوصول . فوصل أولًا الشباب والأولاد في صف واحد ، وكل منهم يحمل زقاً من النبيذ . عدد أقارب أوبيريكا الزقاق بينما كانوا يدخلون . عشرون ، خمسة وعشرون . مرت فترة توقف طويلة ، وتبادل الضيوف النظارات كما لو أنهم أرادوا القول : «لقد قلنا لكم» . ثم أتت زقاق أخرى . ثلاثون ، خمسة وثلاثون ، أربعون ، خمسة وأربعون . فأولما الضيوف برؤوسهم استحساناً ويدوا كأنهم يقولون : «ها هم يتصرفون الآن كرجال» . بلغ المجموع خمسين زق نبيذ . بعد حملة الزقاق ، قدم إببي ، طالب يد البنت ، مع شيخ عائلته . جلسوا مكونين نصف قمر ، مكملين بذلك الحلقة مع مضيفيهم . ووضعت زقاق النبيذ في وسطهم . ثم خرجمت العروس مع أمها ونصف ذينة نساء وبنات من المجمع الداخلي ، ودرن حول الدائرة وصافحن جميع العجالسين . قادت أم العروس المجموعة ، تتبعها العروس ثم النساء الآخريات . وقد ارتدت المتزوجات منهن أبيه أقمشتهن وزينت البنات خصورهن بالخرز الأسود والأحمر وكواحلهن بخلالن النحاس الأصفر .

حين انسحبت النسوة ، قدم أوبيريكا جوز الكولا للأصهاره . كسر أخوه الأكبر الجوزة الأولى . قال وهو يكسرها : «الحياة لنا جميعاً . لتنعقد أواصر الصداقة بين عائلتكم وعائلتنا» .

أجاب الحشد : «إي - ي - ي !

- «نحن نعطيكم ابنتنا اليوم . ستكون زوجة طيبة لكم وستتوجب لكم
تسعة أبناء مثل أم بلدتنا» .

- «إي - ي - ي !»

رد أكبر الرجال سناً في معسكر الزوار : «سيكون هذا حسناً لكم ،
وسيكون هذا حسناً لنا» .

- «إي - ي - ي !»

- «هذه ليست أول مرة يأتي فيها قومي ليتزوجوا من بناتكم ، فقد كانت
أمي واحدة منكم» .

- «إي - ي - ي !»

- «ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة ، لأنكم تفهموننا ونحن نفهمكم .
أنتم عائلة عظيمة» .

- «إي - ي - ي !»

تطلع في اتجاه أوكونكوا : «رجال ناجحون ومحاربون عظام . ستلد
ابناتكم لنا أبناء مثلكم» .

- «إي - ي - ي !»

أكلت الكولا وبدأ شرب نبيذ النخيل . جلست كل مجموعة من أربعة
أو خمسة رجال وقد وضع زق نبيذ وسطفهم . حين ولّى الجزء الأكبر من
المساء ، قدم الطعام إلى الضيوف . كانت هناك طاسات ضخمة من الفو -
فو وقدور من المرق يتتصاعد منها البخار . وقدور حساء يام . كانت حقاً
وليمة فخمة .».

حين حل الليل ، ثبتت المشاعل على ركائز خشبية ثلاثة القوائم ورفع الشباب عقيرتهم بالغناء . جلس الشيخ في حلقة واسعة ودار المغنون عليهم متوقفين عندهم فرداً فرداً مادحين كل واحد منهم . كان لديهم ما يقولونه لكل رجل منهم . فقد كان بعضهم مزارعين عظماء ، وبعضهم خطباء متحدثين باسم العشيرة ، وكان ، وكونكوا وأعظم المصارعين والمحاربين الأحياء . حين أنهوا جولتهم حول الحلقة ، جلسوا في الوسط ، وأتت الفتيات من داخل المجمع للرقص . لم تكن العروس بينهن في البداية . لكن ، حين ظهرت أخيراً تحمل ديكاً في يدها اليمني ، علا هتاف الجموع تحية لها . أفسحت الراقصات الآخريات الطريق أمامها . وقدّمت الديك إلى العازفين وبدأت الرقص . رتت خلائلها النحاسية مع الرقص والتمع جسدها المدهون بخشب الكام في الضوء الأصفر الخافت . انتقل الموسيقيون ، وهم يعزفون على آلاتهم الخشبية والطينية والمعدنية ، من أغنية إلى أخرى . غمرت البهجة الجميع . وغنوا أحدث أغنية في القرية .

«إذا أمسكتُ بيدها

تقول : «لاتلمسني !

وإذا أمسكتُ بقدمها

تقول : «لاتلمسني !

لكن ، حين أحضرن خرزات خصرها

تتظاهر بأنها لا تدرى» .

كان الجزء الأكبر من الليل قد انقضى حين نهض الضيوف للرحيل ،
أخذين معهم العروس لتمضي سبعة أسابيع عند عائلة زوجها المقبل .
رددوا الأغاني أثناء ذهابهم ، وقاموا في الطريق بزيارات مجاملة قصيرة
للرجال البارزين مثل أوكونكواو ، قبل أن يتركوا القرية أخيراً قاصدين
قربيتهم . فقدم إليهم أوكونكواو هدية .

١٣ فصل

جو-دي-دي-جو-جو-دي-جو . دي-جو-جو-دي-جو . كان ذلك صوت الإيكوي وهو يخاطب العشيرة . وكان من بين الأشياء المفروض على كل شخص تعلمها اللغة تلك الآلة الخشبية المجوفة .
دييم ! ديم ! ديم ! دوى صوت المدفع بين آن وآخر .

لم يكن الديك الأول قد صاح ، وكانت أومووفيا غارقة في النوم والصمت عندما بدأ الإيكوي يتكلم ومزق المدفع الصمت . تقلب القوم في أسرتهم المصنوعة من الخيزران وأصغوا بقلق . توقي شخص . بدا صوت المدفع وكأنه يمزق السماء . دي-جو-جو-دي-جو-دي-دي-جو-جو . انساب نسيم الليل حاملاً الرسالة . واستقر عويل النساء الخافت بعيداً مثل رسالة من الأسى على الأرض . بين آن وآخر ، وكلما وصل رجل إلى مجلس الموت ، كان صوت ندب صارخ يرتفع فوق العويل . كان القايم يرفع صوته مرة أو مرتين معبراً برجولة عن حزنه ثم يجلس مع الرجال الآخرين ينصت إلى عويل النساء المتواصل وحديث الإيكوي الأسطوري . ويدوي هدير المدفع بين حين وآخر . لم يكن عويل النساء يصل إلى خارج حدود القرية ، لكن الإيكوي أوصل النبأ إلى جميع

القرى التسع ، وحتى إلى ما ورائها . بدأ بتسمية العشيرة : أومووفيا أوبيودو ديكي ، «أرض الشجعان» . أومووفيا أوبيودو ديكي ! أومووفيا أوبيودو ديكي ! كرر ذلك مرة إثنتين ، وكلما تمهل في تردادها ، ازداد القلق في كل قلب أطلق أنفاسه في تلك الليلة وهو على سرير خيزران . اقترب الإيكوي أكثر فأكثر وسمى القرية : «إيجويدو حجر الرحي الأصفر !» . كانت قرية أوكونكوا . تردد اسم إيجويدو مراراً وتكراراً ، فانتظر الرجال في القرى التسع حابسين أنفاسهم . في النهاية ذكر اسم الرجل ، فتنهد القوم «إيسو - و ، إيزيدو مات» . سرت رجفة قارسة في ظهر أوكونكوا وهو يتذكر آخر مرة زاره فيها الرجل العجوز . قال : «ذاك الصبي يدعوك أباه . لا تشارك في قتله» .

كان إيزيدو رجلاً عظيماً ، فاحتشد جميع أفراد العشيرة في جنازته . قرعت طبول الموت العتيقة ، وأطلقوا نيران البنادق والمدفع ، واندفع الرجال في جميع الاتجاهات بهياج ، فقطعوا كل شجرة مروا بها ومزقوا كل حيوان شاهدوه ، وقفزوا فوق الجدران ورقصوا فوق السطوح . كانت جنازة محارب ، ومن الصباح إلى الليل أتى المحاربون وولوا أفواجاً حسب فئات أعمارهم . وقد ارتدى كلهم التنانير المصنوعة من ليف تخيل الرا فيه المدخن ودهنت أجسامهم بالطباشير والفحم . ومن حين إلى آخر ظهرت من باطن الأرض روح من أرواح الأجداد أو إيجووجوو ، متهدّأ بصوت متهدّج غير أرضي وهو مغطى تماماً بليف تخيل الرا فيه . كان بعض الإيجووجوو عنيفاً جداً ، وقد فرّ الناس مذعورين في وقت سابق من النهار بحثاً عن ملجاً حين ظهر أحدهم حاملاً سكيناً ماضية ، ولم يحل بينه

وَبَيْنَ إِلْحَاقِ الْأَذِي الْجَدِيِّ بِمَنْ يَحْيِطُ بِهِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا وَجُودُ رَجُلَيْنِ كَبَحَا
جَمَاحَهُ بِحَبْلٍ قَوِيٍّ مَرْبُوطٍ حَوْلَ خَصْرِهِ . كَانَ يَسْتَدِيرُ أَحِيَانًا وَيَطَارِدُ هَذِينَ
الرَّجُلَيْنِ ، فَيَهْرَبَانْ لِيَنْجُوا بِجَلْدِهِمَا ، لَكِنَّهُمَا كَانَا يَرْجِعُانِ دَائِمًا إِلَى الْحَبْلِ
الْطَوِيلِ الْمَجْرُورِ وَرَاءَهُ . كَانَ يَعْنِي ، بِصَوْتٍ مَرْعُوبٍ قَائِلًا إِنْ إِيْكُوينُو ،
الرُّوحُ الشَّرِيرَةُ ، دَخَلَتْ فِي عَيْنِهِ .

لَكُنَّ إِيْجُوو جُوو الْأَفْنَطُعُ سِيَّائِيٌّ بَعْدَ قَلِيلٍ . وَهُوَ وَحِيدٌ دَائِمًا ، وَلَهُ
شَكْلٌ تَابُوتٌ . وَحِيشَمَا يُولِيَّ وَجْهَهُ ، يَعْبَقُ الْهَوَاءُ بِرَائِحَةِ كَرِيْهَهُ ، كَمَا أَنَّ
الْذَّبَابَ يَتَنَقَّلُ مَعَهُ . حَتَّى أَعْظَمُ رِجَالِ الْطَبِّ كَانُوا يَفْزَعُونَ إِلَى مَلْجَائِهِ
اقْرَابَهُمْ . فَقَبْلَ سَنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ ، تَجَاسِرَ إِيْجُوو جُوو آخِرَ عَلَى الصَّمْدُودِ
أَمَامَهُ ، فَكَانَتِ النَّتِيْجَةُ أَنْ سَحْرَهُ فِي مَوْضِعِهِ وَثَبَّتَهُ هَنَاكَ مَدَةً يُوْمَيْنِ . كَانَ
هَذَا بَذْرَاعٌ وَاحِدَةٌ وَيَحْمِلُ سَطْلَانًا مَمْلُوءًا بِالْمَاءِ .

لَكُنَّ بَعْضُ إِيْجُوو جُوو كَانُوا غَيْرَ مُؤْذِنِينَ أَبْدًا . كَانَ أَحَدُهُمْ عَجَوزًا
وَاهْنَ الْقَوِيِّ إِلَى حَدَّ أَنَّهُ رَاحَ يَتَوَكَّلُ بِتَشَاقُلٍ عَلَى عَصَمِهِ . سَارَ بِخَطْبَى مُتَعَثِّرَةٍ
إِلَى حَيْثُ سَجَى الْجَثْمَانُ ، وَحَدَّقَ فِيهِ بِرَهْةٍ ثُمَّ مَضَى بَعِيدًا—إِلَى عَالَمِ
تَحْتِ الْأَرْضِ .

لَا تَبْعُدْ أَرْضُ الْأَحْيَاءِ كَثِيرًا عَنْ مَمْلَكَةِ الْأَجْدَادِ . وَيَجْرِي تَزَوُّرُ بَيْنِهِمْ ،
خَاصَّةً فِي الْمَهْرَجَانَاتِ وَحِينَ يَمُوتُ عَجَوزٌ أَيْضًا ، فَالْعَجَوزُ يَكُونُ قَرِيبًا
جَدًا مِنَ الْأَجْدَادِ . وَحِيَاةُ الْمَرْءِ مِنَ الْمِيلَادِ إِلَى الْوَفَاءِ سَلْسَلَةً مِنْ طَقْوَسِ
اِنْتِقَالِيَّةِ تَدْنِيهِ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ أَجْدَادِهِ .

كَانَ أَيْزِيُودُو أَكْبَرَ الْمَعْمَرِيْنِ سَنًا فِي قَرِيْتَهُ ، وَحِينَ وَفَاتَهُ ، كَانَ فِي

العشيرة بأكملها ثلاثة شيوخ فقط أكبر منه سنًا ، وأربعة أو خمسة آخرون في نفس فئة عمره . وعندما كان واحد من هؤلاء يظهر وسط الجمهور ليؤدي ، بخطوات غير ثابتة ، رقصة القبيلة الجنائزية ، كان الرجال الأصغر سنًا يفسحون له المجال ويهداه الضجيج .

كانت جنازة عظيمة ، لائقة بمحارب نبيل . ومع اقتراب المساء ، تزايـد الصراخ وإطلاق النار من البنادق ، وتعالـى قرع الطبول والتلوـيح بسيـوف التـحطـيب وصـلـيلـها .

نال إيزيدو ثلاثة ألقاب في حياته . وهذا إنجاز نادر . ففي العشيرة أربعة ألقاب فقط ، ولا ينال اللقب الرابع والأرفع رتبة إلا رجل أو رجلان في أي جيل . وحين يتحققون هذا ، يصبحون سادة البلاد . ولأن إيزيدو كان من حملة الألقاب ، فلابد أن يدفن بعد حلول الظلام ووهج جمر يضيء فقط الطقس المقدس .

لكن ، قبل هذا الطقس الهداء والختامي ، تضاعـف الصـخب عـشرـة أضعـاف . قـرـعـتـ الطـبـولـ بـعـنـفـ وـوـثـبـ الرـجـالـ فـيـ الـهـوـاءـ بـجـنـونـ .ـ أـطـلـقـتـ النـيـرانـ فـيـ جـمـيـعـ الـاـنـجـاهـاتـ وـتـطـاـيـرـ شـرـرـ ،ـ وـصـلـصـلـتـ سـيـوفـ التـحطـيبـ مـتـصـادـمـةـ تـحـيـةـ لـلـمـحـارـيـنـ .ـ عـجـ الجـوـ بـالـغـبـارـ وـرـائـحةـ الـبـارـودـ .ـ عـنـدـئـذـ ،ـ أـتـىـ الـرـوـحـ وـحـيـدـ الـيـدـ ،ـ حـامـلاـ سـطـلـ مـاءـ .ـ أـخـلـىـ الـقـوـمـ السـبـيلـ أـمـامـهـ مـنـ كـلـ الـجـهـاتـ وـخـمـدـ الـضـجـيجـ .ـ حـتـىـ رـائـحةـ الـبـارـودـ اـبـتـلـعـتـهـاـ الرـائـحةـ الـكـريـهـةـ الـتـيـ عـبـقـ بـهـاـ الـجـوـ الـآنـ .ـ رـقـصـ بـضـعـ خـطـوـاتـ عـلـىـ وـقـعـ الطـبـولـ الـجـنـائـزـيـ ثـمـ ذـهـبـ لـرـؤـيـةـ الـجـهـمـانـ .ـ

نادى بصوته الحلقى : «ايزيدو ! لو كنت فقيراً في حياتك الماضية طلبت منك أن تكون غنياً عندما تعود ؛ لكنك كنت غنياً . لو كنت جباناً ، طلبت منك أن تجلب الشجاعة ؛ لكنك كنت محارباً لا يعرف الخوف . لو توفيت وأنت شاب ، طلبت منك أن تحصل على الحياة . لكنك عشت طويلاً ؛ لذلك سأطلب منك أن تعود تماماً كما جئت من قبل . إذا كان موتك موتاً طبيعياً ، فاذهب سلام . لكن إذا كان رجل تسبب فيه ، فلا تدعه يتمتع بلحظة راحة». ورقص الروح بضع خطوات أخرى ومضى في حال سبيله .

استؤنف قرع الطبول والرقص وتصاعدت حرارتهما حتى بلغت حرارة الحمى . كان الظلام حول الركين ، اقترب موعد الدفن . فأطلقت البنادق تحيتها الأخيرة ومزق المدفع السماء . فجأة ، انطلقت من وسط الغضب الهاذى صرخة ألم وصيحات رعب . بدا كأن سحراً ألمى . فقسمت الجميع . وهناك في وسط الحشد ، تمدد صبي غارقاً في بركة من الدم . كان ابن المتوفى يبلغ من العمر ستة عشر عاماً ، وقد كان يرقص مع إخوانه وأشقائه من أبيه رقصة الوداع التقليدية لأبيه حين انفجرت بندقية أوكونكوى واخترقت قطعة حديد قلب الغلام .

لم يقع في تاريخ أومووفيا نظير للاضطراب الذي أعقب الحادث . فالوفيات العنيفة مألفة ، لكن شيئاً كهذا لم يحدث إطلاقاً .

كان السبيل الوحيد المفتوح أمام أوكونكوى هو الفرار من العشيرة . فقتل فرد من أفراد العشيرة جريمة ضد ربة الأرض لا بد أن يفرّ مرتکبها من

البلاد . فالجريمة نوعان : ذكر وأنثى . كانت جريمة أوكونكوا وأنثى ، لأنها كانت غير متعمدة . وهو يستطيع أن يعود إلى العشيرة بعد سبع سنوات .

في تلك الليلة ، جمع أوكونكوا وأثمن ممتلكاته في صرر يمكن حملها على الرأس . بكت زوجاته بحرقة ، وبكي أطفالهن معهن دون أن يعرفوا السبب . حضر أوبيريكا ونصف ذيئنة أصدقاء آخرين لمساعدته ومواساته . وقام كل منهم بتسع أو عشر رحلات حاملاً أيام أوكونكوا إلى مخزن أوبيريكا لحفظه هناك . وقبل أن يصبح الديك ، كان أوكونكوا وعائلته يفرون إلى بلد أمه . وهي قرية صغيرة تدعى مبانتا ، تقع وراء حدود مبيانو تماماً .

ما أن طلع النهار حتى اكتسح جمهور كبير من مجمع إزيودو منزل أوكونكوا ، لابسين زي الحرب ؛ فأحرقوا أكواخه ؛ وهدموا أسواره الحمراء ؛ وقتلوا حيواناته ودمروا مخزن غلاله . كانت تلك هي عدالة ربة الأرض وهم مجرد رسليها . لم يكن في قلوبهم أي حقد على أوكونكوا . وقد كان أعز أصدقائه ، أوبيريكا ، بينهم . كانوا فقط يطهرون الأرض التي دنسها أوكونكوا بدم ابن من أبناء عشيرته .

كان أوبيريكا رجلاً يفك في الأشياء . عندما نفذت إرادة ربة الأرض ، جلس أوبيريكا في أوبية وتوجع للكارثة التي حلّت بصديقه . لماذا يجب أن يقاسيي رجل على هذا النحو المحزن بسبب إساءة ارتكبها دون قصد ؟ لكن ، ورغم أنه فكر طويلاً ، إلا أنه لم يتوصل إلى جواب . قاده هذا التفكير إلى تعقيدات أعظم فقط . وتذكر توامي زوجته اللذين طرحوها

بعيداً . أي جريمة ارتكبها؟ لقد قضت الأرض بأنهما إساءة للبلد ولابد أن يهلكا . وإذا لم تنفذ العشيرة عقاباً على إساءة ضد الربة العظيمة ، فسيحل غضبها على البلد كلها وليس على المسيء فقط . وكما يقول الشيخ : إذا ابتل أصبع بالزيت فإنه سيلوث الأصابع الأخرى .

الجزء الثاني

١٤ فصل

استقبل أوكونكwoo استقبلاً حسناً من قبل أهل أمه في مبانتا . كان الشيخ الذي استقبله أخا أمه الأصغر ، الذي أصبح الآن أكبر الأحياء سناً في تلك العائلة . كان اسمه أوتشيندو ، وكان هو الذي استقبل أم أوكونكwoo قبل عشرين وعشرين سنة عندما أحضرت من أومووفيا لتدفن مع أهلها . كان أوكونكwoo آنذاك مجرد صبي ولا يزال أوتشيندو يتذكره باكيًّا يردد الوداع التقليدي : «أمي ، أمي ، أمي راحلة» .

حدث ذلك منذ سنوات عديدة . واليوم لم يحضر أوكونكwoo أمه إلى موطنها لتدفن مع أهلها . بل أحضر عائلته المؤلفة من ثلاث زوجات وأطفالهن لاجئاً إلى بلاد أمه . حالما رأه أوتشيندو برفقة جماعته الحزينة والمتعبة ، خمن ما حدث ، فلم يطرح أية أسئلة . في اليوم التالي فقط ، روى له أوكونكwoo القصة كاملة . استمع الشيخ بصمت إلى النهاية ثم قال بشيء من الارتياح : «إنها أوتشو أنشى» . ورتب الطقوس والقربابين المناسبة .

منح أوكونكwoo قطعة من الأرض لبنيه عليها مجتمعه ، وقطعتين أو ثلاثة ليرعها في موسم الزراعة القادم . ويساعده أهل أمه ، بني أوبي لنفسه

وثلاثة أكواخ لزوجاته . ثم نصب إلهه الشخصي ورموز آبائه الراحلين . ساهم كل من أبناء أوتشيندو الخمسة بثلاثمائة بذرة يام لتمكين ابن عمتهم من زراعة مزرعة ، فحالما يهطل أول مطر ، ستبدأ الزراعة .

أخيراً ، أتى المطر . كان مطراً فجائياً وغزيراً جداً . فقد ظلت الشمس على مدى قمرتين أو ثلاثة أقمار تزداد قوة إلى أن بدت كأنها تنفس أنفاس نار على الأرض . واحترق العشب كله منذ فترة طويلة وأصبح بني اللون ، ولسع الرمل باطن الأقدام كالجمر المشتعل . واكتست الأشجار دائمة الخضرة بكساء مغبر بني اللون . صمتت الطيور في الغابات ، ورقد العالم لاهثاً تحت وطأة الحرارة الحارقة المرتعشة . ثم أتى قصف الرعد . كان قصفاً غاضباً ومعدنياً وظائماً ، لا يشبه في شيء قرقعة سائل الفصل الممطر . هبت رياح عاتية وملأت الجو بالغبار . وترنحت أشجار النخيل فيما مشطت الريح أوراقها مكونة قمماً متطايرة كشعر غريب وخالي .

حين حل المطر أخيراً ، هطل على شكل حبات ماء كبيرة متجمدة يدعوها الناس : «جوز ماء السماوات» . وهي قاسية ومؤلمة على الجسم حين تسقط ، لكن الصبية تراکضوا هنا وهناك فرحين والتقطوا الجوز البارد ورموه في أفواههم ليذوب .

دبّت الحياة بسرعة في الأرض وخفقت الطيور بأجنحتها في الغابات وغرّدت بمرح . عبق الجو برائحة غامضة موحية بالحياة والخصب الأخضر . حين بدأ المطر ينهمر بزانة أكثر وبقطرات سائل أصغر حجماً ، احتمى الأطفال منه ، وأحس الجميع بالسعادة ، متعشين وشاكرين .

كدح أوكونكoo وعائلته بجد ليزرعوا مزرعة جديدة . لكن وضعه كان كمن يبدأ حياة جديدة دون حيوية وحماس الشباب ، كتعلم استعمال اليد اليسرى في الشيخوخة . فلم يعد العمل يثير في نفسه متعة كالسابق ، وحين لا يكون لديه ما يفعله كان يجلس صامتاً شبه نائم .

كانت حياته محكومة بعاطفة جامعة عظيمة - أن يصبح واحداً من سادة العشيرة . كان ذلك هو ينبع حياته . وحقق كل شيء إلا هذا . ثم تحطم كل شيء . ونبذ من عشيرته كسمكة القيمة وهي تلهث على شاطئ رملي جاف . من الواضح أن إلهه الشخصي أو التشي ليس مهيناً لتحقيق أمور عظيمة . والانسان لا يستطيع أن يتجاوز قدر تشييه . ليس صحيحاً قول الحكماء أن رجلاً إذا قال نعم فإن تشييه يؤكّد هذه النعم . فها هو رجل قال تشييه لا ، رغم أنه هو نفسه قال نعم .

لاحظ الشيخ أوتشيندو بوضوح أن أوكونكoo استسلم للإيأس ، فأقلقه هذا قلقاً عظيماً . فعزّم على التحدث إليه بعد احتفال الآيسا - إيفي .

كان أصغر أبناء أوتشيندو الخمسة ، أميكoo ، على وشك الزواج مجدداً . فقد دفع مهر العروس ولم يبق سوى الاحتفال الأخير . فقد حمل أميكoo وقومه نبيذ النخيل إلى أهل العروس قبل قمرین من مجىء أوكونكoo إلى مباننا . هكذا حان وقت الاحتفال بالاعتراف النهائي .

وصلت جميع بنات العائلة إلى هناك ، وقد قطعت بعضهن مسافة طويلة للقدوم من بيوتهن الكائنة في قرى نائية . فقد أتت كبرى بنات أوتشيندو من أوبيودو ، على مسافة رحلة نصف نهار تقربياً . وكانت بنات

إخوان أوتشيندو هناك أيضاً . فكان اجتماعاً كاملاً للأمواد ، بالطريقة نفسها التي سيجتمعون حسبها إذا حدثت وفاة في العائلة . اجتمعت اثنتان وعشرون منهن .

جلسن في دائرة كبيرة على الأرض وجلست العروس في الوسط حاملة دجاجة بيدها اليمنى . جلس أوتشيندو إلى جانبها ممسكاً بعصى أجداد العائلة . وقف بقية الرجال خارجدائرة ، يراقبون . وراقبت زوجاته أيضاً . كان الوقت مساء وراحت الشمس تغرب .

طرحت ابنة أوتشيندو الكبرى ، نجيدي ، الأسئلة .

بدأت : «تذكري أنك إن لم تقولي الصدق فسوف تقاسين بل وحتى ستموتين أثناء الوضع . كم رجلاً صاجعك منذ أن أبدى أخي لأول مرة رغبته في الزواج منك؟»

أجابت ببساطة : «لأحد» .

حثتها النساء الآخريات : «أجيبي بصدق» .

سالت نجيدي : «لأحد؟»

أجابت : «لأحد» .

قال أوتشيندو : «أقسمي بعصا آبائي هذه» .

قالت العروس : «أقسم» .

فأخذ أوتشيندو الدجاجة منها ، وذبح حلقها بسكين حادة وترك بعض قطرات من الدم تسقط على عصا أجداده .

منذ ذلك اليوم ، أخذ أميكو العروس الشابة إلى كوخه وأصبحت

زوجته . لم تعد بنات العائلة مباشرة إلى بيتهن ، بل أمضين يومين أو ثلاثة أيام مع أهلهم .

في اليوم التالي ، جمع أوتشيندو أبناءه وبناته وابن أخيه ، أوكونكoo . أحضر الرجال حصائرهم من جلد الماعز ، وجلسوا فوقها على الأرض ، وجلست النسوة على حصير من سيسال فرش على دكة مرتفعة من الأرض . شدّ أوتشيندو لحيته البيضاء برفق وعض على أسنانه . ثم بدأ يتكلم ، بهدوء وبطء ، مختاراً كلماته بحرص شديد :

بدأ : «أريد أن أتكلم بالأساس مع أوكونكoo . لكنني أريدكم كلكم أن تلاحظوا ما سأقوله . أنا شيخ عجوز وأنتم كلكم أطفال . أنا أعرف عن شؤون الدنيا أكثر من أي واحد منكم . وإذا كان أحدكم يعتقد أنه يعرف أكثر مني ، فليتكلم بصوت عالٍ» . توقف برهة ، لكن أحداً لم يتكلم . «لماذا يعيش أوكونكoo معنا اليوم؟ هذه ليست عشيرته . إننا مجرد أقرباء أمه . وهو لا ينتمي إلى هنا . إنه منفي ، محكوم عليه أن يعيش سبع سنوات في أرض غريبة . لذلك فالأسى يحني ظهره . لكن هناك سؤالاً واحداً أريد أن أطرحه عليك . هل تستطيع أن تخبرني يا أوكونكoo : لماذا نطلق على أطفالنا أحد أكثر الأسماء انتشاراً وهو : نيكا ، أو «الأم هي الأسمى»؟ نحن كلنا نعرف أن الرجل هو رب العائلة وزوجاته يطعن أوامره . والطفل ينتمي إلى أبيه وعائلته وليس إلى أمه وعائلتها . والرجل ينتمي إلى أرض آبائه وليس إلى أرض أمه . مع ذلك نقول نيكـاـ «الأم هي الأسمى» . لماذا نفعل ذلك؟» .

ساد الصمت . ثم قال أوتشيندو : «ليجاويني أوكونكoo .

قال أوكونكوا : «لأعرف الإجابة» .

ـ «لاتعرف الإجابة؟ هكذا ترى أنك طفل . إن لديك زوجات كثيرات وأطفالاً كثيرين - أكثر مما لدى من أطفال . وأنت رجل عظيم في عشيرتك . لكنك لا تزال طفلاً . استمع إليّ وسأخبرك . لكن هناك سؤالاً آخر سأذلك إياه . لماذا تحمل المرأة إلى موطنها الأصلي لتُدفن مع أهلها حينما تموت؟ إنها لا تُدفن مع أهل زوجها . لماذا يحدث ذلك؟ لقد حملت أمك إلى موطنها ودفنت مع قومي . لماذا حدث ذلك؟»

ـ هزّ أوكونكوا رأسه .

قال أوتشيندو : «إنه لا يعرف ذلك أيضاً ، مع ذلك فهو مفعم بالأسى لأنه أتى ليعيش في أرض أمه بضع سنوات» . أطلق ضحكة خالية من البهجة ، والتفت إلى أبنائه وبناته . «ماذا عنكم؟ هل تستطعون الإجابة على سؤالي؟»

ـ هزّ الجميع رؤوسهم .

سلّك حلقه وقال : «إذن استمعوا إليّ . صحيح أن الطفل ينتمي إلى أبيه . لكن الأب عندما يضرب طفله ، يبحث الطفل عن العطف في كوخ أمه . الرجل ينتمي إلى أرض آبائه عندما تسير الأمور ببرخاء وتكون الحياة حلوة . لكن ، عندما يقع الأسى والمرارة فإنه يجد ملجاً في أرض أمه . فأمكم هناك لتحميكم . إنها مدفونة هناك . لذلك نقول إن الأم هي الأسماى . هل من الصواب يا أوكونكوا أن تأتي إلى أمك بوجه ثقيل وترفض السلوى؟ إحذر وإن أغضبت الموتى . إن واجبك هو أن تريح زوجاتك وأطفالك ، وأن تعود بهم إلى أرض آبائك بعد سبع سنوات .

لكن ، إذا تركت الأسى يثقل عليك ويقتلك ، فإنهم سيموتون جمِيعاً في المنفى» . توقف لفترة طويلة . «هؤلاء هم أهلك الآن» . وأشار بيده إلى أبنائه وبنته . «أنت تعتقد أنك المعاني الأكبر في العالم؟ هل تعرف أن الرجال يُنفون من أوطانهم أحياناً مدى الحياة؟ هل تعرف أن الرجال يفقدون أحياناً جميع يامهم وحتى أطفالهم؟ كانت لدى ست زوجات ذات مرة . وليس لدى الآن سوى تلك الفتاة الصغيرة التي لا تعرف يمينها من شمالها . هل تعرف كم طفلاً دفنت - أطفالاً أُنجبتهم في شبابي وفتوتي؟ اثنان وعشرون . لم أشنق نفسي ، وما زلت على قيد الحياة . إذا كنت تعتقد أنك المعاني الأكبر في العالم ، اسأل ابتي ، أكوني ، كم توأمًا ولدت وطرحتهم بعيداً . ألم تسمع الأغنية التي ينشدونها عندما تموت امرأة؟

«لمن تكون الحياة حلوة ، لمن تكون الحياة حلوة؟

ليس هناك أحد تكون الحياة له حلوة» .

وليس لدى أكثر من هذا لأقوله لك» .

١٥ فصل

في السنة الثانية من نفي أوكونكwoo جاء صديقه أوبيريكا لزيارته . أحضر معه شابين ، يحمل كل منهما كيساً ثقيلاً على رأسه . ساعدهما أوكونكwoo في إزال حمليهما . كان واضحاً أن الكيسين مليئان بالودع .

سعد أوكونكwoo جداً باستقبال صديقه . وسعدت زوجاته وأطفاله أيضاً ، وكذلك أبناء خ مؤلته وزوجاتهم عندما أرسل في طلبهم وأخبرهم بشخصية ضيفه .

قال أحد أبناء خاله : «يجب أن تأخذه لتحية أبينا» .

لأحباب أوكونكwoo : «نعم . سنذهب فوراً» . لكن ، قبل أن يذهبوا ، همس في أذن زوجته الأولى . فأومأت برأسها ، وسرعان ما طارد الأطفال أحد ديوكمهم .

أخبر أوتشيندو أحد أحفاده بأن ثلاثة غرباء قدموا إلى دار أوكونكwoo . لذلك كان في انتظار استقبالهم . حين وصلوا إلى أوبيه ، مدّ يده نحوهم ، وبعد أن تصافحوا ، سأله أوكونكwoo عنهم .

- «هذا أوبيريكا ، صديقي الحميم . لقد حدثتك عنه من قبل» .

قال الشيخ ، ملتفتاً إلى أوبيريكا : «نعم . حدثني ابني عنك ، وأنا سعيد لأنك أتيت لزيارتني . لقد عرفتُ أباك ، إبويكا . كان رجلاً عظيماً . وكان له هنا أصدقاء كثيرون ، وكثيراً ما كان يأتي لزيارتهم . تلك كانت أياماً طيبة عندما كان للرجل أصدقاء في عشائر بعيدة . إن جيلكم لا يعرف ذلك . أنت تمكثون في بيوتكم ، وتخشون جاركم القاطن إلى جانبكم . حتى بلد أم الرجل أصبحت غريبة عليه في هذه الأيام» . ورمق أوكونكوا . «أنا رجل عجوز وأحب الكلام . ذلك هو كل ما أصلح له الآن» . نهض متوجعاً ، ومضى إلى غرفة داخلية وعاد بجوزة كولا .

سؤال وهو يعاود الجلوس على جلد الماعز : «من هم الشباب اللذان معك؟» . فأخبره أوكونكوا .

قال : «آه . أهلاً يا أبنائي» . وعرض عليهم جوزة الكولا ، وحين رأوها وشکروه ، كسرها ، ثم أكلوا منها .

قال لأوكونكوا مشيراً بأصبعه : «أدخل إلى تلك الغرفة . ستجد هناك زق نبيذ» .

جلب أوكونكوا النبيذ وبدأوا في الشرب . كان عمر النبيذ يوماً واحداً ، وقوياً جداً .

قال أوتشيندو بعد فترة صمت طويلة : «نعم . كان الناس يسافرون أكثر في تلك الأيام . وليس في هذه الأتحاء عشيرة واحدة لا أعرفها جيداً جداً . انيتنا ، أوموازو ، إيكويتشا ، إيلوميلو ، آبامي - أنا أعرفها جميعاً» .

سؤال أوبيريكا : «هل سمعت أن آبامي لم يعد لها وجود؟»

سؤال أوتشيندو وأوكونكوا معاً : «كيف ذلك؟»

قال أوبيريكا : «لقد محيت آبامي من الوجود . إنها قصة غريبة ومرعبة .
لولم أرَ بعض الناجين بعيني رأسي وسمعت قصتهم بأذني ، لما
صدقت» . سأله رفيقيه : «ألم يكن هذا يوم سوق إيكى حين فروا إلى
أوموفيا؟» فأومأ برأسهما موافقين .

قال أوبيريكا : «قبل ثلاثة أقمار ، في يوم سوق إيكى ، وصلت إلى
بلدتنا مجموعة صغيرة من اللاجئين الهاريين . كان معظمهم من أبناء
أرضنا الذين دُفنتْ أمهاتهم معنا . لكن كان هناك أيضاً أشخاص أتوا
لمجرد أن لهم أصدقاء في بلدنا ، وآخرون لم يستطيعوا التفكير في أي
مكان آخر يفرون إليه . هكذا فروا إلى أوموفيا بقصتهم المحزنة» . شرب
نبيذ النخيل ، وملأ أوكونكوا قرنه ثانية . تابع : «في موسم الزرع الماضي ،
ظهر رجل أبيض في عشيرتهم» .
قال أوكونكوا : «أمهق» .

رفشنبيذه : «لم يكن أمهق . بل كان مختلفاً تماماً . كان يمتلك
حصاناً حديدياً . هرب أول الأشخاص الذين رأوه ، لكنه توقف وأشار
إليهم . في النهاية ، اقترب الرجال الشجعان منه حتى لمسوه . شاور
الشيوخ وحبيهم فأخبرهم أن الرجل الغريب سيحطم عشيرتهم وينشر
الدمار بينهم» . شرب أوبيريكا قليلاً من النبيذ مرة أخرى . «لذلك قتلوا
الرجل الأبيض وقيدوا حصانه الحديدي إلى شجرتهم المقدسة ، فقد بدا
كأنه كان سيهرب ويستدعي أصدقاء الرجل . نسيت أن أخبركم عن أمر
آخر قاله الوحي . قال إن رجالاً أبضاً آخرين كانوا في الطريق إليهم . وأنهم
جراد وأن الرجل الأول كان رسولهم المؤقت لاستطلاع المنطقة . وهكذا
قتلوه» .

سؤال أوتشيندو : «ماذا قال الرجل الأبيض قبل أن يقتلوه؟»

أجاب أحد رفيقي أوبيريكا : «لا شيء» .

قال أوبيريكا : «ردد كلاماً ، لكنهم لم يفهموه . بدا أنه يتكلم من أنفه» .

قال رفيق أوبيريكا الآخر : «أخبرني أحدهم بأنه ردد مرات عديدة كلمة تشبه لفظ مباینو . ربما كان ذاهباً إلى مباینو وضلّ طريقة» .

استأنف أوبيريكا : «على أي حال ، قتلوا وربطوا حصانه الحديدية . كان هذا قبل أن يبدأ موسم الزرع . ولم يحدث شيء لفترة طويلة . هطلت الأمطار وبُدر اليام . وظلّ الحصان الحديدية مقيداً إلى شجرة القطن الحريري المقدسه . ذات صباح ، قدم ثلاثة رجال بيض تقودهم عصبة من أناس عاديين مثلنا إلى العشيرة . رأوا الحصان الحديدية ، ورحلوا . كان معظم رجال ونساء آبامي قد ذهبوا إلى مزارعهم . فرأى بعض أفراد منهم فقط هؤلاء الرجال البيض وأتبعهم . لم يحدث شيء آخر طوال أسابيع أسواق كثيرة . في آبامي سوق كبيرة في يوم من كل يومي آفرو ، فتجتمع العشيرة بأكملها هناك كما تعرفون . كان ذلك هو يوم الواقعة . فقد أحاط الرجال البيض الثلاثة وعدد كبير جداً من رجال آخرين بالسوق . ولابد أنهم استخدموه دواءً قوياً لاخفاء أنفسهم إلى أن امتلأت السوق . ثم بدأوا بإطلاق النار . قتل الجميع ، ما عدا العجائز والمرضى الذين كانوا في بيوتهم وحفلة من الرجال والنساء اللواتي كان تشيهين يقظاً وقد هم سالمين إلى خارج السوق» . توقف عن الكلام . «عشيرتهم الآن خالية تماماً . حتى السمك المقدس فرّ من بحيرتهم الغامضة ، واستحال لون البحيرة إلى لون الدم . إن شرّاً عظيماً حلّ بأرضهم ، تماماً كما حذر الوحي» .

سادت فترة صمت طويلة . صرف أوتشيندو بأسنانه بصوت مسموع . ثم انفجر قائلاً : «لا تقتل أبداً رجلاً لا يقول شيئاً . رجال آبامي أولئك كانوا حمقى . ماذا عرفوا عن الرجل؟» وصرف بأسنانه ثانية وروى قصة لإيضاخ نقطته . «بعثت الحدأة الأم مرة ابنتهما لإحضار طعام ، فذهبت وعادت بفرخ من البط . قالت الحدأة الأم لابتها : «أحسنت صنعاً ، لكن أخبريني ، ماذا قالت أم الفرخ عندما انقضضت واختطفت طفلها؟» أجبت الحدأة الصغيرة : «لم تقل شيئاً ، ابتعدت فقط» . قالت الحدأة الأم : «يجب أن تعيدي الفرخ . فوراء الصمت شيء مسؤول» . هكذا أعادت الحدأة الآبنة فرخ البط وأخذت كتكوت دجاجة بدلاً منه . فسألت الحدأة العجوز : «ماذا فعلت أم هذا الكتكوت؟» قالت الحدأة الصغيرة : «صرخت وعربدت وشتمتني» . قالت أمها : «إذن ، نستطيع أن نأكل الكتكوت . فما يصدر عن الذي يُكثر الصياح لا يخيف» . إن رجال آبامي أولئك حمقى حقاً» .

قال أوكونكوا بعد فترة صمت : «كانوا حمقى . لقد حذروا من أن الخطر أمامهم . كان يجب أن يتسلحوا ببنادقهم وسيوفهم حتى عندما ذهبوا إلى السوق» .

قال أوبيريكا : «القد دفعوا ثمن حماقتهم . لكنني خائف جداً . لقد سمعنا قصصاً عن رجال يبض صنعوا البنادق الفتاكه والشراب القوي وأخذوا بعيداً إلى ما وراء البحار ، لكن أحداً لم يصدق أن هذه القصص حقيقة» .

قال أوتشيندو : «ليست هناك قصة غير حقيقة . العالم لانهاية له ، وما

هو خير عند شعب هو شر مقيت عند شعوب أخرى . إن بينما رجالاً مُهقاً .
هل تعتقد أنهم جاؤوا إلى عشيرتنا خطأ ، أو أنهم ضلوا طريقهم إلى بلاد
حيث كل منْ يعيش فيها يشبهونهم؟»

أنجزت زوجة أوكونكوا الأولى إعداد الطعام خلال فترة وجيزة
وقدمت للضيوف وجبة كبيرة من الأيام المسحون ومرق أوراق الأشجار
المرة . أحضر ابن أوكونكوا ، نووبي ، زق نبيذ حلو ممزوج من نخيل
الرافية .

قال أوبيريكا لنووبي : «أنتَ رجل كبير الآن . صديقك أنيبي طلب مني
أن أبلغك تحياته» .

سأل نووبي : «هل هو بخير؟»

قال أوبيريكا : «كلنا بخير» .

أحضرت إيزينما طاسة من الماء ليغسلوا أيديهم به . بعد ذلك شرعوا
يأكلون ويشربون النبيذ .

سأل أوكونكوا : «متى انطلقتم من البيت؟»

قال أوبيريكا : «نوبنا الانطلاق من بيتي قبل صيام الديك . لكن نويكي
لم يخرج إلا بعد أن طلع النهار تماماً . يجب ألا يتفرق المرء على موعد مبكر
مع رجل تزوج لته زوجة جديدة» . وضحك الجميع .

سأل أوكونكوا : «وهل تزوج نويكي؟»

قال أوبيريكا : «تزوج ابنة أوكيديجو الثانية» .

قال أوكونكwoo : «ذلك حسن جداً . أنا لا ألومك لعدم سماحك صياغة الديك» .

عندما انتهوا من الأكل ، أشار أوبيريكا إلى الكيسين الثقيلين .

قال : «هذا المال من يامك . لقد بعث حبات اليام الكبيرة فور رحيلك . فيما بعد ، بعث قسماً من بذور اليام ووزعها على مزارعين محاصصين . سأفعل ذلك كل سنة إلى أن تعود . لكنني أظن أنك قد تحتاج إلى المال الآن ، لذلك أحضرته . منْ يعرف ماذا يمكن أن يحدث غداً؟ قد يأتي رجال خضر إلى عشيرتنا ويقتلوننا رمياً بالرصاص» .

قال أوكونكwoo : «لن يسمع الإله بذلك . لا أدرى كيف أشكرك» .

قال أوبيريكا : «أستطيع إخبارك ، أقتل أحد أبنائك من أجلي» .

قال أوكونكwoo : «لن يكون ذلك كافياً» .

قال أوبيريكا : «إذن اقتل نفسك» .

قال أوكونكwoo مبتسمًا : «اعذرني . لن أردد الشكر لك أكثر مما ردت» .

١٦ فصل

عندما زار أوبيريكا صديقه مرة أخرى في المنفى بعد سنتين كانت الظروف أقل سعادة . فقد وصل المبشرون إلى أمووفيا . بنوا كنيستهم هناك ، وكسروا حفنة من المهدتدين وراحوا يرسلون مبشرين إلى المدن والقرى المجاورة . كان ذلك مصدر أسى كبير لزعماء العشيرة ، لكن كثيراً منهم اعتقدوا أن الإيمان الغريب وإله الرجل الأبيض لن يدوما . لم يكن بين المهدتدين أي رجل مسموع الكلمة في اجتماع القوم . كما لم يكن بينهم أي رجل يحمل لقباً . كان معظمهم من نمط الناس المدعوين إيفوليفو ، رجال لا قيمة لهم وخواين . كانت صورة الإيفوليفو في لغة العشيرة تدل على رجل باع سيفه وتقلد الدرع وانطلق إلى المعركة . وقد دعت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، المهدتدين ببراز العشيرة ، وقالت إن الإيمان الجديد كلب مسحور جاء للتهام هذا البراز .

ما دفع أوبيريكا لزيارة أوكونكوا هو الظهور المفاجئ لابن الأخير ، نوبي ، بين المبشرين في أمووفيا .

سأله أوبيريكا حين سمح له المبشرون ، بعد صعوبات كثيرة ، بالتحدث إلى الفتى : «ماذا تفعل هنا» .

أجاب نووي: «أنا واحد منهم».

قال أوبيريكا : «كيف حال أريك؟» لم يعرف شيئاً آخر ي قوله .

قال نووي بتعasse: «لأعرف . إنه ليس أبي» .

أحدث وصول المبشرين اضطراباً كبيراً في قرية مباتنا . كانوا سته مبشرين ، واحد منهم فقط رجل أبيض . خرج كل رجل ، زامراً لرؤيه الرجل الأبيض . فقد تزايدت الروايات حول هؤلاء الرجال ^أ . بيبنمنذ أن قتل واحد منهم في آبامي وربط حصانه الحديدى إلى شجرة القطن الحريري المقدسة . هكذا حضر الجميع لرؤيه الرجل الأبيض . كان ذلك هو الوقت من السنة حين يمكث الجميع في منازلهم . إذ كان الحصاد قد انتهى .

حين احتشدوا كلهم . بدأ الرجل الأبيض يتحدث إليهم . تحدث عن طريق مترجم من الإيبيو ، لكن لهجته كانت مختلفة وثقيلة الوقع على آذان أبناء مبانتا . ضحك كثيرون على لهجته والطريقة التي استعمل بها الكلمات على نحو غريب . فبدلًا من أن يقول «نفسي» قال دائمًا «عجيبة» . لكنه كان رجلاً مهيباً الحضور واستمع أبناء العشيرة إليه . قال إنه كان واحداً منهم ، كما يرون من لونه ولغته . والسود الأربعه الآخرون هم إخوانهم ، مع أن أحدهم لا يتكلم لغة الإيبيو . والرجل الأبيض أيضاً أخوه لأنهم جميعاً أبناء الرب . أخبرهم عن هذا الرب الجديد ، خالق كل العالم وجميع الرجال والنساء . أخبرهم بأنهم يعبدون آلهة زائفة ، آلهة

من الخشب والحجارة . سرت همهمة عميقة بين الجمّهور حين قال هذا . أخبرهم بأنّ الرب الحقيقى يعيش في الأعلى وأنّ جميع الناس حين يموتون يمثلون أمام الرب للحساب . فالأشرار وكل الوثنيين الذين ينحون في عمامهم للخشب والحجارة يلقون في نار تستعمل مثل زيت النخيل . أما الرجال الآخيار الذين عبدوا الرب الحقيقى ، فسيحيون إلى الأبد في مملكته السعيدة . قال : «أرسلنا هذا الرب العظيم لنطلب منكم التخلّي عن طرّقكم الشريرة وأهتّكم الزائفه والتوجّه إليه لعلّكم تنجون عندما تموتون» .

قال شخص باستخفاف : «عجيزتك تفهم لغتنا» ، وضحك الجمّهور .

سأل الرجل الأبيض مترجمه : «ماذا قال» . لكن ، وقبل أن يتمكّن من الإجابة ، سأل شخص آخر سؤالاً : «أين حصان الرجل الأبيض؟» تشاور مبشر وابيوا فيما بينهم وقرروا أنّ الشخص ربما عنى دراجة هوائية . أخبروا الرجل الأبيض ، فابتسم هذا بتسامح .

قال : «أخبرهم بأنّي سأحضر أحصنة حديديّة كثيرة عندما نستقر بينهم . وسيركب بعضهم الحصان الحديدي بأنفسهم» . ترجم جواب الرجل الأبيض ، لكن عدداً قليلاً جداً منهم سمعوه . فقد كانوا يتحدثون فيما بينهم بانفعال لأنّ الرجل الأبيض قال إنه سيعيش بينهم . فلم يخطر ذلك ببالهم .

في تلك اللحظة قال شيخ أن لديه سؤالاً . سأّل : «من هو إلهكم هذا . ربّ الأرض ، إله السماء ، أماديورا الصاعقة ، أو ماذا؟»

تحدث المترجم مع الرجل الأبيض وردّ على السؤال فوراً : «جميع

الآلهة التي سميتها ليست آلهة أبداً . إنها آلهة خداع تأمركم بقتل رفاقكم وإهلاك أطفال أبرياء . هناك إله واحد حقيقي فقط وله ملك الأرض والسماء وأنت وأنا ونحن جمِيعاً .

سؤال آخر : «إذا ترَكنا آلهتنا واتبعنا إلهك ، مَنْ سيحمِّينا من غضب آلهتنا المهمَلة وأجدادنا؟»

أجاب الرجل الأبيض : «آلهتكم ليست حية ولا تستطيع أن توقع بكم أي أذى . إنها قطع من خشب وحجارة» .

حين تُرجم هذا الكلام إلى رجال مباننا ، انفجروا مقهقحين بسخرية . قالوا فيما بينهم : لابد أن هؤلاء الرجال مجانيين . كيف يقولون إن آتني وأماديورا غير مؤذين؟ وإديملي وإيجووجو وأيضاً؟ وبدأ بعضهم بالابتعاد .

عندئذ ، انفجر المبشرون بالأشاد . كانت واحدة من تلك الاناشيد التبشيرية المرحة والبهيجة القادرة على العزف على أوتار ساكنة ومحبرة في قلب إنسان من قبيلة إيبو . شرح المترجم كل بيت من أبيات الأنشودة للجمهور ، فوقف بعضهم الآن مفتونين . كانت قصة أخوة عاشوا في الظلام والخوف ، جاهلين حب الرب . وحكت عن غنمة هناك فوق التلال ، بعيدة عن أبواب الرب وعن عناية الراعي الحنون .

بعد الإشاد ، تحدث المترجم عن ابن الرب الذي اسمه جيسوس كريشي . قال أوكونكوا ، الذي مكث فقط على أمل أن يتهمي الأمر بطرد الرجال خارج القرية أو جَلْدهم : «أخبرتنا بلسانك أن هناك إليها واحداً فقط . والآن تتحدث عن ابنه . لابد وأن له زوجة إذن» . ووافقه الجمهور .

قال المترجم ، بالتواء إلى حد ما : «لم أقل إن له زوجة» .

قال العابث : «عجيزتكم قالت إن له ابناً . إذن لابد وأن تكون له زوجة ولا بد أن لهم كلهم أردافاً» .

تجاهله المبشر وواصل كلامه متتحدثاً عن الثالوث المقدس . في نهاية هذا ، اقتنع أوكونكovo تماماً أن الرجل مجنون . فهز كتفيه ومضى لينزل نيزد بعد الظهر .

لكن هناك فتى شاباً أسر الحديثُ لَبَّه . كان اسمه نووبي ، ابن أوكونكovo البكر . لم يكن منطق الثالوث المقدس المجنون هو الذي أسر لَبَّه . إنه لم يفهمه . بل كان شعر الدين الجديد ، شيئاً محسوساً في نخاع العظم . فقد بدا أن الأنسودة عن الأخوة القابعين في الظلام والخوف تجيب على سؤال غامض وملح سكن روحه الغضة . السؤال عن التوأمين الباكيين في الأجمة والسؤال عن إيكيميفونا الذي قتل . فأحس بارتياح في داخله فيما كانت الأغنية تتدفق إلى روحه القاحلة المحترقة . كانت كلمات الأنسودة مثل قطرات مطر متجمد تذوب في الصفحة الجافة للأرض اللاهثة الجافة . وانتابت عقل نووبي الغر حيرة شديدة .

١٧ فصل

قضى المبشرون لياليهم الأربع أو الخمس الأولى في ساحة السوق ، وذهبوا في الصباح إلى القرية للتبشر بالإنجيل . سألوا عن ملك القرية ، لكن القرويين أخبروهم بأنه لا يوجد ملك . قالوا لهم : «لدينا رجال يحملون ألقاباً رفيعة ورؤساء الكهنة والشيوخ» .

لم يكن من السهل جمع حملة الألقاب الرفيعة والشيوخ معاً بعد إثارة اليوم الأول . لكن المبشرين ألحوا ، فاستقبلتهم سادة مبانتا في النهاية . فطلب أولئك قطعة أرض يبنون عليها كنيستهم .

كانت لكل عشيرة وقرية «غابة شر» . وقد دفن فيها كل المتوفين من الأمراض الشريرة حقاً ، مثل الجذام والجدرى . كما كانت أرض المكب التي تلقى فيها طواغيت *Fetishes* رجال الطب العظام بعد موتهم . لذلك ، كانت «غابة الشر» معمرة بقوى شريرة وقوى ظلام . كانت غابة كهذه هي التي منحها حكام مبانتا للمبشرين . فهم لم يريدهم حقاً في عشيرتهم ، لذلك عرضوا عليهم ذلك العرض الذي لا يمكن لأحد سليم العقل أن يقبل به .

قال أوتشيندو لأفرانه حينما تشاوروا فيما بينهم : «يريدون قطعة أرض ليبنيوا عليها مقامهم . ستعطى لهم قطعة أرض». صمت قليلاً ، فسرت مهممة دهشة واستهجان . «لتعطى لهم جزءاً من غابة الشر . إنهم يفاخرون بالانتصار على الموت . لتعطى لهم ساحة معركة حقيقة لكي يظهروا فيها انتصارهم» . فضحكوا ووافقوا ، وأرسلوا في طلب المبشرين الذين طلبا منهم أن يتركوهم لفترة من الوقت ريثما «يتهامسون معاً» . وقد عرضوا عليهم قدر ما يعنيهم أخذه من غابة الشر . ولدهشتهم الشديدة شكرهم المبشرون وانفجروا منشدين .

قال بعض الشيوخ : «إنهم لا يفهمون» . لكنهم سيفهمون عندما يذهبون إلى نصيهم من الأرض غداً صباحاً» . ثم تفرقوا .

في صباح اليوم التالي ، بدأ الرجال المخبولون بتنظيف جزء من الغابة وبناء بيتهم . توقع سكان مبانا لهم جميعاً الموت في غضون أربعة أيام . مرّ اليوم الأول والثاني والثالث والرابع ، لم يمت أي منهم . فذهل الكل . ثم أصبح معروفاً أن طاغوت الرجل الأبيض قوّة لا تصدق . وقيل إنه يضع نظارة على عينيه لكي يتمكن من أن يرى الأرواح الشريرة ويتكلم معها . ولم تمضِ فترة طويلة حتى فاز بأول ثلاثة مهتدين .

مع أن الإيمان الجديد اجتذب إليه نوويي منذ اليوم الأول نفسه ، إلا أنه أبقي هذا سراً . لم يجرؤ على الاقتراب من المبشرين خوفاً من أبيه . لكن نوويي ظلّ يقف في ساحة السوق المكشوفة أو ملعب القرية كلما أتوا للتبيشير هناك . وقد بدأ يحفظ بعض القصص البسيطة التي قصوها .

قال السيد كياجا المترجم ، الذي أصبح الآن مسؤولاً عن الرعية الوليدة : «لقد بنينا الآن كنيسة» . فقد عاد الرجل الأبيض إلى أوموفيا ، حيث بنى مقر قيادته ، ومنها كان يقوم بزيارات منتظمة لرعية كياجا في مبانتا .

قال السيد كياجا : «لقد بنينا الآن كنيسة ونريدكم أن تأتوا جميعاً في اليوم السابع من الأسبوع لعبادة الرب الحقيقي» .

في يوم الأحد التالي ، مرّ نوبي أمام البيت الصغير المبني من الطين الأحمر والمسقوف بالقش ، وعاود المرور دون أن يستجتمع ما يكفي من الشجاعة ليدخل . سمع صوت الإنشاد ، ومع أنه صدر عن حفنة من الرجال ، إلا أنه كان عالياً ومفعماً بالثقة . انتصبت كنيستهم وسط فسحة دائرة فبدت كفم غابة الشر المفتوح . هل كانت تنتظر لتطبيق بأسنانها عليهم؟ بعد أن مرّ نوبي جيئه وذهاباً أمام الكنيسة ، عاد إلى بيته .

عرف جيداً بين سكان مبانتا أن آلهتهم وأجدادهم يحتملون أحياناً الإساءة طويلاً ، وأنهم قد يتعمدون إفساح المجال أمام إنسان للاستمرار في تحديهم . لكنهم ، حتى في مثل هذه الحالات ، حددوا سبعة أسابيع أسوق أو ثمانية وعشرين يوماً . بعد ذلك الحد ، لن يتحمل أي إنسان ما سيجري . لذلك تعاظمت الإثارة في القرية مع اقتراب الأسبوع السابع منذ أن بنى المبشرون الوقحون كنيستهم في غابة الشر . كان القرويون واثقين من المصير المحتوم الذي ينتظر هؤلاء الأشخاص إلى حد أن شخصاً أو اثنين من المؤمنين الجدد فكروا أن من الحكمة تعليق ولائهم بالإيمان الجديد .

أخيراً ، حلّ اليوم المفروض أن يشهد وفاة جميع المبشرين . لكنهم استمروا في الحياة ، وبنوا بيتاً جديداً من الطين الأحمر والقش لمعلّمهم ، السيد كياجا . ففازوا في ذلك الأسبوع بحفلة أخرى من المهتمين . كان بينهم ، للمرة الأولى ، امرأة . كان اسمها نيكاكا ، زوجة أمادي الذي كان فلاحاً ناضجاً . كانت ثقيلة جداً بحملها .

كانت نيكاكا قد حبّلت أربع مرات وأنجبت أطفالاً . لكنها في كل مرة ولدت توأميين ، فطرحا في الغابة على الفور . وكان زوجها وعائلته قد أصبحوا لاذعي النقد لامرأة كهذه ، ولم ينزعجوا كثيراً عندما اكتشفوا أنها فرّت لالتحاق بالمسيحيين . فأراهم تخلّصهم منها .

ذات صباح ، كان ابن خال أوكونكوا ، أميكوكو ، ماراً قرب الكنيسة في طريق عودته من قرية مجاورة حين رأى نووبي بين المسيحيين . دهش دهشة عظيمة ، وحال وصوله إلى قريته ، اتجه مباشرة إلى كوخ أوكونكوا وأخبره بما رأه . فشرعت النسوة بالحديث بإنفعال ، لكن أوكونكوا ظلّ جالساً دون تأثر .

كان الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر حين عاد نووبي . دخل إلى الأوبي وحيا أباءه ، لكن هذا لم يرد عليه . استدار نووبي ليتجه نحو المجمع الداخلي عندئذ ، فوثب أوكونكوا فجأة ، وقد تملّكه الغضب ، وأمسك بابنه من رقبته .

تلعثم : «أين كنت؟»

جاهد نووبي ليحرّر نفسه من القبضة الخانقة .

زار أوكونكoo : «أجبني قبل أن أقتلك». تناول عصا غليظة موضوعة على السور الواطئ وضربه بها بوحشية مرتين أو ثلاث مرات .

زار مرة أخرى : «أجبني !» وقف نوبي محدقاً فيه ، ولم يتفوه بكلمة . كانت النسوة تصرخ من الخارج ، وقد خف أن يدخلن .

قال صوت في المجمع الخارجي : «أترك ذلك الفتى فوراً !» كان صوت خال أوكونكoo ، أوتشيندو . «هل جنت؟» لم يجب أوكونكoo . لكنه أفلت نوبي الذي سار مغادراً البيت ولم يعد إليه إطلاقاً .

عاد إلى الكنيسة وأخبر السيد كياجا بأنه قرر الذهاب إلى أومووفيا حيث أنشأ المبشر الأبيض مدرسة لتعليم الفتىان المسيحيين القراءة والكتابة .

كان سرور السيد كياجا عظيماً . وترنم : «طوبى للذي يهجر أباه وأمه من أجلني . إن الذين يسمعون كلماتي هم أبي وأمي» .

لم يفهم نوبي ما قيل تماماً . لكنه كان سعيداً لهجره أبيه . سيعود فيما بعد إلى أمه وأخواته وأخوه ويهدىهم إلى الإيمان الجديد .

بينما كان أوكونكoo جالساً في كوخه في تلك الليلة ، محدقاً في النار ، فكر في المسألة . فثار غضب فجائي في داخله وأحس برغبة قوية في تناول سيف التحطيب ، والذهاب إلى الكنيسة ومحو العصابة الخسيسة الكافرة بأكملها . لكنه حدث نفسه ، بعد تفكير عميق ، أن نوبي لا يستحق القتال من أجله . صاح في قلبه : لماذا يُلعن هو أوكونكoo ، من بين جميع

الناس ، بمثل هذا الابن؟ رأى بوضوح في هذا الأمر اصبع إلهه الشخصي أو التشي . وإنما يمكّن أن يفسر المصيبة الكبيرة التي أصابته والمنفي ، وسلوك ابنه المشين الآن؟ الآن ، وقد أتسع وقته للتفكير في هذا ، لاحت له جريمة ابنه بفداحتها الصارخة . فهُجُر الإنسان لآلله أبيه والتجول مع الكثير من رجال مختفين يقوّون كدجاج عجائز هو بلوغ أسفل سافلين . لنفترض أنه بعد موته قرر كل أطفاله الذكور السير على خطى نووبي والتخلّي عن أجدادهم؟ أحسّ أوكونكwoo برعشة باردة تسرّي في عروقه مما يخبئه المستقبل الرهيب ، مثل احتمال الفناء . رأى نفسه وأباءه محشدين حول مقام أجدادهم ينتظرون عثناً العبادة والقرابين ولا يجدون شيئاً سوى رماد الأيام الماضية ، بينما أطفاله في هذه الأثناء يصلّون لـإله الرجل الأبيض . لو حدث مثل هذا الأمر فسيقدم هو ، أوكونكwoo ، على محوّهم عن وجه البسيطة .

دُعي أوكونكwoo على نطاق شعبي بـ«اللهب الهادر» ، وفيما كان يتطلع إلى النار ، تذكر الاسم . كان هو ناراً لاهبة . كيف أمكن إذن أن ينجب ابنًا مثل نووبي ، منحلاً ومحثثاً؟ ربما لم يكن ابنه . لا ! لا يمكن أن يكون ابنه . لقد خدعته زوجته . سيلقنه درساً ! لكن نووبي يشبه جده ، أوونوكا ، الذي كان أباً أوكونكwoo . فطرد الفكرة من ذهنه . كان أوكونكwoo ، يدعى بنار لاهبة . كيف أمكن إذن أن ينجب امرأة بدلاً من ابن؟ عندما كان في مثل سن نووبي ، كان قد أصبح مشهوراً في جميع أنحاء أومووفيا لمصارعته وعدم خوفه .

تنهد بعمق ، وتنهدت قطعة الحطب المحترقة كأنها تبدي تعاطفها معه . ففتحت عيناً أو كونكوا على الفور وأدرك المسألة برمتها بوضوح . إن النار الحية تنجذب رماداً عاجزاً بارداً . فتنهد مرة أخرى ، بعمق .

١٨ فصل

واجهت الكنيسة الناشئة في مبانتها عدة أزمات في مرحلة مبكرة من حياتها . في البداية ، ظنت العشيرة بأنها لن تعيش . لكنها واصلت العيش واشتد ساعدها تدريجياً . قلقت العشيرة ، لكن ليس إلى حد مفرط . فإذا قررت عصابة من الإيفوليفو أن تعيش في غابة الشر ، فهذا شأنها . وغابة الشر ، عندما يفكر المرء في الموضوع ، هي المأوى المناسب لأشخاص غير مرغوب فيهم كهؤلاء . صحيح أنهم ينقدون التوائم من الأجمة ، لكنهم لم يحضر وهم مطلقاً إلى القرية . فالتوائم ، من وجهة نظر القرويين ، مازالوا حيث ألقى بهم . ومن المؤكد أن ربة الأرض لن تعاقب القرويين الأبراء على خطايا المبشرين .

إلا أن المبشرين حاولوا ذات مرة أن يتجاوزوا حدودهم . فقد ذهب ثلاثة مهتدين إلى القرية وتفاخروا علينا بأن جميع الآلهة ميتة وعجزة وأنهم مستعدون لتحديها بإحرق جميع مقاماتها .

قال أحد الكهنة : «إذهبوا واحرقوا فروج أمهاطكم» .

أمسك القرويون بهم وضربوهم حتى سالت دمائهم . لم يحدث شيء بعد ذلك بين الكنيسة والعشيرة لمدة طويلة .

لكن قصصاً بدأت تشيع مرددة أن الرجل الأبيض لم يحضر ديناً فحسب ، بل أحضر حكومة أيضاً . قيل إنهم بنوا مبني للقضاء في أومووفيا ليحمو أتباع دينهم . وقيل حتى إنهم شنقاً رجلاً قتل مبشراً .

مع أن قصصاً كهذه ترددت كثيراً ، إلا أنها ظلت تبدو في مباننا ك الأساطير ، ولم تؤثر على العلاقة بين الكنيسة الجديدة والعشيرة . لم يكن قتل مبشر وارداً هنا ، فالسيد كياجا ، على الرغم من جنونه ، كان غير مؤذ بنا . وبالنسبة لمهنته ، لا أحد يستطيع قتلهم دون أن يضطر للفرار من العشيرة ، فعلى الرغم من قلة شأنهم ، إلا أنهم ما زالوا يتسمون للعشيرة . هكذا لم يعر أحد اهتماماً جدياً للقصص التي تدور حول حكومة الرجل الأبيض أو عواقب قتل المسيحيين . وإذا تسببوا في متاعب أكثر مما فعلوا ، فبالإمكان بكل بساطة طرد هم من العشيرة .

كانت الكنيسة الصغيرة في تلك اللحظة أيضاً منغمسة بعمق في مشاكلها الخاصة إلى حد حال دون إزعاج العشيرة . وقد بدأ الأمر كله بمسألة قبول المنبوزين .

بعد أن رأى هؤلاء المنبوزون ، أو أوسو ، الدين الجديد يرحب بالتوائم والآلام المشابهة ، اعتقدوا أن الممكן أيضاً احتضانهم . هكذا دخل اثنان منهم ذات أحد إلى الكنيسة . فأحدث دخولهما اضطراباً فورياً ، لكن تأثير الدين الجديد على المهتدين كان عظيماً إلى درجة أنهم لم يغادروا الكنيسة حينما دخلها المنبوزان . اكتفى أولئك الذين وجدوا أنفسهم أقرب الجميع إلى هذين المنبوزين بالانتقال إلى مقعد آخر فقط . كان هذا التصرف معجزة . لكن هذا دام فقط حتى نهاية القدس . فقد رفع جميع أتباع الكنيسة عقيرتهم بالاحتجاج وكادوا أن يطردوا هذين الاثنين إلى

الخارج ، لكن السيد كياجا أوقفهم وبدأ يشرح .

قال : «أمام الرب ، ليس هناك عبد أو حرّ . نحن جميعاً أطفال الرب ، ويجب أن نستقبل أخوينا هذين» .

قال أحد المهددين : «أنت لاتفهم الأمر . ماذا سيقول الوثنيون حين يسمعون أننا نستقبل أوسو بين صفوتنا؟ سيفضحون» .

قال السيد كياجا : «دعهم يفضحون . سيفضحون الرب منهم في يوم الحساب . لماذا تثور الأمم وتتخيل الشعوب شيئاً باطل؟ إن ذلك الذي يجلس في السموات هو الذي سيفضحك . إن الرب سيهزا بهم» .

استمر المهددي : «أنت لاتفهم . أنت معلمون ، وتستطيع أن تعلمنا أشياء عن الإيمان الجديد . لكن هذه مسألة نعرفها نحن» . وأخبره ماذا يعني الأوسو .

إنه شخص مندور لإله ، شيء وضع جانباً - تابو إلى الأبد ، هو وأطفاله بعده . إنه لا يستطيع أن يتزوج امرأة حرّة كما لا يستطيع امرأة حرّة أن تتزوجه . إنه منبوذ فعلاً ، يعيش في منطقة خاصة من القرية ، قريباً من المقام العظيم . حيثما يذهب يحمل معه طائفته المحترمة - شعر طويل متشابك قذر . الموسى تابو بالنسبة إليه . ولا يستطيع أوسو حضور اجتماع الأحرار ، والأحرار بدورهم لا يستطيعون الاحتماء تحت سقفه . لا يستطيع الحصول على أي من ألقاب العشيرة الأربع ، وحين يموت يدفنه أقرانه من البشر في غابة الشر . كيف يمكن لشخص كهذا أن يكون تابعاً للمسيح؟

قال كياجا : «إنه يحتاج إلى المسيح أكثر منك ومني» .

قال المهددي : «إذن سأعود إلى عشيرتي» . وعاد إليها . اتّخذ السيد

كياجا موقفاً حازماً ، وكان حزمه هو الذي أنقذ الكنيسة الناشئة . فاستمد المهددون المترددون الإلهام والثقة من إيمانه الراسخ . وأمر السيد كياجا المنبوذين بقص شعريهما الطويلين المتشابكين . في البداية ، خشي هذان المنبوذان أن يموتا .

قال السيد كياجا : «إذا لم تخلصا من علامة إيمانكم الوثني ، فلن أقبلكم في الكنيسة . إنكم تخشيان أن تموتا . لماذا تخشيان ذلك؟ ما هو اختلافكم عن الرجال الآخرين الذين يقصون شعورهم؟ نفس الرب خلقكم وخلقهم . لكنهم نبذوكما كمجذومين . هذا ضد إرادة الرب الذي وعد كل من يؤمن باسمه المقدس بالحياة الأبدية . الوثنيون يقولون إنكم ستموتان إن فعلتما هذا أو ذاك ، وأنتما خائفان . قالوا أيضاً أنني سأموت إذا بنيت كنيستي على هذه الأرض . هل مت؟ قالوا إنني سأموت إذا رعيت التوائم . وها أنا ما أزال حياً . إن الوثنيين لا ينطقون إلا بالباطل . كلمة الرب وحدها هي الصادقة» .

حقق المنبوذان شعريهما ، وسرعان ما أصبحا أشد المهددين تمسكاً بالإيمان الجديد . وما زاد على هذا أن جميع الأوسو في مبانتا تقريراً حذوا حذوهما . وكان أحدهم في الحقيقة من وضع ، بحماسه ، الكنيسة في صراع مع العشيرة بعد سنة بقتله ثعبان النهر المقدس ، فيض إلى الماء .

كان الثعبان الملكي مبجلاً أكثر من جميع الحيوانات في مبانتا والعشائر المجاورة . كان يُخاطب بـ «أبانا» ، ويسمح له أن يذهب حيثما شاء ، حتى إلى فراش الناس . فيأكل الجرذان في المنازل ويلتهم أحياناً بيض الدجاج . وإذا قتل رجل العشيرة ثعباناً ملكياً دون قصد ، يقدّم القرابين تكفيراً ويسيء باحتفال جنائزي باهظ التكاليف شبيه بطقس دفن رجل

عظيم . لم تكن هناك عقوبة موضوعة للرجل الذي يقتل ثعبان الملكي عمداً . إذ لم يتخيّل أحد أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث .

ربما لم يحدث هذا أبداً . وقد نظرت العشيرة إلى الأمر في البداية على هذا النحو . لم يشاهد أحد رجلاً يقتل ثعبان النهر . القصة برمتها نشأت في أوساط المسيحيين أنفسهم .

لكن ، وبالرغم من ذلك ، اجتمع حكام وشيوخ مبانتا ليقرروا ما سيفعلونه . تحدث كثير منهم مطولاً ويعنف . رفت روح الحرب فوقهم . فقال أوكونكwoo ، الذي كان قد بدأ يلعب دوراً في قضيّاً بلد أمه ، لن يسود السلام ما لم تطرد العصابة الشريرة إلى خارج القرية بالسياط .

لكن كثرين آخرين رأوا الوضع بصورة مختلفة ، وكانت مشورتهم هي التي سادت في النهاية .

قال أحدهم : «ليس من عادتنا أن نقاتل بدلاً عن آلهتنا . علينا ألا نشرع في هذا الآن . إذا قتل رجل ثعبان نهر مقدس سراً في كوهه ، فالمسألة بيته وبين الإله . فنحن لم نرّه . وإذا وضعنا أنفسنا بين الإله وضحيته فقد نتلقى اللطمات الموجهة إلى المسيء . عندما يجذّب رجل ، ماذا نفعل ؟ هل نذهب ونغلق فمه ؟ لا . إننا نضع أصابعنا في آذاننا لنكفّ عن سماعه . وهذا عمل حكيم» .

قال أوكونكwoo : «دعونا لاننا نقاش الأمر كالجبناء . إذا دخل رجل إلى كوهه وتغوط على الأرض ، ماذا أفعل ؟ هل أغمض عينيّ . لا ! بل أتناول عصا وأكسر رأسه . هذا ما يفعله رجل . إن هؤلاء الناس يصيّبون الأقدار يومياً فوق رؤوسنا ، وأوكبيكي يقول إننا يجب أن نتظاهر بأننا لأنّي» .

أطلق أوكونكoo صوتاً مليئاً بالاشمئاز . فكر : هذه قبيلة نساء . مثل هذا ما كان يحدث مطلقاً في أرض الآباء ، أومووفيا .

قال رجل آخر : «صدق أوكونكoo في قوله . يجب أن نفعل شيئاً . دعونا نبذ هؤلاء الرجال . بذلك لانحاسب على آثامهم» .

أدلى كل من حضر الاجتماع برأيه ، وتقرر في النهاية نبذ المسيحيين . فصرف أوكونكoo بأسنانه بقرف .

في تلك الليلة طاف مناد في طول مبانٍها وعرضها وأعلن أن أتباع الدين الجديد يطردون من الآن فصاعداً من حياة وامتيازات العشيرة .

وكان عدد المسيحيين قد تعاطم الآن وأصبحوا يكّونون مجتمعاً صغيراً من رجال ، ونساء وأطفال ، مطمئنين وواثقين من أنفسهم . راح السيد براون ، المبشر الأبيض ، يقوم بزيارات منتظمة لهم . قال : «حين أفك في أن البذرة الأولى زُرعت بينكم منذ ثمانية عشر شهراً فقط ، أدهش لعمل رب» .

كان اليوم هو الأربعاء في الأسبوع المقدس ، فطلب السيد كياجا من النساء إحضار طين أحمر وطباشير بيضاء وماء لفرك الكنيسة لعيد الفصح ، فقسمت النساء أنفسهن إلى ثلث فرق لهذه الغاية . انطلقن في الصباح الباكر ، بعضهن يحملن جرار ماء اتجههن بها إلى الجدول ، ومجموعة أخرى يحملن مجارفَ وسلاماً اتجههن بها إلى حفرة الطين الأحمر في القرية ، وتوجهت آخريات إلى مقلع الطباشير .

كان السيد كياجا يصلّي في الكنيسة حين سمع النسوة يتحدثن

بانفعال . اختتم صلاته وخرج ليرى حول ماذا يدور كل هذا . لقد عادت النساء إلى الكنيسة بجرار فارغة . قلن إن عدداً من الشباب طاردوهن وطربوهن بعيداً عن الجدول بالسياط . بعد فترة وجيزة ، عادت النسوة اللواتي ذهبن لجلب الطين الأحمر بسلال فارغة ، وقد تعرّض بعضهن للجلد بقسوة . كما عادت أيضاً النسوة اللواتي ذهبن لجلب الطباشير ليروين قصة مشابهة .

سأل السيد كياجا الذي عرته حيرة شديدة : «ماذا يعني كل هذا؟»
قالت إحدى النساء : «اعتبرتنا القرية خارجين على القانون . أعلن رجلُ الجرس هذا في الليلة الماضية . لكن ، ليس من عُرْفنا حرمان أي شخص من الجدول أو المقلع» .

قالت امرأة أخرى : «إنهم يريدون تدميرنا . لن يسمحوا لنا بالذهاب إلى السوق . قالوا ذلك» .

كان السيد كياجا على وشك أن يرسل في طلب رجاله المهددين من القرية حين شاهدهم قادمين من تلقاء أنفسهم . لقد سمعوا جميعاً رجل الجرس طبعاً ، لكنهم لم يسمعوا مطلقاً في حياتهم بحرمان النساء من الوصول إلى الجدول .

قالت النساء : «هياً معنا . سنذهب معكم لملاقة هؤلاء الجبناء» .
حمل بعضهم عصياً غليظة وحمل بعضهم الآخر حتى سيف تحطيم .
لكن السيد كياجا كبح جماحهم . فقد أراد أن يعرف أولاً لماذا اعتبروهم خارجين على القانون .

قال رجل : «يقولون إن أووكولي قتل ثعبان النهر المقدس» .

قال آخر : «هذا كذب . أخبرني أو كولي نفسه أن هذا ليس صحيحاً .
لم يكن أو كولي حاضراً ليجيب . فقد وقع صريع المرض في الليلة
الماضية . وقبل أن يطلع النهار عليه ، مات . أظهر موته أن الآلهة لا تزال
قادرة على خوض معاركها . فلم تر العشيرة عندئذ سبباً لمضايقة
المسيحيين .

١٩ فصل

راحت آخر أمطار السنة الغزيرة تهطل . كان الوقت مناسباً لدوس الطين الأحمر المستخدم في بناء الجدران . ولا يجري عمل هذا قبل ذلك ، فالأمطار غزيرة جداً وستجرف كومة الطين المداس بالأقدام ، كما لا يمكن عمل هذا بعد ذلك ، فالحصاد سيحين موعده قريباً ، ثم سيحل الفصل الجاف .

سيكون هذا حصاد أوكونكوا الأخير في مباننا . فالسنوات السبع الماضية سدى والمرهقة شارت متباقة على الانتهاء أخيراً . ومع أن أوكونكوا نجح في بلد أمه ، إلا أنه يعرف أنه كان سينجح أكثر في أومووفيا ، أرض آبائه حيث الرجال شجعان ومحاربون أشداء . في هذه السنين السبع ، كان سيعملون إلى أرفع مستوى . لذلك أسف على كل يوم من أيام نفيه . كان أقارب أمه طيبين جداً معه ، وهو ممنون لهم ؛ لكن ذلك لن يغير الحقائق . وقد دعا أول طفلة ولدت له في المنفى نيكـاـ «الأم هي الأسمى» ، بداع من الأدب نحو أقارب أمه . لكن ، وبعد سنتين وحين أنجب ابناً ذكراً ، دعاه نووفياـ «مولود في التيه» .

حالما بدأ أوكونكوا سنته الأخيرة في المنفى ، أرسل نقوداً إلى أوبيريكا

ليبني له كوخين في مجتمعه القديم ليسكن فيما هو وعائلته ريثما يبني
مزيداً من الأكواخ وسور مجتمعه الخارجي . وهو لا يستطيع أن يطلب من
شخص آخر أن يبني له أوييه ، أو أسوار مجتمعه . فهذه يبنيها الرجل بنفسه
أو يرثها عن أبيه .

عندما بدأت آخر أمطار السنة الغزيرة بالهطول ، أرسل أوييريكا خبراً بأن
الكوخين بُنيا ، فبدأ أوكونكoo يستعد للعودة ، بعد الأمطار . كان بوده لو
أنه عاد أكبر وبنى مجتمعه في تلك السنة قبل أن توقف الأمطار ، لكنه بفعله
هذا كان سيقطع جزءاً من العقوبة الكاملة البالغة سبع سنوات . وذلك مالا
يمكن أن يتحقق . هكذا انتظر بنفاد صبر الفصل الجاف .

جاء الفصل متمهلاً . فخففت الأمطار تدريجياً إلى أن أصبحت تساقط
بزخات مائلة . صارت الشمس تشرق من خلال المطر أحياناً وهب نسيم
خفيف . كان نوعاً من مطر مرح وهفاف . بدأ يظهر قوس قزح ، وقوساً
فرح معاً أحياناً ، كأم وابتها ، إحداهم شابة وجميلة والأخرى ظل قديم
وباهت . كان قوس القزح يدعى ثعبان السماء الملكي .

دعا أوكونكoo زوجاته الثلاث وطلب منها أن يعدهن ما يلزم لإقامة
وليمة فخمة . قال : «يجب أنأشكر أهل أمي قبل أن أرحل» .

كان لدى إيكوييفي بعض القرىسة الباقي من مزرعتها من السنة
الماضية . لم يكن عند أي من الزوجتين الآخرين شيء منه . لم يكن لهذا
لأنهما كسولتان ، بل لأن لديهما أطفالاً كثيرين لإطعامهم . لذلك كان من
المفهوم أن إيكوييفي ستقدم القرىسة للوليمة وستقدم أم نوروي وأوجيوجو

بقية المؤن مثل السمك المدخن وزيت النخيل وفلفل الحساء . وأعلن أوكونكوا أنه سيتولى أمر اللحم واليام .

نهضت إيكويفي مبكرة في صباح اليوم التالي وذهبت إلى مزرعتها مع ابنتها إيزينما وابنة أوبيوجو ، أوبياجيلي ، لجني درنات القريسة . حملت كل منهما سلة قصب طويلة ، وسيف تحطيب كبير لقطع ساق القريسة الطري ، ومعزقة للحفر واستخراج الدرنة . ولحسن الحظ ، كان مطر خفيف قد هطل أثناء الليل ولم تعد التربة قاسية جداً .

قالت إيكويفي : «لن نستغرق وقتاً طويلاً في جني كل ما نريد» .

قالت إيزينما : «لكن الأوراق ستكون مبلولة» . كانت سلطتها متوازنة على رأسها ، وذراعها معقودتان على صدرها . فهي تحس بالبرد . «أنا أكره تساقط الماء البارد على ظهري . كان يجب أن ننتظر إلى أن تطلع الشمس وتجف أوراق الشجر» .

دعتها أوبياجيلي : «ملح» ، لأنها قالت إنها تكره الماء . «هل تخافين أن تذوبين؟»

كان جني القريسة سهلاً ، كما قالت إيكويفي . هزت إيزينما كل شجرة بشدة بعصا طويلة قبل أن تتحني وتقطع الساق وتحفر الأرض لاستخراج الدرنة . في بعض الأحيان ، لم يكن الحفر ضرورياً . بل كن يسحبن الجذع فقط ، فترتفع التربة ، وتنقطع الجذور في الأسفل ، فتسحب الدرنة من الأرض .

حين جمعن كومة كبيرة من القريسة ، حملنها على دفعتين إلى الجدول ، حيث كان لكل امرأة حوض ضحل لتخمير قريستها .

قالت أُوبِيَاجِيلِي: «ستكون جاهزة خلال أربعة أيام أو حتى ثلاثة . فهـي درنات حـديـثـة» .

قالت إيكوفي : «إنها ليست درنات حديثة جداً . لقد زرعتها منذ سنتين تقريباً . التربة فقيرة ولهذا السبب تكون الدرنات صغيرة إلى هذا الحد .

لم يحدث أبداً أن فعل أوكونكوا شيئاً دون أن يكمله حتى النهاية .
فعندما احتجت زوجته إيكويفي بأن عنتين تكفيان للوليمة ، أخبرها أن
هذا ليس من شأنها .

– أدعوا إلى وليمة لأن لدى ثروة كافية . فأنا لا أستطيع أن أعيش على ضفة نهر وأغسل يدي باللعلاب . لقد كان أهل أمري طيبين معنوي وينبغي أن أظهر امتناني لهم » .

هكذا دُبّحت ثلث عنزات وعدد من الدجاج . فكانت أشبه بوليمة عرس . فقد قدّمت عصيدة فو - فو ويام ، وحساء إيجوسي وحساء ورق شجر مرّ وزقاق كثيرة من نيد النخيل .

دعى إلى الوليمة جميع الأئمـونـا ، جـمـيع نـسـلـ أـوـكـولـوـ ، الـذـي عـاـشـ قـبـلـ حـوـالـيـ مـائـيـ سـنـةـ . كـانـ أـكـبـرـ الـقـوـمـ سـنـاـ فـيـ هـذـهـ الـعـائـلـةـ كـثـيـرـ الـعـدـدـ خـالـدـ أـوـكـونـكـوـوـ ، أـوـتـشـينـدـوـ . فـقـدـمـتـ لـهـ جـوـزـ الـكـوـلـاـلـيـكـسـرـهـاـ ، فـصـلـىـ الـأـجـادـادـ . طـلـبـ مـنـهـمـ الصـحـةـ وـالـأـطـفـالـ : «ـنـحـنـ لـاـنـطـلـبـ ثـرـوـةـ لـأـنـ مـنـ لـدـيـهـ الصـحـةـ وـالـأـطـفـالـ سـيـنـالـ ثـرـوـةـ أـيـضـاـ . نـحـنـ لـاـنـصـلـيـ لـمـزـيـدـ مـنـ الـمـالـ بـلـ لـمـزـيـدـ مـنـ الـأـهـلـ . إـنـاـ أـفـضـلـ مـنـ الـحـيـوـانـاتـ لـأـنـ لـنـاـ أـهـلـاـ . الـحـيـوـانـ يـحـكـ جـنـبـهـ بـشـجـرـةـ ، بـيـنـمـاـ يـطـلـبـ الرـجـلـ مـنـ قـرـيبـهـ أـنـ يـحـكـ لـهـ جـنـبـهـ»ـ . وـصـلـىـ

خاصةً من أجل أوكونكوا وعائلته . ثم كسر جوزة الكولا وألقى فلقة منها على الأرض للأجداد .

فيما كانت قطع جوزات الكولا المكسورة توزع على المدعوين ، بدأت زوجات أوكونكورو وبناته وأولئك اللاتي أتبنن للمساعدة في الطبخ يحضرن الطعام . أحضر أبناءه زفاف نبيذ التخيل . كانت هناك كميات كبيرة من الأكل والشرب بحيث أن كثيراً من الأقارب صفروا مندهشين . حين بسط الطعام ، نهض أوكونكورو ليلقى كلمة .

قال : «أرجوكم أن تقبلوا هذه الكولا الصغيرة . إنها ليست تسديداً لما قدمتموه إليّ في هذه السنوات السبع . فالطفل لا يستطيع أن يسدّ ثمن حليب أمه . وقد دعوتكم فقط لأن من المستحسن أن يجتمع الأهل » .

فيما هم يحتسون نبيذ التخيل ، نهض أحد أكبر الأفراد سناً في الأumoمنا ليشكر أوكونكwoo : «لو قلت إننا لم نتوقع وليمة كبيرة كهذه لكنت كمن يوحى بأننا لا نعرف كم هو كريم ابتنا ، أوكونكwoo . نحن نعرفه ، وقد توقعنا وليمة كبيرة . لكن الواقع أسرف عن وليمة أكبر حتى مما توقعنا . شكر ألك . وأدعوا الآلهة أن تغفر علىك ما أنفقته عشرة أضعاف . إنه

لمن الخير أن يرى الإنسان ، في هذه الأيام التي يعتبر فيها الصغار أنفسهم أحكم من الكبار ، رجلاً يقوم بالواجب على الطريقة الرائعة القديمة . فالرجل الذي يدعو أهله إلى وليمة لا يفعل ذلك لأنفاذهم من الجوع . فلديهم كلهم طعام في بيوتهم . وحين نجتمع في القرية المضاءة بضوء القمر ، لانفعل هذا من أجل القمر . فكل شخص يستطيع أن يراه من مجتمعه . إننا نجتمع لأن من الخير أن يجتمع الأهل . قد تتساءلون لماذا أقول كل هذا . أقول هذا لأنني أخاف على الجيل الجديد ، أخاف عليكم أنتم يا قوم » . لوح بذراعه مشيراً إلى حيث كان يجلس معظم الشباب ، « أما أنا ، فلم يبقَ أمامي سوى وقت قصير لكي أعيش ، وكذلك أوتشيندو وأوناتشوكو وليمييفو . أنا أخاف عليكم أنتم الشباب ، لأنكم لا تدركون كم هو قوي رباط القرابة . إنكم لا تعرفون ماذا يعني أن تتكلموا بصوت واحد . ما هي النتيجة ؟ لقد حلّ دين مقيت بين ظهريانيكم . الرجل الآن يهجر أباه وإنحوطه . ويلعن آلهة آبائه وأجداده ، ككلب الصياد الذي يصييه السعار فجأة ، فيستدير منقضياً على صاحبه . أنا أخاف عليكم ، أخاف على العشيرة » ، و التفت ثانية إلى أوكونكovo وقال : « شكرأ لك لدعوتنا لنجتمع معاً » .

الجزء الثالث

٢٠ فصل

سبع سنوات بعيداً عن العشيرة مدة طويلة . فمكان رجل لا يظل دائماً محفوظاً ، في انتظاره . فما أن يرحل رجل حتى ينهض رجل آخر ، ويشغل مكانه . العشيرة مثل سحلية ، إذا فقدت ذنبها ، ينمو لها ذنب آخر .

أدرك أوكونكوا هذا . عرف أنه فقد مكانه بين الأرواح المقنعة التسع التي تتولى إدارة القضاء في العشيرة . أضاع الفرصة لقيادة عشيرته المفعمة بروح القتال ضد الدين الجديد الذي اكتسب أرضاً هناك ، كما نما إلى علمه . أضاع السنوات التي كان بوسعه أن ينال خلالها أرفع الألقاب في العشيرة . لكن بعض هذه الخسائر لم يكن من المستحيل تعويضها . كان مصمماً على أن تلتفت عودته انتباه قومه . سيعود وهو في وضع مزدهر ، ويسترد السنوات السبع الضائعة .

حتى في سنته الأولى وهو في المنفى ، بدأ يخطط لعودته . سيكون أول ما سيفعله هو إعادة بناء مجتمعه على مستوى أبهى . سيبني مخزناً للغلال أكبر من مخزنه الذي كان يملكه في السابق وكوخين لزوجتين جديدين . سيظهر ثراءه عن طريق إدخال أبنائه في جمعية الأوزو . فالرجال العظام في العشيرة فقط هم القادرون على فعل هذا . رأى بوضوح الإجلال الكبير

الذي سيحاط به ، ورأى نفسه متقلّداً أسمى لقب في البلد .

بينما راحت سنوات المنفى تقضي سنة إثر الأخرى ، بدا له أن تشيئ قدر أن يعوضه عن المصيبة السابقة . فقد نما يامه بوفرة ، ليس في أرض أمه فحسب ، بل في أمومو فيها أيضاً ، حيث استمره صديقه سنة وراء أخرى مع محاصصين .

ثم وقعت مأساة ابنه البكر . خيل إليه في البداية أنها ستكون أكبر من أن تحتمله روحه ، لكن روحه كانت مرنة ، فتغلب في النهاية على أساه . فلديه خمسة أبناء آخرين وسيريهم وفقاً لحياة العشيرة .

دعا أبناءه الخمسة إليه ، فأتوا وجلسوا في أويته . كان عمر أصغرهم أربع سنوات .

ـ (لقد رأيتم جميعاً الإثم الشنيع الذي ارتكبه أخوكم . هو الآن لم يعد أبني ولا أخاكم . سيكون أبني رجلاً يرفع رأسه عالياً وسط قومي . إذا كان أي منكم يفضل أن يكون امرأة ، فليتبع خطى نوبي الآن وأنا حيّ ، حتى ألعنه . إذا انقلبتم ضدي بعد موتي ، فسأزوركم وأكسر رقابكم .

كان أوكونكورو محظوظاً جداً مع بناته . لم يكفّ أبداً عن الأسف لأن إيزينما كانت فتاة . فمن بين جميع أطفاله ، كانت الوحيدة التي تفهم تقلّبات مزاجه . فنما رباط من التعاطف بينهما على مر السنين .

كانت إيزينما أثناء نفي والدها وأصبحت واحدة من أجمل الفتيات في مباننا . دعيت بلورة الجمال ، مثلما دعيت والدتها في صباها . فالفتاة العليلة التي سبّبت الكثير جداً من وجع القلب لأمها ، تحولت بين عشية وضحاها تقرّباً إلى صبية مفعمة بالصحة والمرح . صحيح أن لحظات من

الاكتتاب النفسي كانت تنتابها فتنهش أثناءها الكلّ ككلب مسعور . إلا أن هذه التقلبات كانت تحلّ بها فجأة ودون سبب واضح . لكن تلك اللحظات كانت نادرة وقصيرة الأمد . لم تكن أثناءها تطيق أحداً سوى أبيها .

تقدّم شباب ورجال موسرون في أواسط العمر كثيرون في مبانتا لخطبتها . لكنها رفضتهم جميعاً ، فقد دعاها أبوها إليه ذات مساء وقال لها : «هناك كثير من الناس الطيبين والموسرين هنا ، لكنني سأكون سعيداً إذا تزوجت في أمووفيا عندما نعود إلى بيتنا» .

ذلك كان كل ما قاله . لكن إيزينما أدركت بوضوح كل الفكر والمعنى المستترتين وراء الكلمات القليلة . فوافقت .

قال أوكونكoo : «إن أختك غير الشقيقة ، أوبياجيلي ، لن تفهمي . لكنك تستطعين أن تشرح لي لها» .

مع أنهمما كانتا في نفس السن تقرباً ، إلا أن تأثيراً قوياً كان لإيزينما على اختها غير الشقيقة . فشرحت إيزينما لها لماذا يجب ألا تزوجا الآن ، ووافقت هي أيضاً . هكذا رفضت الاشتان كل عروض الزواج في مبانتا .

فكرة أوكونكoo في نفسه : «أتمنى لو أنها غلام» . إنها تفهم الأمور فهماً صحيحاً تماماً . من غيرها من بين أطفاله يستطيع أن يقرأ أفكاره على هذا النحو الجيد؟ إن عودته إلى أمووفيا مع ابنتين جميلتين يافعتين ستتجذب اهتمام الكثرين . سيكون صهراه المقربان رجلين من أصحاب النفوذ في العشيرة . ولن يجرؤ القراء والمغمورون على التقدّم لخطبتهما .

تغيرت أمووفيا حقاً في السنوات السبع التي قضاها أوكونكoo في

المنفي . فقد أتت الكنيسة وأضليت كثريين . لم ينضم إليها وضييعوا النسب والمنبوذون فحسب ، بل رجال ذوو حياثة أيضاً . وكان أحد هؤلاء أجبويفي أوجونا ، الذي يتقلد لقبين ، والذي قطع كالمحجون سوار لقبيه المحيط بكافله ورماه بعيداً كي ينضم إلى المسيحيين . كان المبشر الأبيض فخوراً جداً به ، وكان من بين أول الرجال في أمورفيا الذين تلقوا أسرار تناول العشاء الرباني ، أو الوليمة المقدسة كما كانت تدعى في لغة الإيتو . فكر أجبويفي أوجونا في الوليمة بمفاهيم الأكل والشرب ، لكن في نطاق أقدس من ولائم القرية . لذلك وضع قرنه المستخدم للشرب في كيسه المصنوع من جلد الماعز من أجل المناسبة .

لكن ، إضافة إلى الكنيسة ، جلب الرجال البيض معهم حكومة أيضاً . فبنوا محكمة حيث يصدر مفهوم شرطة المنطقة أحكاماً على قضايا بجهل . كان له سعة محكمة يجلبون الناس ليمثلوا أمامه للمحاكمة . وقد انحدر كثير من هؤلاء السعاة من أومورو الواقع على ضفة النهر العظيم ، حيث وصل الرجال البيض أول الأمر قبل سنوات عديدة خلت وأقاموا مركز دينهم وتجارتهم وحكومتهم . كان سعة المحكمة هؤلاء مكرهين كراهية شديدة في أمورفيا لأنهم غرباء ومتعرجون ومستبدون . وقد دعوا كوتاما ، واكتسبوا ، بسبب سراويلهم القصيرة الرمادية اللون اسمآ آخر : «عجيبة الرماد» . كانوا يحرسون السجن ، الذي كان مليئاً بأناس خالفوا قوانين الرجل الأبيض . كان بعض هؤلاء السجناء قد ألقوا بتوائهم ، وبعضهم كان قد ضائق المسيحيين . فتعرضوا هناك للضرب على يد الكوتاما ، وأرغموا على العمل كل صباح في تنظيف مجمع الحكومة وجلب حطب مفهوم الشرطة الأبيض وسعة المحكمة . وكان بعض

هؤلاء السجناء رجالاً من حملة الألقاب الذين لابد أن يكونوا أرفع من أعمال وضيعة كهذه . وقد أحزنthem المهانة وندبوا على مزارعهم المهملة . فعندما كانوا يقطعون العشب في الصباح ، كان الشباب بينهم يغدون بايقاع متوافق مع ضربات سيف التحطيب :

«كوتاما ذو عجيبة الرماد ،

يليق به أن يكون عبداً

والرجل الأبيض فاقد العقل ،

يليق به أن يكون عبداً .

لا يحب سعاة المحكمة أن يدعوهم أحد «عجيبة الرماد» ، لذلك كانوا ينهالون بالضرب على الرجال . لكن الأغنية انتشرت في أومووفيا .

انحنى رأس أوكونكوا وأسى عندما أخبره أوبيريكا بكل هذه الأمور .

قال أوكونكوا وهو يكاد يخاطب نفسه : «لعلني غبت مدة طويلة جداً . لكنني لا أستطيع أن أفهم هذه الأمور التي تحدثني عنها . ما ذلك الذي حدث لقومنا؟ لماذا فقدوا القدرة على القتال؟»

سأل أوبيريكا : «ألم تسمع كيف محى الرجل الأبيض آبامي عن وجه الأرض؟»

قال أوكونكوا : «سمعت . لكنني سمعت أيضاً أن سكان آبامي كانوا ضعفاء وحمقى . لماذا لم يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم؟ ألم يكن في حوزتهم بنادق وسيوف؟ س تكون جبناء لو قارنا أنفسنا برجال آبامي . فلاأهم لم

يتجرؤوا مطلقاً على الوقوف أمام أجدادنا . يجب أن نقاتل هؤلاء الناس ونطردهم من البلاد» .

قال أوبيريكا بحزن : «فات الأوان الآن . فرجالنا أنفسهم وأبناؤنا انضموا إلى صفوف الغريب . انضموا إلى دينه وهم يساعدونه على المحافظة على حكمته . لو حاولنا طرد الرجال الأبيض من أوموروبيا ، لو جدنا الأمر سهلاً . فاثنان منهم فقط يوجدان هنا . لكن ، ماذا بشأن قومنا الذين يتبعون سبيلهم ومنحت لهم سلطة؟ سيدهبون إلى أومورو ويحضرن الجنود ، وستكون حالنا كحال آبامي» . توقف عن الكلام لفترة طويلة ثم قال «لقد أخبرتك في زيارتي الأخيرة لمبانتا كيف شنعوا أنيتو» .

سأل أوكونكوا : «ماذا حدث لقطعة الأرض المتسانع عليها» .

- «قررت محكمة الرجل الأبيض أنها تخص عائلة نناما ، التي دفعت أموالاً كثيرة لسعادة الرجل الأبيض ومتجمه» .

- «هل يعرف الرجل الأبيض تقاليدنا حول الأرض؟»

- «كيف يمكنه هذا وهو حتى لا يتكلم لغتنا؟ لكنه يقول إن تقاليدنا سيئة ، وإنوانا الذين بنوا دينه يقولون أيضاً أن تقاليدنا سيئة . كيف تعتقد أننا نستطيع أن نحارب وإنوانا بالذات انقلبوا ضدنا؟ الرجل الأبيض ذكي جداً . جاء بهدوء وسلام بدينه . فضحكتنا على حماقته وسمحنا له بالبقاء . والآن ، استمال إخواننا ، ولم تعد عشيرتنا قادرة على التصرف كرجل واحد . لقد وضع سكيناً على الأشياء التي تشدّ أو أصرنا فتداعينا» .

سأل أوكونكوا : «كيف قبضوا على أنيتو ليشنقوه؟»

- «عندما قتل أودوتشي في المشاجرة حول الأرض ، هرب إلى أنيتا

لينجو من غضب الأرض . حدث ذلك بعد حوالي ثمانية أيام من المشاجرة ، لأن أودوتشي لم يمت على الفور متأثراً بجراحه . بل مات في اليوم السابع . لكن الكل عرفاً أنه كان سيموت ، فجمع أنيتو ممتلكاته استعداداً للفرار . لكن المسيحيين أخبروا الرجل الأبيض بوقوع الحادثة ، فأرسل هذا الكوتما للقبض على أنيتو . سجن مع جميع قادة عائلته . وفي النهاية ، مات أودوتشي ونقل أنيتو إلى أوسمورو وشنق . أطلق سراح الباقين ، لكنهم حتى الآن لا يستطيعون التعبير عن معاناتهم » .

جلس الرجال صامتين لفترة طويلة بعد هذا .

٢١ فصل

كان هناك رجال ونساء كثيرون في أومووفيا لم تتمكنهم نفس المشاعر القوية التي انتابت أوكونكوا ضد الشريعة الجديدة . لقد جلب الرجل الأبيض ديناً مجنوناً حقاً ، لكنه بنى أيضاً متجرأً ، ولأول مرة ، أصبح زيت التخيل والبدور أشياء غالية الثمن ، وتدفقت أموال كثيرة إلى أومووفيا .

حتى فيما يتعلق بأمر الدين ، تزايد الإحساس بأن من المحتمل أن يكون فيه شيء ما ، شيء مماثل تمثيلاً غامضاً لنظام داخل إطار الجنون الغامر .

هذا الإحساس المتنامي يعود إلى السيد براون ، المبشر الأبيض ، الذي كان حازماً جداً في كبح رعيته عن استشارة غضب العشيرة . كان هناك عضو من الصعب جداً ضبطه بصفة خاصة . كان اسمه إينوتش ، وكان أبوه كاهن عبادة الشعبان . وقد انتشرت قصة ردت أن إينوتش قتل ثعبان النهر المقدس وأكله ، وأن أباه صبّ عليه لعنته .

وعظ السيد براون ضد تطرف حماس كهذا . فقد أخبر رعيته النشيطة بأن كل شيء ممكن ، لكن ليست كل الوسائل ملائمة . لذلك تمنع السيد براون باحترام الكل حتى العشيرة ، حيث أنه كان يطأ برفق على إيمانها . كما اكتسب صداقه بعض رجال العشيرة العظام ، وفي إحدى زياراته

المتكررة للقرى المجاورة ، أهدي ناب فيل منقوش ، كان رمز النبل وسمو المقام . كان أحد الرجال العظام في تلك القرية يدعى آكونا ، وقد أوفد أحد أبنائه إلى مدرسة السيد براون ليتعلم معرفة الرجل الأبيض .

كان السيد براون ، كلما زار تلك القرية ، يمضي ساعات طويلة مع آكونا في أوبية ويحدثه عن طريق مترجم عن الدين . ولم ينجح أي منهما في هداية الآخر ، لكنهما اكتسبا معرفة أوسع بمعتقداتهما المختلفة .

قال آكونا أثناء إحدى زيارات السيد براون : «تقول إن هناك إلهًا واحدًا أسمى خلق السماء والأرض . نحن أيضًا نؤمن به وندعوه تشوکوو . لقد خلق العالم كله والآلهة الأخرى» .

قال السيد براون : «لا توجد آلهة أخرى . تشوکوو هو الإله الواحد وكل الآلهة الأخرى زائفة . أنت تتحت قطعة من خشب - مثل تلك» (وأشار إلى عوارض السقف التي تدلّى منها إيكينجا آكونا المنحوت) ، «وتدعوه إليها . لكنه لا يظلّ قطعة خشب» .

قال آكونا : «نعم . إنه فعلًا قطعة خشب . والشجرة التي أنت منها قطعة الخشب خلقها تشوکوو ، كما صنع كل الآلهة الصغرى حقًا . لكنه صنعها لتكون رُسله حتى تقترب منه عن طريقها . إنه مثلك . وأنت رئيس كنيستك» .

احتاج السيد براون : «لا . إن رئيس كنيستي هو الرب نفسه» .

قال آكونا : «أعرف هذا . لكن لابد من وجود رئيس في هذا العالم بين الناس . لابد وأن يكون شخص مثلك رئيساً هنا» .

- «إن رئيس كنيستي بهذا المعنى مقيم في إنجلترا» .

ـ «هذا تماماً ما أقوله . رئيس كنيستك يقيم في بلدك . لقد بعث بك إلى هنا رسولاً له . وأنت أيضاً عينت رسليك وخدمتك . أو لأخذ مثالاً آخر ، مفوض شرطة المنطقة . أرسله ملكك» .

قال المترجم بمبادرة منه : «لديهم ملكة» .

ـ «ملكتك تبعث رسولها ، مفوض شرطة المنطقة . وهو يجد أنه لا يستطيع القيام بالعمل وحده ، لذلك يعين كوتما المساعدته . ونفس الشيء ينطبق على الإله ، أو تشووكوو . إنه يعين الآلهة الصغرى لتساعده لأن العمل أكبر جداً من أن يتولاه شخص واحد» .

قال السيد براون : «يجب الالتفكر فيه كشخص . لأنك حين تفكير فيه على هذا النحو ، تتوهم أنه لابد وأن يكون بحاجة إلى مساعدين . وأسوأ ما في الأمر أنكم تتوجهون بعباداتكم كلها إلى الآلهة الزائفة التي خلقتموها» .

ـ «ذلك ليس هكذا . إننا نقدم القرابين للآلهة الصغيرة ، لكن ، عندما نفشل ولا نجد من نلجأ إليه ، نتوجه إلى تشووكوو . ومن الصواب أن نفعل هذا . إننا نقرب من رجل عظيم عن طريق خدمته . لكن ، عندما يفشل خدمته في مساعدتنا ، نذهب إلى مصدر الرجاء الأخير . نحن نبدو كأنما نولي الآلهة الصغرى اهتماماً أكبر ، لكن الأمر ليس كذلك . إننا نقلّقهم أكثر لأننا نخشى أن نقلّق سيدهم . لقد عرف آباءنا أن تشووكوو هو السيد الأسمى ، لذلك أطلق كثير من الرجال على أطفالهم اسم تشووكووكا - «تشووكوو هو الأسمى» .

قال السيد بروان : «لقد قلت شيئاً مثيراً للاهتمام . أنتم تخافون من

تشوكوو . أما تشو كوكو في ديني فهو أب محب ولا حاجة إلى أن يخشاه أولئك الذين ينفذون إرادته» .

قال آكونا : «لكتنا يعجب أن نخشاه عندما لا تنفذ إرادته . ومنْ يستطيع أن يعرف إرادته؟ إنها أعظم منْ أنْ تُعرف» .

بهذه الوسيلة تعلم السيد براون كثيراً عن دين العشيرة وتوصل إلى نتيجة أن هجوماً جبهوياً عليها لن يكتب له النجاح . لذلك بنى مدرسة ومستشفى صغيراً في أومووفيا . طاف على السكان عائلة عائلة راجياً إياهم أن يرسلوا أطفالهم إلى مدرسته . لكنهم أرسلوا في البداية عيدهم فقط ، أو أطفالهم الكسالى أحياناً . توسل السيد براون وجادل وتباً . قال إن قادة البلاد في المستقبل سيكونون رجالاً ونساء تعلموا القراءة والكتابة . وإذا تقاعست أومووفيا عن إرسال أطفالها إلى المدرسة ، فسيأتي الغرباء من أماكن أخرى ويعكرونهم . وهم يرون الآن ذلك يحدث في المحكمة المحلية ، حيث يحيط بمفهوم شرطة المنطقة غرباء يتحدثون لغته . ومعظم هؤلاء الغرباء قدموا من بلدة أومورو البعيدة الواقعة على ضفة النهر العظيم حيث ذهب الرجل الأبيض في البداية .

في النهاية ، بدأت حجج السيد براون تحدث تأثيراً . فقدم مزيد من الأشخاص للتعلم في مدرسته ، وشجعهم ياهدائهم قمصاناً داخلية ومناشف . لم يكونوا كلهم صغاراً في السن ، أولئك الذين أتوا يتعلموا . بعضاً منهم كان في الثلاثين من عمره أو أكبر . فهم يعملون في مزارعهم في الصباح ، وينتهبون إلى المدرسة بعد الظهر . لم تمض فترة طويلة قبل أن يبدأ الناس القول إن دواء الرجل الأبيض سريع المفعول . حققت مدرسة السيد براون نتائج سريعة . فبضعة أشهر فيها كانت كافية لتولي الماء

منصب ساعي محكمة أو حتى كاتباً فيها . وأصبح أولئك الذين أمضوا فترة أطول مدرسين ، ومن أمووفيا انطلق العاملون إلى كرمة الرب . فقد أنشئت كنائس جديدة في القرى المجاورة ومعها مدارس قليلة . ومن البداية تماماً ، خطوا الدين والتعليم يداً بيد .

تعاظمت قوة إرسالية السيد براون بصورة مطردة ، واكتسبت ، بسبب ارتباطها بالإدارة الجديدة ، منزلة اجتماعية جديدة . لكن صحة السيد براون نفسه كانت تتداعى . في البداية ، تجاهل الأعراض التحذيرية . إلا أنه في النهاية اضطر إلى ترك رعيته ، حزيناً ومنهاراً .

رحل السيد براون عن أمووفيا إلى موطنه في أول موسم أمطار بعد عودة أوكونكوا إليها . وحالما علم بعودته أوكونكوا قبل خمسة أشهر ، قام المبشر بزيارته على الفور . كان قد أرسل لتوه ابن أوكونكوا ، نووبي ، الذي بات الآن يدعى إسحاق ، إلى الكلية الجديدة لتدريب المعلمين في أموورو . وأمل أن يسعد أوكونكوا لسماع هذا . لكن أوكونكوا طرده مع التهديد بأنه إذا عاد إلى مجتمعه مرة أخرى ، فسوف يحمله ويلقى به خارجاً .

لم تكن عودة أوكونكوا إلى موطنه حدثاً بارزاً كما تمنى . صحيح أن ابنته الجميلتين أثارتا اهتماماً كبيراً بين الخطاب وسرعان ما بدأت مفاوضات من أجل الزواج منهما بعد وصوله مباشرة ، لكن ، فيما عدا ذلك ، لم يجد أن أمووفيا اهتمت بصفة خاصة بعودة المحارب . فقد طرأ تحول عميق على العشيرة أثناء سنوات نفيه حتى أصبح من الصعب التعرف عليها . فالدين والحكومة والمتاجر الجديدة تعلو قيمتها كثيراً جداً

في أعين وعقول الناس . كان لا يزال هناك كثيرون ينظرون إلى هذه المؤسسات الجديدة باعتبارها شرّاً ، لكن ، حتى هؤلاء تكلموا قليلاً عن أي شيء آخر غير هذه المؤسسات وفكروا قليلاً فيها ، ويقيناً أنهم لم يتكلموا عن عودة أوكونكوا ولا فكروا فيها .

كانت عودته في السنة الخطأ أيضاً . فلو تمكن أوكونكوا من إدخال ابنيه الاثنين في جمعية الأوزو فوراً كما خطط لذلك ، لأنّار ضجة . لكن شعائر الاتّمام كانت تقام مرة كل ثلاث سنوات في أومووفيا ، وكان عليه أن ينتظر حوالي السنتين حتى يحل موعد دورة الاحتفالات التالية .

أحسّ أوكونكوا بحزن عميق . ولم يكن مجرد حزن شخصي . بل انتابه الأسى على العشيرة التي شاهدها تمزق وتتداعى ، كما حزن على محاربي أومووفيا ، الذين أصبحوا ، على نحو لالبس فيه ، ليّني العريكة كالنساء .

الفصل ٢٢

خلفَ السيد براون القسيس جيمس سميث ، وكان نمطاً مختلفاً من الرجال . وقد أدان عليناً سياسة السيد براون التصالحية والتوفيقية . إنه يرى الأشياء بالأسود والأبيض . الأسود شر . ويرى العالم ساحة قتال يشتباك فيها أبناء النور في معركة حياة أو موت مع أبناء الظلام . وتحدث في مواجهته عن الخراف والماعز والقمح والزوان . فهو يؤمن بذبح أنبياء بعل .

انزعج السيد سميث انزعاجاً شديداً من الجهل الذي أبداه كثيرون من أبناء رعيته حتى في أمور مثل الثالوث المقدس والقرابين المقدسة . فأظهره هذا فقط بأنهم بذور بذرت في تربة صخرية . فالسيد براون لم يفكر في شيء سوى الأعداد . كان عليه أن يعلم أن مملكة الرب لا تقوم على الجماهير الغفيرة . فالسيد المسيح نفسه شدد على أهمية القلة . ضيق هو هذا الطريق وقليل هو العدد . وأن تملأ معبد الرب المقدس بجمهور وثنى يصرخ مطالباً بعلامات كان حماقة لها عواقب دائمة . والسيد المسيح استخدم السوط مرة واحدة فقط في حياته - لطرد الجمورو من كنيسته .

في غضون بضعة أسابيع من وصوله إلى أوموروبيا ، علق السيد سميث عضوية امرأة شابة في الكنيسة لأنها صبّت نبيذاً جديداً في قناني قديمة .

كما سمحت هذه المرأة لزوجها الوثني بتشويه جسد طفلها الميت . وكان قد أعلن عن الطفل بأنه أوجبانجي ، يعذب أمه بالموت ثم يعود ويدخل رحمها لكي يولد من جديد . وكرر هذا الطفل دورته الشريرة أربع مرات . لذا شُوّه لتشييط همته في العودة .

استشاط السيد سميث غضباً حين سمع هذا . رفض تصديق القصة التي أكد له حتى بعض المؤمنين الراسخين في إيمانهم ، قصة الأطفال الشريرين حقاً ، والذين لا يردعهم التشويه ، بل يعودون وعليهم جميع الندوب . ردّ عليهم بأن مثل هذه القصص ينشرها الشيطان في العالم ليضلّ الناس . وأن أولئك الذين يصدقون مثل هذه القصص ليسوا جديرين بمائدة الرب .

هناك مثّل في أومووفيا يقول إن الطبول تقعّر لرجل على نحو ما يرقص هذا الرجل . وقد رقص السيد سميث خطوة عنيفة ، لذا جنّت الطبول . فازدهر تماماً تحت رعايته أولئك المهدتون مفترطو الحماس الذين أمضّهم كبح السيد براون لجمامهم . كان أحدّهم إينوتش ، ابن كاهن الشعبان الذي روى عنه أنه قتل ثعبان النهر المقدس وأكله . بدا إخلاص إينوتش للدين الجديد أعظم من إخلاص السيد براون له حتى أن القرويين دعوا بـ : الغريب الذي ناح بصوت أعلى من صوت المفجوع .

كان إينوتش قصيراً ناحل الجسم ، يبدو دائماً في عجلة من أمره . وكانت قدماه قصيرتين وعربيضتين ، وحين يقف أو يسير ينضم عقباه معاً وتتفرج قدماه إلى الخارج لأنهما تخاصمتا وتريد كل منهما الذهاب في اتجاه مختلف . على هذا النحو كانت الطاقة المفرطة المعبأة في جسد إينوتش الضئيل حتى أنها كانت دائماً تتفجر في خصومات ومشاجرات .

في أيام الأحد ، يتخيّل دائمًا أن الموعظة تلقى على أعدائه . وإذا صادف جلوس أحد منهم إلى جانبه فإنه كان يلتفت إليه بين الحين والآخر ويرمقه بنظرة ذات مغزى ، كأنه يقول : «لقد أخبرتك بذلك» . كان إينوتش هو الذي فجر النزاع الكبير بين الكنيسة والعشيرة الذي تزايد تدريجيًا منذ رحيل السيد براون .

حدث هذا أثناء الاحتفال السنوي المقام على شرف ربة الأرض . ففي مثل تلك الأوقات ، يظهر أجداد العشيرة ، الذين أودعوا في الأرض ، على هيئة إيجووجوو من خلال ثقوب النمل الضئيلة .

إحدى أفجع الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الإنسان هي كشف القناع عن وجه إيجووجوو علينا ، أو قول أو فعل شيء يمكن أن يحطّ من جلاله الخالد في نظر الجاهل بالأسرار . وهذا ما فعله إينوتش .

فقد صادف وقوع طقس عبادة ربة الأرض السنوي يوم أحد ، وكانت الأرواح المقنّعة قد خرّجت . لذلك لم تستطع النسوة اللواتي كن في الكنيسة العودة إلى بيوتهن . فقد خرج بعض رجالهن ليرجوا الإيجووجوو الانسحاب لفترة قصيرة ريثما تمر النساء . ووافق الإيجووجوو الممثلون للأرواح على ذلك ، وكانوا قد بدأوا بالتراءع عندما تفاحر إينوتش بصوت عال بأنهم لن يجرؤوا على مسّ أي مسيحي . عندئذ ، عادوا جميعاً ووجه أحدهم له ضربة قوية بعصا الخيزران التي كان يحملها دائمًا . فهجم إينوتش عليه ونزع قناعه . أحاط الإيجووجوو الآخرون فوراً بالزميل الذي دُنس ، ليحولوا بينه وبين تحديق النساء والأطفال الدنسة ، وقادوه بعيداً . لقد قتل إينوتش روحًا من أرواح الأجداد ، فعمّ الاضطراب أمووفيا .

في تلك الليلة ، تجول أم الأرواح في طول العشيرة وعرضها ، باكيًا على ابنه القتيل . كانت ليلة رهيبة . فحتى أكبر المعمررين سناً في أوموفيا لم يسمع في حياته صوتاً غريباً ومخيفاً إلى هذا الحد ، كما لن يسمع مثله أبداً مرة أخرى . بذا الأمر كما لو أن روح القبيلة نفسها تعول بسبب شر عظيم مقبل - موتها هي بالذات .

في اليوم التالي ، احتشد كل إيجووجو وأوموفيا المقنعون في ساحة السوق . وفدوا من جميع أحياء العشيرة وحتى من القرى المجاورة . أتى أوتاكا جو المرعب من إيمو ، ووصل إيكوينسو ، يدلي بيده ديكاً أيضًا ، من أولي . كان حشدًا مخيفاً . وبشت الأصوات المرعبة الصادرة عن أرواح لا يحصيها العد ، والأجراس المجلجلة خلف عدد منها ، وقعقعة سيف التحطيب الضخمة وهي ترکض جيئة وذهاباً محيبة بعضها بعضاً ، بشت الرعدة في جميع القلوب . ولأول مرة في مدى ذاكرة الأحياء ، سمع خوار الثور المقدس في وضح النهار .

اتجهت الزمرة الغاضبة من ساحة السوق إلى منزل إينوتش . ورفقها بعض شيوخ العشيرة ، متقلدين حميات رقى وتعاويذ قوية . كان هؤلاء رجالاً من ذوي الباع الطويل في الأوجوو ، أو الدواء . أما الرجال والنساء العadiات ، فقد أصغوا من داخل سلامة أكواخهم .

كان المسيحيون قد اجتمعوا في بيت الكاهن سميث في الليلة الماضية . بينما راحوا يتداولون الموضوع فيما بينهم ، ظلّوا يسمعون أم الأرواح يندب ابنه . وأثر الصوت القارس على السيد سميث ، فبدأ لأول مرة خائفاً .

سأله : «ما الذي يخططون له؟». لم يعرف أحد ، لأن أمراً كهذا لم يحدث من قبل أبداً . كان بود السيد سميث أن يرسل في طلب مفوّض شرطة المنطقة وسعاة المحكمة ، لكنهم كانوا قد ذهبوا في جولة في اليوم السابق .

قال السيد سميث : «هناك أمر واحد واضح . نحن لانستطيع مقاومتهم جسدياً . فقوتنا تكمن في الرب». ركعوا معاً وصلوا للرب من أجل الخلاص .

صاح السيد سميث : «أيها الرب ، أنقذ قومك» .

أجاب الرجال : «ويبارك ميراثك» .

وقرروا إخفاء إينوتش في بيت الكاهن لمدة يوم أو يومين . وأصيب إينوتش بخيبة أمل كبيرة عندما سمع هذا ، لأنه أمل في حرب مقدسة وشيكه ، وكان هناك عدد قليل آخر من المسيحيين فكرروا على غراره . لكن الحكمة تغلبت في معسكر المؤمنين ، وهكذا أنقذت أرواح كثيرة .

تحركت زمرة الإيجووجوو كزوبعة عنيفة إلى مجمع إينوتش وأحالته بسيوف التحطيب والنار إلى كومة من الدمار . ومن هناك تحركت صوب الكنيسة ، متنشية بالتدمير .

كان السيد سميث في كنيسته عندما سمع ضجيج الأرواح المقنعة تقترب . خطا بهدوء إلى الباب المتحكم بطريق الوصول إلى مجمع الكنيسة ، ووقف هناك . إلا أنه عندما ظهر الثلاثة أو الأربعه إيجووجوو الأول في مجمع الكنيسة ، كاد أن يفر هارياً . لكنه تغلب على هذا الدافع ،

ونزل الدرجتين اللتين كانتا تقودان إلى الكنيسة ، بدلاً من أن يهرب ، وسار باتجاه الأوراح المقتربة .

اندفعوا إلى الأمام ، فانهار أمامهم جزء كبير من السور المصنوع من الخيزران المحيط بمباني الكنيسة . رنت الأجراس متنافرة النغمات ، وصلصلت سيوف التحطيب وتصادمت وعقب الجو بالغبار والأصوات الغربية . سمع السيد سميث وقع خطى خلفه . فاستدار ورأى أوكيكي ، مترجمة . لم تكن علاقة أوكيكي بسيدة على أفضل أحوالها حيث أنه أدان بشدة تصرف إينوتش أثناء اجتماع قادة الكنيسة في الليل . وقد وصل أوكيكي إلى حد القول إنه لا ينبغي إخفاء إينوتش في بيت القسيس ، لأن ذلك سيجلب غضب العشيرة على القسيس . فوبخه السيد سميث بلغة قاسية جداً ، ولم يسأله النصيحة في ذلك الصباح . لكنه الآن ، عندما جاء ووقف إلى جانبه في مواجهة الأرواح الغامضة ، نظر إليه وابتسم . كانت ابتسامة باهتة ، لكنها مليئة بالامتنان .

توقف اندفاع الإيجووجو لبرهه وجيبة بسبب رباطة جأش الرجلين غير المتوقعة . لكنه كان توقفاً وقرياً ، كالصمت المشحون بالتوتر بين إفجارات هزيم الرعد . كان الاندفاع الثاني أعظم من الأول . فابتلع الرجلين . ثم ارتفع صوت لا يمكن أن تخطئه الأذن فوق الهرج ، وساد صمت فوري . وأخلت فسحة حول الرجلين ، وبدأ أجوفيا الكلام .

كان أجوفيا زعيم الإيجووجو في أومووفيا . كان الرئيس والناطق بلسان أرواح الأجداد التسع الذين أقاموا العدل في أومووفيا . كان صوته مميزاً وبالتالي تمكّن فوراً من تهدئة الأرواح الهائجة . ثم خاطب السيد سميث ، وفيما كان يتكلّم تصاعدت سحائب من الدخان من رأسه .

قالت : «يا جسد الرجل الأبيض ، أنا أحبيك» ، وتكلم بلغة الخالدين حينما يخاطبون الناس .

سؤال : «يا جسد الرجل الأبيض ، هل تعرفني ؟»
تطلع السيد سميث إلى مترجمه ، لكن أوكيكي ، الذي ينحدر من أومورو البعيدة ، بدا في حيرة من أمره أيضاً .

ضحك أجوفيا بصوته الحلقى . كانت ضحكته شبيهة بضحك المعدن الصدئ . قال : «إنهم غرباء وهم جهلة . لكن ، ليمر هذا على خير» . استدار إلى رفاقه وحياهم ، داعياً إياهم آباء أومورو فيا . غرس رمحه المصلصل في الأرض ، فاهتز بحياة معدنية . ثم استدار مرة أخرى إلى المبشر ومترجمه .

قال للمترجم : «أخبر الرجل الأبيض أننا لن نؤديه . قل له أن يعود إلى بيته ويتركنا وشأننا . لقد أحببنا أخاه الذي كان معنا قبله . كان أحمق ، لكننا أحببناه ، ومن أجله لن نؤدي أخاه . لكن هذا المقام الذي بناه يجب أن يدمر . لن نسمع ببقاءه وسطنا بعد الآن . لقد تسبب في آثام لم نسمع بها من قبل ، وأتينا لوضع حده». التفت إلى رفاقه : «يا آباء أومورو فيا ، أنا أحبيكم» ، فأجابه الأرواح بصوت حلقى واحد . واستدار ثانية إلى المبشر .

- « تستطيع أن تبقى بيننا إذا أحببتي نمط حياتنا . كما تستطيع أن تبعد إلهك الخاص . فمن الحسن أن يعبد الإنسان آلهة وأرواح آباءه . عد إلى بيتك حتى لا يصييك أذى . إن غضبنا عظيم ، لكننا كبحنا جماحه حتى نستطيع التحدث إليك» .

قال السيد سميث لمترجمه : «أخبرهم أن يبتعدوا عن هذا المكان .
فهذا بيت الرب ولن أعيش لأراه يدنس» .

ترجم أوكيكي قوله للأرواح وقادة أومووفيا بحكمة : «الرجل الأبيض يقول إنه سعيد لأنكم أتيتم إليه بمظالمكم ، كأصدقاء . سيكون سعيداً لو تركتم المسألة بين يديه» .

- «لا نستطيع أن نترك المسألة بين يديه لأنه لا يفهم عاداتنا ، كما أنها لا نفهم عاداته . نحن نقول إنه أحمق لأنه لا يعرف أساليبنا ، ربما يقول إننا حمقى لأننا لا نعرف أساليبه . فليرحل» .

تسمّر السيد سميث في مكانه . لكنه لم يتمكن من إنقاذ كنيسته .
فحالما رحل الأيجوجوو ، كانت الكنيسة التي بناها السيد براون من الطين الأحمر قد تحولت إلى كومة من التراب والرماد . فهدأت روح العشيرة عند هذا الحد .

٢٣ فصل

لأول مرة منذ سنوات عديدة ، شعر أوكونكوا بإحساس شبيه بالسعادة . فالآفاقات التي تغيرت بصورة مستعصية على التفسير أثناء نفيه بدت الآن وكأنها تعود ثانية . ويداً أن العشيرة التي خانت ثقته تصلح الأمور .

خاطب أبناء عشيرته بقسوة عندما اجتمعوا في ساحة السوق ليقرروا ما عليهم فعله . وقد استمعوا إليه باحترام . كان هذا مثل الأيام القديمة المجيدة ، عندما كان المحارب محارباً . ومع أنهم لم يوافقوا على قتل المبشر أو طرد المسيحيين ، إلا أنهم وافقوا على فعل شيء أساسيّ . وفعلوه . فأحس أوكونكوا بالسعادة مرة أخرى .

خلال يومين من تدمير الكنيسة ، لم يحدث شيء . ظل كل رجل في أومووفيا يتتجول مسلحًا ببندقية أو سيف تحطيب . إنهم لن يؤخذوا على حين غرة ، مثل رجال آبامي .

ثم عاد مفهوس شرطة المنطقة من جولته . وذهب السيد سميث إليه فوراً ، ودار بينهما نقاش طويل . لم يلاحظ رجال أومووفيا هذا ، وإذا كانوا

قد لاحظوه ، فلم يعiroه أي أهمية . فالمبشر كثيراً ما كان يزور أخاه الرجل الأبيض . وليس في ذلك أي غرابة .

بعد ثلاثة أيام ، أرسل مفوّض شرطة المنطقة رسوله معسول اللسان إلى زعماء أومووفيا داعياً إياهم إلى مقابلته في مقر قيادته . لم يكن ذلك غريباً أيضاً . فكثيراً ما دعاهم إلى الشرفة ، كما كان يحلو له أن يسميها . كان أوكونكوا وبين القادة الستة الذين وجهت إليهم الدعوة .

حضر أوكونكوا الآخرين في أن يكونوا متقلين كامل سلاحهم . قال : «رجل أومووفيا لا يرفض دعوة . قد يرفض القيام بما يُطلب منه ، لكنه لا يرفض أن يُطلب منه هذا . بيد أن الأوقات تغيّرت ، ويجب أن نكون مستعدين تماماً» .

هكذا ذهب الرجال الستة لمقابلة مفوّض شرطة المنطقة ، مسلحين بسيوفهم . لم يحملوا بنادق ، لأن ذلك سيكون غير لائق . فاقتدوا إلى مبنى المحكمة حيث كان مفوّض الشرطة جالساً . استقبلهم بلطف . فنزعوا أكياسهم الجلدية وسيوفهم المغمدة من قرابها ، ووضعوها على الأرض ، وجلسوا .

بدأ مفوّض الشرطة : «طلبت منكم القدوم بسبب ما حديث أثناء غيابي . أخبرت ببعض أمور ، لكنني لا أستطيع أن أصدقها حتى أسمع من جانبكم . دعونا نتحدث عن هذا كأصدقاء ، ونجد طريقة لضمان عدم تكرار ما حديث» .

نهض أوجبوفي إيكويمي وبدأ برواية القصة .

قال مفوّض الشرطة : «انتظر قليلاً» . أريد إحضار رجالٍ حتى يستمعوا

إلى مظالمكم ويتلقو تحذيراً . كثيرون منهم يتتمون إلى مناطق بعيدة ، ومع أنهم يتكلمون لغتكم ، إلا أنهم يجهلون عاداتكم . جيمس ! إذهب وأحضر الرجال» . غادر المترجم قاعة المحكمة وعاد بسرعة مع اثنين عشر رجلاً . جلسوا مع رجال أوموفيا ، وبدأ أوجبيفي إيكوبيمي يروي كيف أن إينوتش قتل إيجوجو .

ثم حدث ما حدث بسرعة فائقة حتى أن الرجال الستة لم يلحظوا أنه يحدث . نشب عراك قصير فقط ، أقصر حتى من أن يفسح المجال أمام سحب سيف من غمده . وفُيّد الرجال الستة بالأصفاد واقتيدوا إلى غرفة الحرس .

قال مفوض شرطة المنطقة لهم فيما بعد : «لن نلحق بكم أي أذى ، إذا وافقتم فقط على التعاون معنا . لقد جئنا بإدارة مسالمة لكم ولقومكم من أجل إسعادكم . إذا أساء أحد معاملتكم فسنأتي لإنقاذه . لكننا لن نسمح لكم بإساءة معاملة الآخرين . لدينا محكمة حيث ننظر في القضايا ونقيم العدل تماماً كما يحدث في بلدي في ظل مملكة عظيمة . أحضرتكم إلى هنا لأنكم تجمعتم لمضايقة الآخرين ، وإحرق بيوت الناس ومكان عبادتهم . ذلك يجب ألا يحدث في الأراضي التابعة لسيادة مملكتنا ، أقوى حاكم في العالم . لقد قررت أن تدفعوا غرامات مقدارها مائتي كيس من الودع . وسيفرج عنكم فور موافقتكم على ذلك وتعهدكم بجمع الغرامة من قومكم . ما رأيكم في ذلك؟»

ظل الرجال الستة مقطعين وصامتين ، فتركهم مفوض الشرطة لفترة من الوقت . طلب من سعاة المحكمة ، وهو يترك غرفة الحراس ، أن يعاملوا

الرجال باحترام لأنهم سادة أو مموفيا . قالوا : «نعم يا سيدي» ، وأدوا التحية .

حالما غادر مفوض شرطة المنطقة الغرفة ، تناول رئيس السعاة ، الذي كان أيضاً حلاق السجناء ، موساه وحلق شعر جميع الرجال . كانوا لا يزالون مصفدين بالاغلال ، فجلسوا واجميين فقط .

سأل سعاة المحكمة ساخرين : «مَنْ هو الزعيم بينكم؟ نحن نرى أن كل شحاذ في أو مموفيا يتقلد سوار اللقب . هل يساوي هذا السوار عشرة وَدَعَات؟»

لم يتناول الرجال الستة طعاماً طيلة ذلك اليوم والذي تلاه . لم يُقدم إليهم حتى ماء ليشربوا ، ولم يسمح لهم بالخروج للتبول أو الذهاب إلى الغابة لقضاء الحاجة . في الليل ظل السعاة يدخلون عليهم ليتهكموا عليهم ويخبطوا رؤوسهم المحلوقة بعضها بعض .

حتى عندما تركوا وحدهم ، لم يجد الرجال ما يقولونه لبعضهم . في اليوم الثالث فقط ، عندما لم يعودوا يحتملون الجوع والإهانات ، بدأوا يتحدثون عن الإذعان .

ز مجر أوكونكoo : «كان يجب أن نقتل الرجل الأبيض لو استمعتم إلىّ» .

قال آخر له : «كان يمكن أن تكون الآن في أو مورو بانتظار الشنق» .

سأل ساع اندفع بسرعة داخلاً الغرفة : «مَنْ يريد أن يقتل الرجل الأبيض؟» لم ينبع أحد .

حمل عصا قوية : «لم تكتفوا بجريتمكم ، بل تريدون أن تقتلوا الرجل الأبيض فوق هذا» . ضرب بها الرجال على رؤوسهم وظهورهم عدة ضربات . واختنق أو كونكوا بالكراهية .

حالما حُبس الرجال الستة ، انطلق سعاة المحكمة إلى أومووفيا لإخطار الناس أن قادتهم لن يفرج عنهم إلا بعد دفع غرامة مقدارها مائتان وخمسون كيساً من الوداع .

قال رئيسهم : «ما لم تدفعوا الغرامة فوراً ، سنأخذ قادتكم إلى الرجل الأبيض الكبير في أومورو ، ونشنقهم» .

انتشرت هذه القصة بسرعة في جميع أنحاء القرى ، واضيفت إليها مبالغات كثيرة أثناء انتشارها . قال البعض إن الرجال نُقلوا فعلاً إلى أومورو وسيشنقون في اليوم التالي . قال البعض إن عائلاتهم سيشنقون أيضاً . قال آخرون إن الجنود في الطريق إلى أومووفيا لإطلاق الرصاص على سكانها كما فعلوا في آبامي .

كان الوقت اكتمال القمر . لكن صوت الأطفال لم يسمع في تلك الليلة . وظلّ إيلو القرية ، حيث يجتمعون دائماً للهوا في ضوء القمر ، حالياً . لم تتقابل نساء إيجويدو في مخبئهن السري لتعلم رقصة جديدة لعرضها أمام القرية في وقت لاحق . ولزم الشباب الذين كانوا دائماً ينطلقون إلى الخارج في الليالي المقرمة أ��واخهم في تلك الليلة . لم تسمع أصواتهم الرجولية في دروب القرية وهم ماضون لزيارة أصدقائهم أو ملاقاة حبيباتهم . فقد كانت أومووفيا مثل حيوان مذعور متccb الأذنين ، يشتم الهواء الصامت المنذر بالخطر ، ولا يعرف في أي اتجاه يجري .

قطع الصمت منادي القرية وهو يقرع الأوجيني جهوري الصوت . كان يدعو كل رجل في أومووفيا ، من فئة عمر الأكاكانما فصاعداً ، إلى اجتماع في سوق القرية بعد وجبة الصباح . وتتجول المنادي في طول القرية وعرضها . لم يترك أياً من الدروب الرئيسية دون أن يطرقه .

كان مجتمع أوكونكوا شبيهاً بالبيت المهجور . كان ماءً بارداً صب عليه . ظلَّ كل أفراد عائلته هناك ، لكنهم كلهم راحوا يتكلمون همساً . كانت إيزينما قد قطعت زيارة الثمانية وعشرين يوماً لعائلة زوجها المقرب ، فعادت إلى البيت عندما سمعت أن أباها سُجن ، وسيشنق . حالما وصلت إلى البيت ، ذهبت إلى أوبيريكا لتسأله عما ينوي رجال أومووفيا فعله إزاء هذا . لكن أوبيريكا لم يكن في بيته منذ الصباح . فظنت زوجاته أنه ذهب إلى اجتماع سري . واقتنت إيزينما أن شيئاً سوف يفعل .

في الصباح ، وبعد توجيه منادي القرية الدعوة للجتماع ، اجتمع رجال أومووفيا في ساحة السوق وقرروا جمع مائتين وخمسين كيساً من الودع دون إيهام لتهدهئة غضب الرجل الأبيض . لم يعرفوا أن خمسين كيساً ستذهب إلى سعاة المحكمة الذين زادوا الغرامة لذلك الغرض .

٢٤ فصل

أطلق سراح أوكونكoo ورفاقه المسجونين فور دفع الغرامة . تحدث إليهم مفوض شرطة المنطقة مرة أخرى عن الملكة العظيمة . وعن السلام والحكومة الطيبة . لكن الرجال لم يصغوا . بل جلسوا فقط ونظروا إليه وإلى مترجمه . في النهاية ، رددت إليهم أكياسهم وسيوفهم المغمدة وأمرروا بالانصراف إلى بيوتهم . فنهضوا وغادروا مبني المحكمة . لم يخاطبوا أحداً كما لم يتداولوا حديثاً فيما بينهم .

كان مبني المحكمة ، كالكنيسة ، مبنياً على مسافة قريبة خارج القرية . كان الدرب الواصل بينهما مزدحماً جداً لأنه كان يقود إلى الجدول ، وراء المحكمة . كان مكسوفاً ومترباً . وكانت الدروب مفتوحة ومتربة في الفصل الجاف . لكن الشجيرات كانت تنمو أثناء هطول الأمطار بكثافة على جانبي الدرب وتطبق عليه . أما الطقس الآن فكان جافاً .

فيما كانوا متوجهين إلى القرية ، قابل الرجال الستة نساء وأطفالاً ذاهبين إلى الجدول بجرارهم . لكن ملامح الرجال كانت ثقيلة ومخيفة إلى حد أن النساء والأطفال لم يقولوا «نن» أو «أهلاً» لهم ، بل ابتعدوا عن طريقهم ليفسحوا لهم طريقاً للمرور . في القرية ، انضمت إليهم مجموعات صغيرة

من الرجال حتى أصبحوا يشكلون جماعة كبيرة . فمشوا صامتين . حالما وصل كل رجل من الرجال الستة إلى مجتمعه ، دخل إليه برفقة جزء من الجمهور . وساد القرية هرج صامت مكبوت .

هيأت إيزيئنما بعض الطعام لأبيها فور انتشار النباء بأن الرجال الستة سيطلق سراحهم . فحملته إليه في أوبية . أكل وهو شارد الذهن . لم يكن يحس بشهية للطعام ، لكنه أكل منه ليرضيها . وتجمع أقاربه الذكور وأصدقاؤه في أوبية ، وحثّه أوبيريكا على الأكل . لم ينبع أحد من الآخرين . لكنهم لاحظوا الخطوط الطويلة على ظهره أو كونكوا حيث مزق سوط السجّان اللحم .

طاف منادي القرية مرة أخرى في الليل . قرع قرصه الحديدي الدائري وأعلن أن اجتماعاً آخر سيعقد في الصباح . عرف الجميع أن أومووفيا عزمت أخيراً على إبداء رأيها فيما يحدث من أمور .

لم ينم أو كونكوا إلا لماماً في تلك الليلة . فقد امتنجت المرارة في قلبه الآن بنوع من الانفعال شبه الطفولي . قبل أن يأوي إلى فراشه ، تفقد لباس الحرب الذي لم يمسسه منذ عودته من المنفى . هز تنورته المصنوعة من ليف نخيل الرافية المدخن وتفحّص خوذته ذات الريشة الطويلة ودرعه . فكر : كلها في حالة مرضية .

فيما كان مستلقياً على سريره المصنوع من الخيزران ، فكر في المعاملة التي لقيها في محكمة الرجل الأبيض ، فأقسم على الانتقام . إذا اتخذت أومووفيا قراراً بالحرب ، سيكون كل شيء على ما يرام . لكن ، إذا اختار أهلها أن يكونوا جبناء ، فسيخرج ويتقم لنفسه . فكر في الحروب في

الماضي . فـكـر : أـنـبـلـهـاـ كـانـتـ الـحـرـبـ ضـدـ إـيـسـيـسـكـيـ . كـانـ أـوـدـوـكـوـ فـيـ تـلـكـ
الـأـيـامـ مـاـ زـالـ حـيـاـ . وـقـدـ أـنـشـدـ أـوـدـوـكـوـ أـعـنـيـةـ الـحـرـبـ بـطـرـيـقـةـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـحـدـ أـنـ
يـجـارـيـهـ فـيـهـاـ . لـمـ يـكـنـ مـحـارـبـاـ ، لـكـنـ صـوـتـهـ كـانـ يـحـوـلـ كـلـ رـجـلـ إـلـىـ أـسـدـ .

نهاد أو كونكوا وهو يتذكر تلك الأيام : «لم يعد يوجد الآن رجال
نبلاء . لن تنسى إيسيسكي أبداً كيف ذبحناهم في تلك الحرب . قتلنا اثنين
عشر رجلاً منهم وقتلوا رجلين منا فقط . وقبل نهاية أسبوع السوق الرابع ،
كانوا يطلبون السلام . تلك أيام كان الرجال فيها رجالاً حقاً .

بينما كانت تراوده هذه الأفكار ، سمع صوت القرص الحديدي من بعيد . أرهف السمع ، وسمع صوت المنادي . لكنه كان خافتاً جداً . تقلب في سريره وألمه ظهره . وصرف بأسنانه . راح المنادي يقترب تدريجياً إلى أن مرّ قريباً من مجمّع أوكونكوا .

فکر أوكونکوو بمراة : «إن أعظم عقبة في أومووفيا هي ذلك الجبان :
إيجونوانى . إن لسانه الحلو يستطيع تحويل النار إلى رماد بارد . وحين
يتكلم ، يحرّك رجالنا نحو العجز . لو أنهم تجاهلوا نصائحه المختلة قبل
خمس سنوات ، لما وصلنا إلى هذه الحال» . صرف بأسنانه . «غداً
سيخبرهم بأن آباءنا لم يخوضوا مطلقاً «حرب لوم» . إذا استمعوا إليه
سأتركمهم وأخطط لانتقامي» .

خفت صوت المنادي مرة أخرى ، فامتص البعد حدة طنين قرصه المعدني الأجش . تقلب أوكونكوا على كلا جنبيه واستمد نوعاً من متعة من الألم الذي أثاره ظهره . «ليتكلم إيجونواني ما يشاء عن «حرب لوم» غداً ، عندئذ سأريه ظهري ورأسي» . وصرف بأستانه .

بدأت ساحة السوق تمتلىء حالما أشرقت الشمس . كان أوبيريكا منتظراً في أوبييَّه عندما مرَّ عليه أوكونكُو ودعاه للخروج . علق كيسه الجلدي وقرب سيفه على كتفه وخرج . كان كوخ أوبيريكا قرب الطريق ، فرأى كل رجل مرّ وهو يتوجه إلى ساحة السوق . وقد تبادل التحيات مع كثيرين ممن مرّوا في ذلك الصباح .

عندما وصل أوكونكُو وأبيريكا إلى مكان الاجتماع ، كان هناك جموع غفير جداً من الناس إلى درجة أن الإنسان لو ألقى حبة رمل فوقهم ، لما وجدت طريقها إلى الأرض . توالي وصول الكثيرين من كل حيٍّ في القرى التسع . وقد أدفأَت قلب أوكونكُو رؤية قوة أعداد كهذه . لكنه كان يبحث عن رجل بالذات ، الرجل الذي يرهب ويحترم لسانه كثيراً .

سأل أبيريكا : « هل تراه؟ »

« من؟ »

قال : « إيجونواني » ، وظلت عيناه تجوبان زوايا ساحة السوق الهائلة من ركن إلى آخر . جلس معظم الرجال على جلد ماعز على الأرض ، وجلس القليل منهم على مقاعد خشبية أحضروها معهم .

قال أبيريكا وهو يلقي نظرة على الحشد : « لا . نعم ، ها هو ، تحت شجرة القطن الحريري . هل أنت خائف من أن يقنعنا بـأنا نقاتل؟ »

ـ « خائف؟ لا يهمني ما يفعله بكم . فأنا أحتقره هو وجميع من يستمعون إليه . سأقاتل وحيداً إن شئت ». .

تحدثاً بأعلى صوتيهما لأن الجميع كانوا يتكلمون ، وكانت أصواتهم أشبه بضجة سوق كبيرة .

فَكَرْ أو كونكoo : «سأنتظر إلى أن ينتهي من حديثه . عندئذ ، سأتكلم» .

قال أوبيريكا بعد برهة : «لكن ، كيف تعرف أنه سيتكلم ضد الحرب؟»

قال أوكونكoo : «لأنني أعرف أنه جبان» . لم يسمع أوبيريكا بقية ما قاله لأن شخصاً لمس كتفه من الخلف في تلك اللحظة ، فاستدار ليصافحه ويتبادل التحيات مع خمسة أو ستة أصدقاء آخرين . لم يستدر أوكونكoo رغم أنه عرف الأصوات . فلم يكن في مزاج ملائم لتبادل التحيات . لكن أحد الرجال لمس كتفه وسأله عن حال أهل مجتمعه .

قال بلا اهتمام : «هم بخير» .

كان أول رجل يخاطب أومووفيا في ذلك الصباح وهو أوكيكا ، أحد الرجال الستة الذين سجنوا . كان أوكيكا رجلاً عظيماً وخطياً مفوهاً . لكنه لم يكن يتمتع بذلك الصوت المدوي الذي لابد أن يستخدمه أول المتكلمين لإحلال الصمت في اجتماع العشيرة . كان صوت أونييكا من هذا النوع ، لذلك طلب منه أن يحيي أومووفيا قبل أن يبدأ أوكيكا بالكلام .

جأر ، رافعاً ذراعه اليسرى ودافعاً الهواء بيده المفتوحة : «أمووفيا كوبينو !

هدرت أومووفيا : «يا !

جأر مرة أخرى : «أمووفيا كوبينو !» ، ومرة ثالثة ورابعة ، مواجههاً اتجاهها مختلفاً في كل مرة . أجاب الحشد : «يا !

ساد صمت فوري كما لو أن ماء بارداً صب فوق لهب هادر .

وَثَبْ أُوكِيْكَا وَاقْفَا عَلَى قَدْمِيهِ وَحِيَا رَجَالُ الْعَشِيرَةِ أَرْبَعَ مَرَاتٍ . ثُمَّ بَدَأَ الْقَوْلُ : «أَنْتُمْ جَمِيعًا تَعْلَمُونَ لِمَاذَا نَحْنُ هُنَّا ، بَيْنَمَا كَانَ يَجْبُ أَنْ نَعْكَفَ عَلَى بَنَاءِ مَخَازِنَ غَلَالَنَا أَوْ إِصْلَاحَ أَكْوَاخَنَا ، بَيْنَمَا كَانَ يَجْبُ أَنْ نَشْغُلَ بِتَرْتِيبِ أَمْوَارِ مَجَمِعَاتِنَا . لَقَدْ اعْتَدَ أَبِي أَنْ يَقُولُ لِي : «كَلِمَا رَأَيْتَ ضَفْدَعًا يَقْفَزُ فِي وَضْحَ النَّهَارِ ، فَاعْلَمْ أَنْ هَنَاكَ مَنْ يَسْعَى إِلَى قَتْلِهِ» . عَنْدَمَا رَأَيْتُكُمْ جَمِيعًا تَدْفَقُونَ إِلَى هَذَا الْاجْتِمَاعَ مِنْ جَمِيعِ أَحْيَاءِ عَشِيرَتِنَا فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ الْمُبْكِرِ مِنَ الصَّبَاحِ ، عَلِمْتُ أَنْ هَنَاكَ مَنْ يَسْعَى إِلَى قَتْلِنَا» . تَوْقُفٌ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ وَعَادُوا الْكَلَامُ : «جَمِيعُ الْهَتَنَاتِبِكِيِّ . إِيْدِيْمَلِي يَبْكِيُّ . إِيْجُوْجُو يَبْكِيُّ ، أَجْبَالَا يَبْكِيُّ ، وَبِقِيَةُ الْآلَهَةِ الْآخَرِينَ . وَآبَاؤُنَا الْمُتَوْفُونُ يَكُونُونَ بِسَبِّ الْأَنْتَهَاكَ الْمُخْزِيِّ لِمَقْدَسَاتِهِمْ وَالْأَنَامِ الشَّنِيعَةِ الَّتِي رَأَيْنَاهَا بِأَمْ أَعْيَنَا» . تَوْقُفٌ ثَانِيَّةٌ لِيُثْبِتَ صَوْتَهُ الْمُرْتَعِشِ . «هَذَا حَشْدٌ عَظِيمٌ . وَلَا تَسْتَطِعُ أَيْةٌ عَشِيرَةٌ أَنْ تَفَخُّرَ بِأَعْدَادٍ أَكْبَرَ أَوْ شَجَاعَةٍ أَعْظَمَ . لَكِنَّا ، هَلْ نَحْنُ كُلُّنَا هُنَا؟ أَنَا أَسْأَلُكُمْ : هَلْ جَمِيعُ أَبْنَاءِ أُمُّوْدَفِيَا مَعْنَا هُنَا؟» وَأَجْتَاحَتُ الْحَشْدُ هَمْهَمَةٌ عَمِيقَةٌ .

قَالَ : «لَا ، إِنَّهُمْ لَيْسُوا كُلَّهُمْ هُنَّا . لَقَدْ مَرْزُقُوا عَشِيرَةَ وَسَلَكُوا طَرِقًا مُخْتَلِفَةً . نَحْنُ الَّذِينَ نَجْتَمِعُ هُنَا هَذَا الصَّبَاحَ ظَلَلَنَا أَوْفِيَاءَ لِآبَائِنَا ، لَكِنَّ إِخْوَانَنَا هَجَرُونَا وَانْضَمُوا إِلَى رَجُلٍ غَرِيبٍ فِي تَدْنِيسِ أَرْضِ الْأَبَاءِ . وَإِذَا حَارَبَنَا هَذَا الغَرِيبُ فَسَنُصْبِبُ إِخْوَانَنَا وَقَدْ نَسْفَكُ دَمَابِنْ مِنْ أَبْنَاءِ عَشِيرَتِنَا . لَكِنَّنَا يَجْبُ أَنْ نَفْعَلَ هَذَا . فَلَمْ يَحْلِمْ آبَاؤُنَا أَبْدًا بِشَيْءٍ كَهَذَا ، وَهُمْ لَمْ يَقْتُلُوْا أَبْدًا إِخْوَانَهُمْ . لَكِنَّ رَجَلًا أَيْضًا وَاحِدًا لَمْ يَظْهُرْ أَبْدًا بَيْنَهُمْ . لِذَلِكَ يَجْبُ أَنْ نَفْعَلَ مَا لَمْ يَكُنْ آبَاؤُنَا سَيْفَعْلُونَهُ أَبْدًا . فَقَدْ سُؤْلَ الطَّائِرِ إِيْنِيْكِي لِمَاذَا هُوَ دَائِمًا مَشْرَعُ الْجَنَاحِينِ ، فَأَجَابَ : «لَقَدْ تَعْلَمَ النَّاسُ إِطْلَاقَ النَّارِ دُونَ أَنْ

يخطئوا الهدف ، فتعلمت الطيران دون أن أجثم على غصن» . يجب أن نقتلع هذا الشر من جذوره . اذا انحاز إخواننا إلى جانب الشر ، فيجب اقتلاعهم هم أيضاً من الجذور . يجب أن نفعل هذا الآن . يجب أن ننصح بهذا الماء الآن بعد أن وصل إلى كواحلنا فقط . . .

عند هذه النقطة ، انتاب الجمهور هرج فجائي وشخصت أبصار الجميع إلى اتجاه واحد . كان هناك منعطف حاد في الطريق المتوجه من ساحة السوق إلى محكمة الرجل الأبيض ، ثم إلى الجدول وراءها . لذلك لم يلاحظ أحد اقتراب سعاة المحكمة الخامسة إلا عندما داروا حول المنعطف ، على بعد خطوات معدودة من طرف الحشد . وكان أوكونكwoo جالساً في طرف الحشد .

وتب واقفاً على قدميه حالما رأى القادمين . فواجهه رئيس السعاة ، وهو يرتجف حقداً ، عاجزاً عن النطق بأية كلمة . كان الرجل غير خائف ووقف ثابتاً في أرضه ، وقد اصطف رجاله الأربعة خلفه .

في تلك اللحظة القصيرة ، بدا أن العالم يقف ساكناً ، يتظاهر . ساد صمت مطبق . اندمع رجال أوكونكwoo في خلفية الأشجار والنباتات المعرّشة العملاقة الخرساء ، وانتظروا .

حطم رئيس السعاة السكون . أمره : «دعني أمرّ !

ـ «ماذا تريد هنا؟»

ـ «أمر الرجل الأبيض الذي تعرفون مدى قوته جيداً بفضّ هذا الاجتماع» .

بومضة ، استل أوكونكwoo سيفه . فقرفص الساعي ليتحاشى الضربة .

كان هذا بلا جدوى . هوى سيف أوكونكوا مرتين ، فوقع رأس الرجل
بجانب جسده المكسوب ببرشه الرسمية .

قفزت الخلفية المترقبة وقد دبت فيها حياة صاحبة مرة أخرى وانقض
الاجتماع . وقف أوكونكوا شاصاً يبصره إلى الرجل الميت . عرف أن
أومووفيان تحارب . عرف هذا لأنهم تركوا السعاة الآخرين يهربون . لقد
اندفعوا بفوضى بدلاً من أن يُقدموا . ميّز الخوف في ذلك الاضطراب .
وسمع أصواتاً تتساءل : «لماذا فعل هذا؟»

مسح سيفه بالرمل وابتعد .

٢٥ فصل

عندما وصل مفوّض شرطة المنطقة إلى مجتمع أوكونكوا على رأس قوة مسلحة من الجنود وسعاة المحكمة ، وجد جمهرة صغيرة من الرجالجالسة باعياء في الأوبي . أمرهم بالخروج ، فأطاعوا دون أن تصدر عنهم أية همة .

سأل عن طريق المترجم : «منْ منكم يدعى أوكونكوا؟»

أجاب أوبيريكا : «هو ليس هنا»

- «أين هو؟»

- «إنه ليس هنا!»

غضب المفوّض واحمر وجهه . حذرهم من أنهم إذا لم يسلموا أوكونكوا فسيسجّنهم جميعاً . تتمم الرجال فيما بينهم ، ثم تكلّم أوبيريكا ثانية .

- «سأأخذكم إلى مكان وجوده ، فقد يساعدنا رجالكم» .

لم يفهم المفوّض ما قصده أوبيريكا حين قال : «فقد يساعدنا

رجالكم». فكر: إن أكثر عادة تثير الغضب عند هؤلاء الناس هي حبهم للكلمات الرائدة عن اللزوم.

قاد أوبيريكا وخمسة أو ستة رجال آخرون الجمع . تبعهم المفروض
ورجاله وأسلحتهم جاهزة للاستعمال . حذر المفروض أوبيريكا من أنه اذا
أقدم هو ورجاله على أية خدعة فستُطلق النار عليهم . وهكذا ساروا .

كانت تقع خلف مجمع أوكونكoo أجمة صغيرة . والمنفذ الوحيد إلى هذه الأجمة من مجمع أوكونكoo هو ثقب صغير مستدير في السور الطيني الأحمر ، ثقب يدخل ويخرج منه الدجاج في بعثه الدائب عن الطعام . لم يكن الثقب يسمح بمرور رجل من خلاله . إلى تلك الأجمة ، قاد أوبيريكا المفوض ورجاله . فداروا حول المجمع ، وهم يكادون يلتصقون بالسور . كان الصوت الوحيد الصادر عنهم هو وقع أقدامهم وهي تسحق أوراق الشجر العجافة .

وصلوا إلى الشجرة التي كان جسد أوكونكوا يتسلل منها ، فتوقفوا مشدوهين :

قال أوبيريكا : «قد يستطيع رجالكم مساعدتنا في إنزاله ودفنه . لقد أرسلنا في طلب غرباء من قرية أخرى ليتولوا القيام بالعمل عوضاً عنا ، لكنهم قد يستغرقون وقتاً طويلاً» .

تغيير مفهوم شرطة المنطقة على الفور . و حلّ مكان الإداري الحازم
دارس العادات البدائية .

سؤال : «لماذا لا تنزلونه بأنفسكم؟»

قال أحد الرجال : «هذا ضد أعرافنا . إن قتْلَ الرجل لنفسه إثم عظيم :

إنه إساءة لربة الأرض ، ومن يرتكب هذا الإثم لا يدفنه أبناء عشيرته .
فجثمانه شر ، والغرياء فقط يستطيعون أن يلمسوه . لذلك نطلب من
رجالك إنزاله ، لأنكم غرباء» .

سأله المفوض : «هل ستدعونه مثل أي رجل آخر؟»
ـ «نحن لا نستطيع أن ندفنه . الغرياء فقط يستطيعون هذا . سندفع
لرجالك ليفعلوا هذا . وحين يدفن ، سنقوم بواجبنا نحوه . ستقديم القرابين
لتطهير الأرض المدنسة» .

فجأة ، التفت أوبيريكا ، الذي كان يحذق بثبات في جسم صديقه
المتدلي ، إلى مفوض شرطة المنطقة وقال بشراسة : «ذلك الرجل كان
واحداً من أعظم الرجال في أوموروبيا . لقد دفعته إلى قتل نفسه ،
وسيدفن الآن ككلب . . . لم يستطعموا مواصلة الكلام . فقد ارتعش صوته
وختق كلماته .

صرخ أحد السعاة بلا ضرورة على الإطلاق : «إنترس !

أمر المفوض رئيس ساعاته : «أنزل الجسد وأحضره مع جميع هؤلاء
الناس إلى المحكمة» .

قال الساعي : «نعم سيدى» .

ورفع يده بالتحية العسكرية .

مضى مفوض شرطة المنطقة ، آخذًا معه ثلاثة أو أربعة جنود . وخلال
السنوات الكثيرة التي كدح فيها من أجل إحلال الحضارة في أنحاء مختلفة
من أفريقيا ، تعلم عدداً من التصرفات . أحد هذه التصرفات هو ألا يشغل

مفهوم شرطة منطقة نفسه مطلقاً بتفاصيل تافهة كقطع جبل رجل مشنوقي متدل من شجرة . فمثل هذا الاهتمام يمكن أن يعطي السكان المحليين فكرة سيئة عنه . وفي الكتاب الذي خطط لكتابته ، سيشدد على هذه النقطة . فيما كان عائداً إلى المحكمة ، فكر في ذلك الكتاب . فكل يوم يمده بمادة جديدة . وقصة هذا الرجل الذي قتل ساعياً وشنق نفسه ستشكل مادة مثيرة للقراءة . ويوسع الإنسان أن يكتب فصلاً كاملاً تقريراً عنه . قد لا يكون فصلاً كاملاً ، بل فقرة معقولة على أي حال ؛ فهناك مواد كثيرة أخرى سيدرجها في الكتاب ، وعلى الإنسان أن يكون صارماً في حذف التفاصيل . وقد سبق واختار عنوان الكتاب ، بعد تفكير عميق وهو : تهذئة القبائل البدائية في حوض النيجر السفلي .

مسرد لكلمات قبيلة إيبو وتعابيرها

أجادي - نوائي agadi - nwayi : امرأة عجوز .

أجبالا agbala : امرأة : تستعمل أيضاً عن رجل لا يتمتع بأي لقب .

تش chi : إله شخصي .

إيفوليفو efulefu : رجل لا شأن له .

إيجووجوو egwugwu : مُقنع بجسّد إحدى أرواح أجداد القرية .

إيكوي ekwe : آلة موسيقية ، نوع من طبل مصنوع من الخشب .

إنيكي - نني - أوبا eneki - nti - oba : نوع طائر .

إيزي - أجادي - نوائي eze - agadi - nwayi : سن امرأة عجوز .

إيبا iba : حمى .

إيلو ilo : قطعة أرض خضراء في القرية حيث تعقد اجتماعات للرياضة والنقاش .
الخ .

إينيانجا inyanga : الناظهر ، التفاحر .

إيسا - إيفي ifi - isa : إحتفال : إذا انفصلت زوجة عن زوجها البعض الوقت ثم يُعاد الارتباط معه ، فإن هذا الاحتفال يعقد ليؤكّد أنها لم تكن خائنة له .
خلال وقت انفصالهما .

إيبى - أوووالى - iyi : نوع خاص من حجر يكون الوصلة بين أوجبانجي وروح العالم . وإذا اكتشف إيبى - أووا ودُمر فلن يموت الطفل .

جييجيدا jigida : خيط خرز للخصر .

كوتما kotma ساعي محكمة : والكلمة ليست عن لغة الإيبو ، بل هي تشوهه

للكلمة الانجليزية المركبة **court - messenger** .
 كوبنو **kwenu** : صرخة استحسان وتحية .
 نديتشي **ndichie** : شيخ .
 نا آبي **nna ayi** : أبونا .
 نتو **nno** : أملاً .
 نسو-آني **nso - ani** : إساءة دينية من نوع يمقتها الكل .
 نزال **nzal** : طائر صغير جداً .
 أوببي **obi** : كوخ رئيس العائلة الكبيرة .
 أبودو ديكى **obodo dike** : أرض الشجعان .
 أوتشو **ochu** : جريمة قتل أو مذبحة .
 أوبانجي **obanje** : متغّير : طفل يموت مراراً وتكراراً ويُعود إلى أمه ويولد من جديد . إنه لمن المستحبيل أن ينهي طفل أوبانجي دون أن يموت ، إلا إذا عثر أولاً على لبى - أعوا ودم .
 أوجيني **†ogene** : آلة موسيقية ، نوع من جرس قرصي .
 أوجي أودو أتشو-إيجيحي - أو - **oji odu achu ijiji** : بقرة (أي البقرة التي تستعمل ذيلها لطرد الذباب) .
 أوسو **osu** : منبوز ، كُرس إلى إله وكان الأسو تابو **taboo** ، ولم يسمح له بالاختلاط مع الأحرار بأية طريقة من الطرق .
 أوببي **Oye** : اسم أحد أيام السوق الأربع .
 أوزو **ozo** : أحد أسماء الألقاب أو الرتب .
 توفيا **tufia** : لعنة أو شتيمة .
 أودو **udu** : آلة موسيقية ، نوع من طبل يصنع من الفخار .
 أولي **uli** : صبغة تستعملها النساء لرسم أشكال على البشرة .
 أو موادا **umuada** : تجمع عائلي للبنات ، حيث تعود القربيات الأثاث إلى قرينهن الأصلية .
 أو مونا **umunna** : مجموعة واسعة من أقرباء : (الصيغة الذكرية للكلمة أو موادا **(umuada** .
 أوري **uri** : جزء من احتفال الخطبة حين يُدفع المهر .

أسئلة:

الأسئلة التالية من وضع المترجم .

الجزء الأول :

فصل ١

١ . ما سبب شهرة أوكونكwoo في شبابه قبل عشرين سنة من وقائع هذه الرواية؟

٢ . صف بيايجاز الصراع الذي دار بين أوكونكwoo والهر أمالينز وأسلوب كل منهما في المصارعة .

٣ . صف المظهر الخارجي لشخصية أوكونكwoo .

٤ . ما هي صفات شخصية أونوكا ، أبي أوكونكwoo؟ أذكر حدثاً في الرواية يصور دهاء أونوكا في التخلص من داثنية .

فصل ٢

٢ . أذكر بعض المعتقدات المتعلقة بالأرواح الشيرية والحيوانات في قرية أومووفيا .

٢ . ما سبب غضب قرية أومووفيا على قرية مباينو؟ كيف حلّت المشكلة بين القريتين؟

٣ . مَنْ الَّذِي اخْتَارَهُ قَرْيَةً أَوْ مَوْفِيَا مَبْعُوثًا إِلَى قَرْيَةٍ مُبَيِّنًا؟ لِمَاذَا؟ مَا تَأْثِيرُهُ عَلَى الْقَرْيَةِ الْأُخْيِرَةِ؟

٤ . هَلْ تَرَى أَنَّ أُوكُونِكُو وَرَجُلَ نَاجِحٍ فِي قَرْيَتِهِ؟ كَمْ عَدْدُ زَوْجَاتِهِ؟ كَيْفَ يَعْلَمُهُنَّ؟ كَمْ عَدْدُ أَكْوَافِهِ؟

٥ . كَيْفَ كَانَ يَعْلَمُ ابْنَهُ الْأَكْبَرَ نُورُوبِي؟ مَا تَأْثِيرُهُ عَلَى التَّكْوِينِ الْفُسْسِيِّ لِهَذَا الْابْنِ؟

فَصْلٌ ٣

١ . أَجْبَالًا ، مَا هُوَ ، مَا تَأْثِيرُهُ فِي الْقَرْيَةِ؟ مَا هُوَ عَمَلُ كَاهِنَةِ أَجْبَالًا هَذَا؟

٢ . مَا هُوَ طَرِيقُ النَّجَاحِ فِي الْعَمَلِ : تَقْدِيمُ الْقَرَابِينَ أَمُّ الْعَمَلِ الْجَادُ؟

٣ . مَا هُوَ الْتَّشِيُّ؟

٤ . غَابَةُ الشَّرِّ ، لِمَاذَا سَمِّيَتْ بِهَذَا الْاسْمِ؟ لِأَيِّ غَرْضٍ تَسْتَعْمِلُ؟

فَصْلٌ ٤

١ . صَفْ مَوْقِعًا يَبْيَنُ قَسْوَةً أُوكُونِكُو عَلَى ابْنَهُ الْأَكْبَرِ نُورُوبِي .

٢ . صَفْ كَيْفَ أَنْسَجَمَ الرَّهِينَةُ يِكِيمِيفُونَا مَعَ أَفْرَادَ أَسْرَةِ أُوكُونِكُو ، خَصْصُوصًا الْابْنَ الْأَكْبَرَ ، نُورُوبِي .

٣ . بِتَقْيِيدِ الْبَدَائِيُّونَ بِأَسْبُوعٍ بَمْتَنَعُونَ فِيهِ عَنِ الْإِسَاعَةِ إِلَى الْغَيْرِ مِنْ أَفْرَادِ أَسْرِهِمْ وَزَوْجَاتِهِمْ خَوْفًا مِنْ اِنْتِقَامِ آلَهَةِ الْأَرْضِ ، وَيُسَمَّى هَذَا بِأَسْبُوعِ السَّلَامِ ، مَا هِيَ كَفَّارَةٌ مَنْ يَخَالِفُهُ؟

فَصْلٌ ٥

١ . مَتَى يَحْلُّ عِيدُ الْيَامِ الْجَدِيدِ؟ هَلْ الْاحْتِفَالُ بِهَذَا الْعِيدِ يَتَعَلَّقُ بِالْآلَهَةِ الْأَرْضِ وَالْخَصْبِ؟

٢ . صَفْ الْاحْتِفَالُ بِهَذَا الْعِيدِ .

٦ فصل

١ . صف مباراة مصارعة بمناسبة عيد الأيام الجديد .

٧ فصل

١ . إِرْوَ قَصَّةً إِيْكِيمِيفُونَا .

٢ . الْجَرَادُ ، مَاذَا يَشْكُلُ لِلْقَرْيَةِ؟ مَاذَا بَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ؟ كَيْفَ يَقْاتِلُونَهُ؟

٣ . أَذْكُرْ كَيْفِيَةَ قَتْلِ إِيْكِيمِيفُونَا .

٤ . صَفْ حَالُ أُوكُونُكُوو بَعْدَ قَتْلِهِ لِإِيْكِيمِيفُونَا .

٥ . مَا هُوَ مَصْبِرُ التَّوَائِمِ فِي أُومُورُوفِيَا؟

٨ فصل

١ . مَا الَّذِي يَدْوُرُ فِي بَيْتِ أُوبِيرِيَّكَا؟

٢ . هَلْ شَارَكَ أُوبِيرِيَّكَا ، صَدِيقَ أُوكُونُكُوو ، فِي قَتْلِ إِيْكِيمِيفُونَا؟ لِمَاذَا؟

٣ . صَفْ طَرِيقَةَ التَّقْدِمِ بِطَلْبِ يَدِ فَتَاهَةِ مِنْ أَيْبِهَا . كَيْفُ يُحَدِّدُ الْمَهْرَ؟

٩ فصل

١ . لِمَاذَا الْخُوفُ عَلَى إِيزِينِمَا حِينَ تَمْرُضُ؟ تَتَّبِعُ مَراحلُ الْوَلَادَاتِ عِنْدَ أَمْهَا .

٢ . كَيْفَ أَظْهَرَ الْمُؤْلِفُ مَدْىَ أَهْمَيَةِ إِيزِينِمَا لِأَمْهَا وَأَيْبِهَا؟

٣ . دَائِرَةُ الْوَلَادَةِ وَالْمَوْتِ الشَّرِيرَةِ . إِشْرُحْ هَذَا .

٤ . مَا مَعْنَى كَلْمَةُ أُوجَبَانِي؟

١٠ فصل

١ . أَذْكُرْ بِإِيجَازٍ مَحَاكِمَةً مِنْ مَحَاكِمَاتِ الْقَبِيلَةِ لِفَضْلِ الْخَلَافَاتِ بَيْنَ الْأَفْرَادِ وَالْمَجَمُوعَاتِ . مَنْ هُمُ الْقَائِمُونَ عَلَى هَذِهِ الْمَحَاكِمَاتِ .

فصل ١١

١ . بث المؤلف بين وقائع روايته هذه حكايات شعبية هي أقرب إلى الأساطير . أذكر بإيجاز حكاية أو حكايتين من هذه الحكايات .

٢ . ذكر فيما بعد أن الحكايات تقسم إلى حكايات أنثوية وحكايات ذكرية ، أذكر خصائص كل نوع من هذه الحكايات مع اقتباس ما يتعلق بهذا من النص الروائي .

فصل ١٢

١ . صفات إيجاز حفل زواج ابنة أوبيركا .

فصل ١٣

١ . مَنْ هُمُ الْإِيْجُووْجُووْ؟

٢ . كيف وقعت مأساة أوكونكورو وقتل الغلام أثناء الاحتفال ؟ هل يجري عندنا مثل هذه المأساة في الأعراس والاحتفالات ؟ علّق .

٣ . ماذا كان عقاب أوكونكورو على هذه الفعلة النكراء ؟

الجزء الثاني

فصل ١٤

١ . صفات جنازة محارب عظيم .

٢ . كيف استقبل أوكونكورو من قبل أهل أمه في منفاه ؟

٣ . كيف تأقلم مع البيئة الجديدة ؟

فصل ١٥

١ . يبدأ الآن ظهور الرجل الأبيض ، أذكر كيف حدث هذا .

٢ . حلّ الرجل الأبيض في آبامي ؟ فحلّ شرّ عظيم في تلك القرية ، هل توافق على هذا؟

٣ . مارد فعل أوكونكwoo على ما سمعه عن قرية آبامي ؟ هل هذا الرد ينسجم وطبيعة أوكونكwoo ؟

١٦ فصل

١ . يتكرر في هذا الفصل الحديث عن الرجل الأبيض بعد مجرزة آبامي وإرهاب قبيلة الإييو ، حيث تجري أحداث هذه الرواية ، وسيطرة الرجل الأبيض عليها . حمل الرجل الأبيض دينه المسيحي لينشره بين الوثنين ، فاستعمل الترغيب تارة والترهيب تارات عديدة ، إشرح هذا بالرجوع إلى النص الروائي .

٢ . لماذا يbedo دخول نوبي ، ابن أوكونكwoo الأكبر ، في الدين الجديد مقنعاً . ما هي المبررات التي تراها مبثوثة بين ثانياً وقائع هذه الرواية التي أدت إلى دخوله في الدين الجديد .

١٧ فصل

١ . قدّمت قرية مباتا غابة الشر لتصبح موقعاً لكنيسة المبشرين وهم يعتقدون بأن مصير هذه الكنيسة في ذلك المكان المنحوس سيؤدي إلى دمار الكنيسة ومنْ سيقيمون فيها شعائرهم . ماذا حدث ؟ هل هزّ هذا معتقدات هؤلاء البدائيين ؟ هل ساعد في إقناع البعض لدخول الدين الجديد ؟

١٨ فصل

١ . كان لا بد للدين الجديد أن يضع حدّاً لعادات قديمة بالية ومضرة بالناس البسطاء حتى يتحول الناس البدائيون عن دينهم الوثني إلى هذا الدين الجديد . قدم أمثلة عن هذا من النص الروائي .

٢ . بماذا وصف أوكوكو وأهل مبانيا لرضاخوهم لسلطة وقوة ودين
الرجل الأبيض؟

١٩ فصل

١ . صفات التحضير لعوده أوكونكورو إلى أومووفيا ، قريته . صفات عودته
إليها .

٢ . كيف ودع أوكونكورو قرية أمه؟
٣ . ما الجديد الذي رأه في قريته حين عاد إليها من المنفى؟ هل أعجبته
هذه الحال؟

الجزء الثالث

٢٠ فصل

١ . كم سنة قضها إوكونكورو في المنفى؟
٢ . ما الذي طلبه أوكونكو من ابنته في المنفى؟ هل انصاعتا لوجهة
نظره؟

٤ . ما الذي جلبه الرجل الأبيض إلى البلاد إضافة إلى الكنيسة؟ ما الذي
بناه الرجل الأبيض إضافة إلى هذا؟

٥ . مفوض الشرطة ، سعاة المحكمة ، أذكر دور كل منهم في السلطة
الاستعمارية .

٦ . كيف عبر الرجل الأسود عن حقده على سعاة المحكمة السود؟

٢١ فصل

١ . ماذا ترى في نقاش السيد براون وآكونا؟ هل ترى أن رأي دين الوثنين
البدائي قريب من الدين المسيحي مع اختلاف الأسماء؟

٣ . أدخل الرجل الأبيض المدرسة ودور العلاج ، هل أثر هذا على إقناع الناس بالدين الجديد؟ لماذا؟

٢٢ فصل

١ . ما الفرق بين سياسة السيد بروان والقسيس سميث الذي حل محله؟
هل قصدت سلطات الاحتلال هذا التغيير بعد أن سيطرت على البلاد؟

٢٣ فصل

١ . إيجووجو وأثار أحقاد الناس على الدين الجديد؟ إشرح .
٢ . كيف استطاع المفوض خداع كبار رجال أوموروفيا الست . أذكر ما جرى لهم مع المفوض وسعة المحكمة .
٣ . بث السعاة الرعب في نفوس أبناء القرية . ألا ترى أن الاستعمار يحكم المستعمرات من قبل أبنائهما في كل مكان؟

٢٤ فصل

١ . الغرامة المدفوعة . كم هي وكيف وزعت ؟
٢ . هل هذا غصب أو كونكوا بعد سجنه وإهانته وإطلاق سراحه الخ ؟
٣ . كيف أظهر المؤلف أن روح القتال في القرية قد ماتت؟ خطب أحد الخطباء خطبة حماسية دفاعاً عن الآباء والأجداد ، ماذا كان رد فعل الجماهير ؟
٤ . من الذي قتله أو كونكوا أبناء المجتمع؟ هل لهذا تبرير معقول في ثنایا العمل الأدبي؟ ما نتائج هذا العمل ؟

٢٥ فصل .

١ . قال أوبيريكا : «ستأخذكم إلى مكان وجوده ، فقد يساعدنا

رجالكم» . هل فهم المفوض هذا أم اعتبره كلاماً زائداً؟ متى فهم المعنى وكيف؟

٣ . ماذا قال أوبيريكا في تأيين صديقه المتتحر؟

٤ . فيما كان (المفوض) عائدًا إلى المحكمة ، فكر في ذلك الكتاب (الذي خطط لكتابته) . فكل يوم يمده بمادة جديدة . وقصة هذا الرجل الذي قتل ساعيًا وشنق نفسه ستشكل مادة مثيرة للقراءة . ويوسع الإنسان أن يكتب فصلاً كاملاً تقريراً عنه . قد لا يكون فصلاً كاملاً ، بل فقرة معقولة على أي حال ؛ فهناك مواد كثيرة أخرى سيدرجها في الكتاب ، وعلى الإنسان أن يكون صارماً في حذف التفاصيل . وقد سبق واختار عنوان الكتاب .. إلخ

في كتب التاريخ يقتصر المؤرخ أو الدارس الاجتماعي على فصل أو فقرة معقولة في تصوير أحداث ما فرآته . هل يكفي هذا ليعطينا الصورة الكاملة عن حقبة تاريخية أو شريحة اجتماعية ؟

الرواية قدّمت لنا عالماً يعيش بالأساطير والحكايات الشعبية والواقع اليومية والشخصيات المفعمة بالحياة ؛ ومن هذا كله كُتبت رواية جيدة ، فال التاريخ والدراسات التاريخية والاجتماعية .. إلخ لا تستطيع أن تدخلنا في عالم حياة أخرى (جماعية أو فردية) على عكس الرواية الراخة بالحياة .

أكتب عن هذا الموضوع ما يمكنك الكتابة عنه ، مقتبساً من هذه الرواية ومن روایات عربية وأجنبية لتعزز رأيك بهذا الخصوص .

سؤال عام

يتبع المؤلف حياة الشخصية الرئيسية في الرواية ، أو كونكرو ، بتسلسل زمني ، يعود فيه إلى الماضي من وقت إلى آخر ليلقي ضوءاً على هذه الشخصية أو تلك أو على أحداث ماضية ؛ تابع هذا التسلسل الزمني البسيط ولخص في أقل من صفحتين أطوار حياة هذه الشخصية مع الأحداث الرئيسية التي يعيشها هذا الرجل .

أشياء تداعى

علیٰ مولا

شیاء تداعی

S-P250



1 1 6 7 0 7

علم المعرفة

الدورة الأولى

الملكية الأردنية الهاشمية - عمّات / وسط البلد
خلف مطعم القبس من. ب - ٧٧٢ - هاتف ٤٣٧٨٨٨
فاسكس ٤٦٥٧٤٤٥ - منشوّات تأفيـ١ـ العامـ٢٠٠٥
• الغلاف: زهير أبو شباب. 